

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique Populaire

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي، جامعة 8 ماي 1945 قالمة

Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique, Université

8 mai 1945 Guelma

Université du 8 mai 1945 Guelma

Faculté des Lettres et Langues

Section langue et littérature arabe

.....:°N



جامعة 8 ماي 1945 قالمة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الرقم:.....

مذكرة مقدمة لنيل شهادة

الماستر

(تخصص: لسانيات تطبيقية)

آليات الخطاب الحجاجي في كتاب الداء والدواء لابن القيم الجوزية

- مقارنة تداولية في ضوء نظرية بيرلمان -

مقدمة من قبل: رميساء عفيف.

تاريخ المناقشة: 2020/09/23.

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة
فريدة زرقين	أستاذ التعليم العالي	رئيسا
د. الطاهر عفيف	أستاذ محاضر "ب"	مشرفا ومقررا
وردة بويران	أستاذ محاضر "أ"	ممتحنا

السنة الجامعية: 2020-2019

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و عرفان

الشكر والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، شكراً يليق
بعظيم السلطان وجلال وجهه، وحمداً على ما أتم وما
وفّق، إذ منحني القدرة على إتمام البحث.

أتقدم بالشكر والعرفان لكل من أسهم معي في إتمام هذا
البحث المتواضع، وأخصّ بالذكر الأستاذ المشرف
"عفيف الطاهر"، على ما قدّمه من مساعدة وتوجيه
وإرشاد.

كما أتقدم بشكري إلى أساتذة اللغة والأدب العربي
بجامعة قالمة، الذين كانوا لي خير بديل ونعم المُجيب.
حفظ الله الجميع وجزاهم خير الجزاء.

إهداء

إلى واحة أحلامي وسراج حياتي، إلى نبع الحنان الصافي والصدر
الحنون الدافئ إلى أُمي الغالية.

إلى تاج رأسي وفخري وذخري وعوني في هذه الحياة، إلى من
يتعب لنرتاح ويشقى لنسعد إلى جدي العزيز " بوشحدان محمد
الصغير".

إلى أحبائي قلبي وأشقاء روعي إلى أخي وديع وأختي ملاك.
إلى كل من مدني العون والإرشاد والتشجيع من قريب أو من بعيد.
إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا الجهد المتواضع، راجية من المولى
عزوجل أن ينفع به.

رميساء

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم ووالاهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

يكتسي الخطاب أهمية كبيرة تعود لسياقات المجتمع الكثيرة، التي تتطلب خطابات متنوعة تقتضيها العملية التفاعلية المتبادلة بين المرسل والمتلقي، لتتعدّد بذلك أوجهه الكثيرة بين ما هو شفوي وما هو مكتوب، والتي يكون فيها المرسل مخاطبًا، محاجبًا، مدافعًا عن لبنات أفكاره، مستخدمًا في خطابه استراتيجيّة، ووسائل إقناعيّة مختلفة، بغية إيصال أفكاره إلى المتلقي، للتأثير فيه واستمالاته وجدانيًا، وفكريًا، وسلوكيًا...، وبهذا يبرز الخطاب الحجاجي الذي يعدّ من أهمّ المواضيع التي أنتجت الدراسات اللغويّة الحديثة في الحقل التداولي، بعد أن كانت له جذور عريقة في التاريخ؛ إذ أنّ أول ظهور لمصطلح الحجاج كان في البلاغة اليونانيّة خصوصًا مع أفلاطون وأرسطو، أين كان يوظّف البرهان والحوار بغرض التأثير في المتلقي، وهو في أوجّ ازدهاره، في حين أنّ أهميته في الدراسة الحديثة ترجع إلى العودة القويّة للبلاغة، تحت ما يعرف بـ "البلاغة الجديدة"، والتي اعتبرته مجموعة من التقنيات، والآليات الخطابية التي توجّه إلى المتلقي، بغرض إقناعه والتأثير فيه، والزيادة في إذعانه وتسليمه؛ من خلال تركيزها على جانبين اثنين البلاغة، والحجاج كوسيلة أساسية من وسائل الإقناع.

ومن هنا تبلور موضوع دراستنا في الحجاج من خلال الجمع بين اهتمامين: الحجاج بأبعاده التداولية المعاصرة ممثلة على الخصوص في الطرح الحديث الذي تقدّم به بيرلمان محاولين الوقوف على أهمّ آلياته، وتقنياته؛ لاعتباره الدفع إلى الفعل أهمّ وظيفة حجاجية في الإقناع ك مجال للبحث الحجاجي، والتي تتطلب وعيًا بالآليات تحرك المخاطبين صوب الفعل وتغييره لما ينسجم مع المقام، والكتب الدينية التي يُحاجج فيها العلماء العقول بشنّى الطرق بالحجّة والبرهان القرآني، بالأمثال والحكم، وبالرمز والتّصوير.

كما آثرنا أن نوضّحه من خلال مدوّنة تراثية تتجلّى فيها أضرب الحجاج على اختلاف أنواعها، وهي "الداء والدواء" لابن قيم الجوزية، لما تمتلك من خصوصيات، تجعلها مجالاً خصباً لهذا الطرح.

وعليه جاءت الدراسة موسومة بـ:

" آليات الخطاب الحجاجي في كتاب الداء والدواء لابن قيم الجوزية "

- مقارنة تداولية في ضوء نظرية بيرلمان - "

وحاولنا من خلال هذا البحث الإجابة عن إشكالية تتعلّق: بأسرار القوّة الحجاجيّة عند ابن القيم، وقد قادنا بحث هذه الإشكالية إلى وضع جملة من الفرضيات، منها: هل الحجاج موجود في كتابات ابن القيم؟ وإذا كان كذلك، فما دور الثقافة الشرعية الموسوعية في تغذية فكره الحجاجي؟ وكيف أثر العصر الذي عاش فيه على أسلوبه في الحجاج؟ وهل كان لطبيعة الموضوعات التي عالجها أثر في حجاجيته؟ أم الأمر راجع إلى جملة التقنيات الخطابيّة التي وظفها في كتاباته؟.

ثمّ تمخّضت عن هذه الإشكاليّة الرئيّسة إشكاليات فرعية أهمّها:

1. ما هو الخطاب؟ وما شروطه؟ وما هي أنواعه؟.
2. ما مفهوم الحجاج؟ وكيف كان تطوّره في الثقافة الغربيّة والعربيّة قديماً وحديثاً؟.
3. هل النظريّة الحجاجيّة الغربيّة تختلف اختلافاً جوهرياً عن نظيرتها في الثقافة العربيّة الإسلاميّة؟
4. ما هي الآليات الحجاجيّة التي وظفها ابن القيم في كتابه؟

وفيما اطّلعنا عليه، لم نجد دراسة متكاملة تناولت كتابات ابن القيم بالتّحليل الحجاجي، وفق المقاربة التي تطرّقنا إليها في هذا البحث، وفي نفس الوقت لم تكن دراستنا هي الأولى من نوعها التي اهتمت بدراسة موضوع الحجاج من جهة، أو غنيت بدراسة ابن القيم من جهة أخرى، بل وُجدت بحوث، ودراسات عديدة، نذكر منها:

- حجاجية المقال الديني عند ابن قيم الجوزية رحمه الله، لأحمد زاوي: وهو مقال درس فيه مؤلفه مبحث الحجاج في كتاب "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي" وهي طبعة أخرى لكتاب "الدواء والدواء"، من خلال دراسة حجاجية عامة، مع تطبيق لبعض تقنيات الحجاج التي جاء بها ديكر في نظريته حول الحجاج التداولي.

- استراتيجيات الخطاب عند ابن قيم الجوزية في ضوء اللسانيات التداولية، لمحمد العجالي، وهي: رسالة ماجستير حاول فيها صاحبها الكشف عن جهد ابن القيم في تأطير استراتيجيات الخطاب نظرياً أو منهجياً، وكذلك الكشف عن ما جاء به من أمثلة تطبيقية تخصّ كل استراتيجية، وذلك في ضوء اللسانيات التداولية.

• خصائص لغة ابن قَيِّم الجوزية من خلال كتابه "مفتاح دار السعادة"، لنصيرة زيد المال، وهي رسالة ماجستير، تناولت فيها مؤلفتها الخصائص الأسلوبية، واللغوية، والبلاغية، والتركيبية في خطاب ابن القيم، ممثلة في كتابه "مفتاح دار السعادة".

أما عن أسباب اختيار الموضوع فتقسم إلى :

• أسباب موضوعية تتلخص في :

✓ طبيعة الحجاج التبادلية؛ فالذات الإنسانية مفطورة على الحجاج غالبا، وهو ذاتي فينا، لأننا في الغالب نحاج في كلامنا و تصرفاتنا يوميا ، وإن كنا لا ندرك ذلك بصورة واضحة.

✓ ارتباط الحجاج ارتباطا وثيقا بموضوع اللغة و التّواصل، ومن هنا ترتقي أهميته في تحسين العلاقات الاجتماعية.

✓ أهمية موضوع الحجاج كونه موظفا في جميع أنواع الخطاب.

• أسباب ذاتية : وتتلخص في إعجابنا الكبير بثقافة ابن القيم، والتأثر البالغ بكتاباتة، وهو ما دفعنا لتكيز البحث في أسلوبه، وأسرار خطابه، وآليات تأثيره، وتقنيات حجاجه.

وانطلاقاً من تلك الأسباب والدوافع، سطرنا للبحث أهدافا، نذكر منها:

1. الوقوف على حقيقة الخطاب الحجاجي، وتاريخ النظرية الحجاجية في الغرب وعند العرب.
2. محاولة الجمع بين القديم والمعاصر؛ وذلك بتطبيق النظرية الغربية المعاصرة " البلاغة الجديدة" على مدونة تراثية قديمة "الداء والدواء" لابن قَيِّم الجوزية.
3. تتبّع الآليات والسبب التي انتهجها ابن قَيِّم الجوزية في الإقناع بأطروحاته.
4. بيان دور البلاغة الجديدة في دراسة آليات الحجاج، وكيفية تحقيق الإقناع.

وللوصول إلى جملة الأهداف المسطرة، و كذا الإجابة عما طرح من إشكاليات، انتهجنا - طبقاً لما يفرضه الكتاب المدرس- المنهج الوصفي في دراسة الآليات الحجاجية عند ابن القيم في كتابه "الداء والدواء"، وفق مقارنة البلاغة الجديدة كما حددها شايم بيرلمان، وذلك من أجل الوقوف على بؤر الطاقة الحجاجية فيها، حيث ارتأيناه أنسب المناهج في مقارنة موضوع الدراسة، ولا سيما في جانبها التطبيقي، وذلك من خلال الكشف عن المعنى الحجاجي الموجود بالقوة في مقاصد الخطاب.

وتبعًا لذلك، قسّمنا البحث إلى فصلين، صدرناها بمقدّمة، وأردفناها بخاتمة تضمّنت أهمّ نتائج البحث، وهو ما تبيّنه الهيكلية التالية:

الفصل الأول: موسوم بـ"التأسيس المصطلحي للخطاب الحجاجي" : وتعرّضنا فيه للجانب النظري من البحث وتمحورت مباحثه حول :

(1) الخطاب: وعرضنا فيه لمباحث نظرية تتعلّق بطبيعة الخطاب، والعناصر المحيطة به.

(2) الحجاج: ودرسنا فيه أمورًا تتعلّق بطبيعة الحجاج، وبالمسار التاريخي للتطورات الحاصلة فيه.

الفصل الثاني: موسوم بـ"الآليات الحجاجية في كتاب الداء والدواء لابن قيم الجوزية"، وفيه عالجتنا آليات الحجاج من منظور البلاغة الجديدة، والتي تتمثّل في الآليات الاتصالية التي تتفرّع بدورها إلى ثلاث محاور:

(1) الحجج شبه المنطقية.

(2) الحجج المؤسسة على بنية الواقع.

(3) الحجج المؤسسة لبنية الواقع.

و الآليات الانفصالية التي تكون بأسلوبين:

(1) أسلوب الفصل بين المفاهيم.

(2) أسلوب التعريف.

وما كان ليتمّ بحثنا دون اعتماد مجموعة من المراجع والمصادر التي كانت نبراسًا أضاء طريقنا أمام موضوع الحجاج بتقنياته المختلفة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- مدوّنة الدراسة باعتبارها مصدرًا.

- كتاب "الحجاج مفهومه ومجالاته" لمجموعة من الباحثين، تحت إشراف حافظ إسماعيل علوي، الذي

شكّل بأجزائه الخمسة رصيدا ثريا من البحوث المستفيضة والمتنوعة في النظرية الحجاجية.

- كتاب "أهمّ نظريات الحجاج في النّقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" بإشراف حمّادي صمود، لثلاثة

من الباحثين المغاربة والتّونسيين.

وقد كان التّعويل على هذين الكتابين كبيرًا خاصّة في المباحث النظرية.

- كما سهّل كتاب "نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان" للحسين بنو هاشم المقارنة التحليلية للمدونة، من خلال إبرازه لمفاهيم بلاغة بيرلمان الحجاجية الجديدة بمقوماتها، ومسلّماتها، وتقنياتها المختلفة.

- كتاب عبد الله صولة "الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية" الذي حاول توضيح الهوة الفاصلة بين البلاغة الغربية، وبلاغة الأسلوب من ناحية، وبلاغة الحجاج من ناحية أخرى، وقد شملت الاستفادة منه كل فصول البحث.

كما لا يمكننا أن نغفل ما يسرته لنا بعض الرسائل الجامعية، إذ لفتت انتباهنا إلى بعض الطرائق في طرح الأفكار، وزوّدتنا ببعض الآليات التطبيقية لمقارنة الخطاب الحجاجي، نخص بالذكر منها:

- رسالة محمد عرابي: "البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام"، وهو بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية. هذا بالإضافة إلى مجموعة من المراجع الكثيرة التي تفاوتت فائدتها من كتاب إلى آخر تبعاً لمتطلبات البحث.

ولم يخلُ إنجازنا لهذا البحث من صعوبات، شكّلت في الوقت نفسه حافزاً للمضي قدماً نحو الهدف المنشود. - بالنسبة لنا - ومن تلك الصعوبات نذكر:

1. تشعب موضوع الحجاج بين معارف عدّة كالْبلاغة، والأسلوبية، والفلسفة، والمنطق، واللسانيات.
2. اختلافات العلماء حول مفاهيم الحجاج ومصطلحاته، وعدم اتّفاقهم على قول واحد فيها.
3. كثرة المصادر والمراجع لدرجة لم نستطع معها الاطلاع على كل ما كتب في الموضوع.
4. طول المدونة وصعوبة أسلوبها، ممّا جعل مهمّة استخراج التّقنيات والآليات الحجاجية أمراً ليس بالسهولة التي كنّا نعتقدها في البداية.

وفي الأخير نتوجّه بالشكر الجزيل إلى كلّ من ساهم في إنجاز هذا البحث من قريب أو من بعيد، شاكرة في البدء أستاذنا "الطاهر عفيف" الذي أشرف على مذكّرتنا، وتابع أجزاء البحث خطوة خطوة، دون أن ييخل بالنصيحة الخالصة، والملاحظة القيّمة، التي خدمت البحث، وأثرته فجزاه الله عنّا كلّ خير، كما أتقدم بشكري إلى قسم اللغة والأدب العربي بجامعة قالمة ولاسيما القيمين عليه فحفظ الله الجميع وجزاهم خير الجزاء.

الفصل الأول:

التأسيس المصطلحي للخطاب

الحجاجي

1. الخطاب

2. الحجاج

تمهيد:

إنّ المصطلحات ضرورة علمية تسعى إلى ضبطها و تحديدها الأمم و الثقافات المختلفة، فكلمة "أحسنّت الأمة الدقة و الرؤية و العمق في تعريفاتها و تحديدها و رسومها، بدت أكثر تألقاً و نضارة على غيرها من الأمم المعاصرة لها"¹، و بهذا عُدَّت مفاتيح العلوم على حد تعبير الخوارزمي، و جزءاً مهماً من المنهج العلمي؛ حيث تساعد على التخصّص و تعين على حسن الأداء، كما أنّ لها فائدة تربوية اجتماعية؛ أين تجمع المتعلمين على دلالات واضحة بينة، تيسر لهم استساغة الحقائق العلمية في قوالها اللفظية. و بهذا سنحدّد أهمّ مصطلحات بحثنا.

¹ جعفر آل ياسين: الفارابي في حدوده و رسومه، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1985م، ص14.

1. الخطاب:

تمهيد:

إن التحدث عن الفكر العربي أو أي فكر آخر، معناه التحدث عن منتجات هذا الفكر، ونقصد أساساً مجموعة من النصوص، والنص رسالة من الكاتب إلى القارئ، فهو إذن خطاب، والاتصال بين الكاتب والقارئ إنما يتم عبر النص، تماماً مثلما أن الاتصال بين المتكلم والسامع يتم عبر الكلام؛ أي عبر الإشارات الصوتية.

وكما يسهم الكاتب والقارئ في تحقيق الاتصال الكتابي عبر النص، فكذلك المتكلم والسامع في التواصل الخطابي، إذ المعنى من إنتاجهما معاً؛ حيث يقدم الكاتب فكرة أو وجهة نظر معينة في موضوع ما، وهو بذلك ينتج خطاباً، والقارئ يتلقى هذه الفكرة أو وجهة النظر كما يستخلصها هو من النص، وبالطريقة التي يختارها، وهذا ما يسمى بتأويله للخطاب أو قراءته له؛ فهناك إذن جانبان يكوّنان الخطاب أو النص، وهما: ما يقوله الكاتب، وما يقرأه القارئ¹.

وقد اكتسبت كلمة "خطاب" دلالات متعددة و" أصبحت متداولة بكثرة في الأوساط الثقافية العربية، وتؤدي معاني لم تكن معروفة في اللغة العربية رغم أنها كلمة قديمة"². لكن الاهتمام المتزايد بها جعلها "مصطلحاً مهماً، يندرج ضمن فئة المصطلحات المعربة أو الدخيلة"³، و التي تشير "حقولها الدلالية إلى معان وافدة ليست من قبيل الانبثاق الذاتي في الثقافة العربية"⁴.

وباعتبار الخطاب مقول من الكاتب إلى القارئ، فهو "بناء من الأفكار يحمل وجهة نظر مصوغة في بناء استدلالي أي على شكل مقدمات ونتائج، وكذا بإقامة علاقات رابطة تميز هذه المكونات المشكلة للخطاب"⁵؛ أي أن:

¹ ينظر: محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية ونقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط5، 1994م، ص10.

² جابر عصفور: خطاب الخطاب آفاق العصر، دار الهدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 1899م، ص213، نقلاً عن: عليمه قادري، التداولية وصيغ الخطاب من اللغة إلى الفعل التواصلية، الملتقى الدولي الخامس "السيمياء و النص الأدبي"، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 18/17 نوفمبر، 2008م، ص599.

³ سارة قطاف: الخطاب السردية في كتاب كلية ودمنة لابن المقفع - مقارنة تداولية-، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علوم اللسان، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2012/ 2013م، ص12.

⁴ جابر عصفور: خطاب الخطاب، آفاق العصر، مرجع سابق، ص 599.

⁵ محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية ونقدية، مرجع سابق، ص10.

الخطاب هنا هو تمظهر لفكرة أو وجهة نظر معينة، مُبني على قواعد وتراكيب، يؤدي من خلالها مهمته المتمثلة في الإخبار، والإقناع، والإمتاع ...

أما الخطاب باعتباره مقروءاً فقد أصبح موضوعاً لعملية إعادة البناء، وكيفما كانت درجة وعي القارئ بما يفعل، فإنه لا بد أن يمارس في ذلك النص ما يمارسه صاحب الخطاب عند بناء خطابه، من حيث آليات الربط والتحليل وغيرها من العمليات الذهنية، وبهذا "يساهم القارئ في إنتاج وعيه المنظم مستعملاً هو الآخر أدوات من عنده هي في جملتها وجهة نظر، أو جزء منها أو عناصر صالحة لتكوينها"¹، ومنه فالخطاب يعد أساساً وظيفياً في تشخيص تصورات الإنسان، ومختلف أشكال التواصل من مستعمليه.

وقد تعدى الخطاب إلى مختلف الميادين المعرفية، "معتمداً في ذلك على اللغة بعدها مجموعة من البنى التشكيلية"²، وحظي موضوعه بعناية بالغة من طرف الباحثين والدارسين، ذلك أنه ليس من السهل التعريف به والإحاطة بكافة جوانبه؛ إذ أنتحديه يظلّ مسألة نسبية تتداخل فيها وجهات النظر الخاصة بكالمفكر؛ حيث "تؤكد الدراسات على أنّ مفهومه غير متفق عليه، لتعدد الموضوعات التي يطرحها"³.

فحقيقة الخطاب إذن مسألة معقدة تباينت فيها الآراء نتيجة تعالقها بحقول معرفية عديدة، وفيما يلي محاولة لتلخيص شيء مما قيل في ذلك، وعرض لعناصره، وشروطه، وأهم أنواعه.

1.1. مفهوم الخطاب:

يعدّ الخطاب من الألفاظ الشائعة في الدراسات اللغوية والمتجذرة في الثقافة العربية، له خاصية التجدد يتغير بتغير المرحلة وخصائصها وهو "كمفهوم لساني عند حضوره إلى النصوص المتعاليات من شعر جاهلي وقرآن كريم، وكذا في الدراسات الأجنبية، حيث تمثل الأوديسا والإلياذة نماذج خطابات متفردة بغض النظر عن نوع الخطاب"⁴.

¹ محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية ونقدية، مرجع سابق، ص 11.

² نصيرة كتاب: تداوليات الخطاب الجامعي لقسم اللغة العربية بتيزي وزو أنموذجاً، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2013/2014م، ص 3.

³ المراح كريمة: تداولية الخطاب الروائي، رواية هوامش الرحلة الأخيرة لمحمد مفلح نموذجاً، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر، تخصص لسانيات وتحليل الخطاب، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر، 2016/2019م، ص 4.

⁴ لامية بوداود: تحليل الخطاب الميني روائي في الجزائر، رواية أوشام بربرية لجميلة زنير أنموذجاً، مذكرة مكملة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ص 84.

لقي هذا المصطلح إقبالا كبيرا من قبل الدارسين والباحثين، وهو عموماً "وحدة تواصلية إبلاغية متعددة المعاني، ناتجة عن مخاطب معين وموجهه إلى مخاطب معين، عبر سياق معين، وهو يفترض وجود سامع يتلقاه مرتبط بلحظة إنتاجه لا يتجاوز سامعه إلى غيره، وهو يدرس ضمن لسانيات الخطاب"¹. فهو مصطلح يشمل أكثر من نسق، ولكن نحن في هذه الدراسة بصدد "تحديد معالمه وأطره المتعلقة بالحجاج"²؛ أي بتحديد أطره وضبطها وتحديد دراسته بزواية تعالقه بالحجاج. وبهذا فإننا سنتعامل مع الخطاب باعتبار أن "كل خطاب ملفوظ / مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات"، ويفاد " من التعريف ثلاثة أمور:

1- تحديد الثنائية التقابلية جملة / خطاب حيث أصبح الخطاب شاملاً للجملة.

2- اعتماد التواصلية معياراً للخطابية.

3- إقصاء معيار الحجم في تحديد الخطاب، حيث أصبح من الممكن أن يعد خطاباً؛ أي كل نص كامل أو جملة أو مركب أو ما سميّناه في مكان آخر شبه جملة"³.

ومن هذا المنطلق سننظر إلى الخطاب من زاوية نفعية تواصلية لا من زاوية الحجم، لأن هذه المسألة قد فصل فيها بأن الخطاب سواء كان شفوياً أو مكتوباً لا ينتجه المرسل إلا لقصد، وهو تبليغ الرسالة والتأثير في المتلقي لتغيير سلوكه ووجهته الفكرية، مما ينجم عنه تغيير جذري في شتى مناحي الحياة.

1.1.1. الخطاب في اللغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور (ت711هـ) في مادة (خ.ط.ب) "خطب: الخطب: الشأن أو الأمر، صَغَرَ أو عَظُمَ يُقال ما خطبك؟ أي ما أمرك؟ والخطب الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال ... يقال: خطب فلان إلى فلان فخطبه وأخطبه أي أجابه، والخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً وهم يتخاطبان ... والمخاطبة مفاعلة من الخطاب"⁴.

¹ محمد ملياني: محاضرات في تحليل الخطاب لطلبة ل م د السداسي الخامس، تخصص: دراسات أدبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، ص53.

² عباس حشاني: خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014م، ص118.

³ أحمد المتوكل: الخطاب وخصائص اللغة العربية - دراسة في الوظيفة والبنية والنمط-، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص24.

⁴ ابن منظور: لسان العرب، مادة (خطب)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص275.

ولعلّ معنى الخطاب في لسان العرب، يتجسّد في سؤال ما خطبك؟ ولا شك أن السؤال يتطلب الأخذ والعطاء بين المخاطب والمخاطب؛ وهذا ما نلمسه في هذا التعليق عن معنى ما خطبك؟ "فكأن المصطلح يحمل في جيوبه إفهام السامع بعد الرد على سؤاله وجوابه، أو إقناعه وإفحامه"¹؛ أي أنّ الإفهام هنا مبني على الحجاج بغية الإقناع. وكذا فالأصل في معنى الخطاب عند علماء العربية: الكلام موجه، وهذا ما ذكر في لسان العرب بصريح العبارة "إن الخطاب مراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر في مقام التواصل"².

ويتقاطع هذا التعريف مع تعريف الخليل (ت، 170هـ)، فقد عرّف الخطاب بأنه "مراجعة الكلام"³، ويتفق معهم ابن فارس في معجمه مقاييس اللغة في مادة (خ.ط.ب) حيث يقول: "الخاء والطاء و الباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين"⁴. وهذا الاتفاق يكمن في أن الخطاب مرادف للكلام، الذي يكون متبادلاً بين متخاطبين ومن ثمة فهو تفاعل بينهما، أما تعريف معجم الوسيط للخطاب يحمل بعض الإضافات عن المعاجم السالفة الذكر، وتبرز هذه الإضافات في أن الخطاب المفتوح خطاب يوجه إلى بعض أولي الأمر علانية... فالكلام يخاطب به متكلم فصيح جمعاً من الناس لإقناعهم⁵.

ونلتمس نقطة التقاطع بينه وبين التعاريف السابقة في أن الخطاب هو الكلام إذ يقول: "خاطبه مخاطباً وخطاباً: كالمه وحادثه وخاطبه: وجّه إليه كلاماً، والخطاب الكلام"⁶.

وبالتالي فإن هذا المعجم قد وسم الخطاب بأنه كلام موجه لأشخاص معينين، والهدف من هذا التوجيه -طبعاً- هو الإقناع.

ومما تقدم من دلالات الخطاب نخلص إلى أنّ معظمها يصبّ في منحى ومعنى واحد متعلق بالكلام، أين يعبر عن أفكار المخاطب (المتكلم) ومعتقداته التي يهدف إلى إيصالها للمخاطب (المتلقي) فيما يخص أمر معين.

¹ ينظر: عباس حشاني، الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، مرجع سابق، ص118.

² ابن منظور: لسان العرب، مادة (خطب)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ص245.

³ الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ص252.

⁴ ابن فارس القزويني الرازي(ت395هـ): معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ج1، ص368.

⁵ ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة(خطب)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004م، ص243.

⁶ مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مادة(خطب)، مطبعة مصر، 1960م، ج1، ص299.

2.1.1. الخطاب في الاصطلاح:

اختلفت تعريفات الخطاب من الناحية الاصطلاحية باختلاف المنطلقات المعرفية واللسانية المقاربة للمفهوم، ومن بينها نذكر:

- تعريف سعيد يقطين: الذي يرى أن الخطاب مرادف للكلام أي الإنجاز الفعلي للغة بمعنى أن "اللغة في طور العمل أو اللسان الذي تنجزه ذات معينة، كما أنه يتكون من متتالية تشكل مرسلتها لها بداية ونهاية"¹.
- تعريف دومينيد مانقونو: "الخطاب يتكون من وحدة لغوية قوامها سلسلة من الجمل"² أي "رسالة أو مقول"³، وبهذا المعنى يلحق "الخطاب بالمجال اللساني، لأن المعتبر في هذه الحالة هو مجموعة قواعد تسلسل وتتابع الجمل المكونة للمقول، وأول من اقترح دراسة هذا التسلسل هو اللغوي الأمريكي "سابوتي زليق هاريس"⁴.

وبهذا فإن مصطلح الخطاب قد حظي بعناية من قبل علماء اللغة اللسانيين، أين انكبوا على دراسته تعريفاً وتحليلاً وتفسيراً، فقد عرّفه التهانوي: "بأنه توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"⁵، وعرّفه الأمدي (ت631هـ) بأنه "اللفظ المتواضع عليه، والمقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه"⁶، وقال أبو البقاء الكفوي (ت990هـ) في "الكليات": "الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام، وإفهام من هو أهلاً للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطاباً"⁷، وهذا معناه أن الخطاب بلا إفهام ليس خطاباً. ومن ناحية صيغة لفظ الخطاب، فهو "أحد مصدري الفعل خاطب يخاطب مخاطبة، وهو يدل على توجيه الكلام لمن يفهم... فأصبح في عرف الأصوليين يدل على ما خوطب به وهو الكلام"⁸.

¹ سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1997م، ص21.

² دومينيد مانقونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005م، ص35.

³ إبراهيم محراوي: تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق، الجزائر، ط1، 1999م، ص10.

⁴ محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004م، ص85.

⁵ التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: لطفي عبد البديع، الهيئة العامة للكتاب، مصر، 1972م، ج2، ص175.

⁶ علي بن محمد الأمدي: الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986م، ج1، ص136.

⁷ الكفوي: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مادة(خطب)، تحقيق: عدنان درويش، الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ج1، ص339.

⁸ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص36.

وقد ورد مصطلح الخطاب في أكثر من موضع في القرآن الكريم، من ذلك قول الله تعالى: "وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ" (سورة ص/ الآية 20)، وقوله أيضا عز وجل: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" (سورة الفرقان/ الآية 63).

وقد تمّ شرح مفردة الخطاب في الكثير من كتب التفسير، فهذا الزمخشري يفسر "فصل الخطاب" بقوله: "البين من الكلام ... الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه، وأردت بفصل الخطاب: الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفساد، والحق والباطل، والصواب والخطأ ... ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار محل ولا إشباع ممل"¹.

وهذا معناه أن للخطاب فاعلية تظهر الأسرار وتفصل بين الجيد والرديء من الأفعال وبين الصالح والطالح، بغية الابتعاد عن الفساد وأملا في الخروج بخصلة معرفية قائمة على المنطق وذو دعامة تأثيرية إقناعية.

هذا عند العرب قديما، أما علماء الغرب المحدثين فقد عرفه بنفينيست (E. Benveniste) بأنه: "الملفوظ المنظور إليه من جهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل"²، وهو "بذلك يجعل الخطاب ملفوظا مرتبطا باللغة المكتوبة انطلاقا من آليات التواصل وما تقتضيه من استعمال للدليل اللغوي المتواضع عليه"³. وبالتالي فإن هذا العالم يعد الخطاب نصا، وذلك بوصفه ملفوظ مقترن بفعل التواصل.

كما يعرفه أيضا: "بكونه كل عملية تلفظ تتطلب متكلما يقصد التأثير في سامعيه بكيفية ما"⁴، ويعد الخطاب أيضا "تلفظ مرتبط باللغة المنطوقة، إذ يتطلب طرفين هما المتكلم والمستمع وهما تأثيريا بكيفية معينة"⁵؛ أي أنه أثناء التخاطب يحدد المخاطب آلية واستراتيجية اقناعية بغية التأثير في المخاطب. أما رومان جاكبسون (R. Jakobson) يرى أن الخطاب: "نص تغلبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام"⁶. وبالتالي فإن الخطاب عند جاكبسون هو النص في حد ذاته.

¹ الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار الكتاب العربي، دط، 1947م، ج4، ص80/77.

² سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005م، ص19.

³ حمدي جودي منصور: بنية الخطاب الحجاجي في كلية ودمنة لابن المقفع، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآداب واللغة العربية، تخصص: اللسانيات واللغة العربية، 2015م/2016م، ص16.

⁴ زكريا السرتي: الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن، ط1، 2014م، ص97.

⁵ حمدي جودي منصور: بنية الخطاب الحجاجي في كلية ودمنة لابن المقفع، مرجع سابق، ص16.

⁶ نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، 1997م، ص11.

وهكذا فإن تعريف كل من "بنفنيست" و"جاكسون" فيه تداخل بين مفهومين؛ مفهوم النص ومفهوم الخطاب، وسيوضح لنا الفرق بينهما في المبحث الموالي.

والخطاب -عامة- في كل اتجاهات فهمه هو "اللغة في حالة فعل ومن حيث هي تقتضي فاعلا حيث تؤدي من الوظائف ما يقترن بتأكيد أدوار اجتماعية معرفية بعينها"¹.

أمّا في الدراسات العربية حديثاً فقد اقترن مصطلح "الخطاب" بدلالات جديدة تشير إلى آفاق واسعة من النظر العقلي والرؤى المنهجية، كما " تشير إلى أدوات معرفية تعين على فهم الواقع في ممارساته الخطابية المختلفة ... وأن أية نظرية عن الخطاب بعامة تتضمن نظرية عن المجتمع بالضرورة"².

مما تقدّم يمكن القول أنه "إذا كان الخطاب هو ما تؤديه اللغة عن أفكار الكاتب ومعتقداته، فإنه لا بد من القول إن الخطاب يقوم بين طرفين أحدهما "مخاطب" وثانيهما "مخاطب"، والخطاب عموماً "عبارة عن وحدات لغوية تتسم ب:

❖ التنفيذ: ما يضمن العلاقة بين أجزاء الخطاب مثل أدوات العطف وغيرها من الروابط.

❖ التنسيق: مما يحتوي تفسير العلائق بين الكلمات المعجمية.

❖ الانسجام: وهو ما يكون من علاقة بين عالم النص وعالم الواقع"³.

وهذه الوحدات الثلاثة هي مقومات الخطاب، الذي هو أي منطوق أو فعل كلامي محكوم بوحدة كلية واضحة.

2.1. الخطاب والنص:

باعتبار التداخل الكبير بين مفهوم الخطاب ومفهوم النص، عند "رومان جاكسون" و"بنفنيست"، والذي تعرفنا عليه في التعريف الاصطلاحي لمفهوم الخطاب، سنحاول التفصيل والتفريق بينهما نظراً للوشائج والتعالقات الموجودة بينهما.

إن الخطاب " كلمة تستخدم للدلالة على كل كلام متصل اتصالاً يمكنه من نقل رسالة كلامية من المتكلم أو الكاتب، وليس كل خطاب نصاً، وإن كان كل نص بالضرورة خطاباً فالكلام المتصل خطاب، ولكنه لا يكون نصاً إلا إذا اكتمل ببداية ونهاية، وعبر عن موضوع ببناء متماسك منسجم"⁴.

¹ جابر عصفور: خطاب الخطاب آفاق العصر، مرجع سابق، ص48.

² المرجع نفسه، ص50.

³ رزان محمود إبراهيم: خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، ص18/17.

⁴ خلود العموش: الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق - مثل من سورة البقرة-، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2008م، ص24.

ويمكن التمييز بين النص والخطاب باعتبار: المتلقي، الكتابة، وباعتبار التواصل. ليتضح بذلك أن الخطاب يؤدي وظيفة تواصلية عن طريق المشافهة، ويؤديها النص عن طريق التدوين والكتابة¹، وهذا معناه أن الكتابة تخصّ النص دون الخطاب.

كما يمكن أن نَصِفَ "الخطاب" بأنه رسالة من متكلم وأكاتب²، والنص بأنه "وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب كفعل تواصلية"³، أمّا بالنسبة للمتلقى فالخطاب يستلزم طرفاه (المخاطب، المخاطب) أثناء عملية التواصل، بينما النص فيمكن أن يغيب فيه المتلقي، وبالتالي تؤجل فيه عملية التواصل لحين القراءة.

وهكذا، فإن الخطاب الشفوي والنص المكتوب تحقيق وتجسيد للوظيفة التواصلية.

ويمكن أن نَميِّز بين الخطاب والنص في النقاط الجوهرية الآتية:⁴

- الخطاب مرتبط باللغة المنطوقة، أما النص فهو نتاج اللغة المكتوبة
- الخطاب يتطلب متكلماً ومستمعاً وحضوراً آنياً أثناء التواصل، أما النص فيتطلب منتجاً (ناصاً) ومتلقياً قد يؤجل إلى حين القراءة.

• الخطاب ينقطع بزوال لحظة التواصل، أما النص فمستمر حتى لو غاب متلقيه. - وهذا ما يثبت أن النص ذو ديمومة واستمرارية كتابية حاضرة في كل زمان ومكان. -

• الخطاب مقترن بالتلفظ الآني الذي يحمل دلالة معينة، تتفاعل معها الأطراف المجسدة له أثناء التواصل في سياق محدد يبرز نفسية وثقافة هذه الأطراف.

أما النص فمتعلق بالملفوظ والكتابة، وهو يحتوي على تلك الدلالة المعينة للخطاب، ولهذا رأى "فان ديك" (Van Dyke) أن النص يتضمن الخطاب، وإذا تمّ تجسيد هذا النص في موقف وسياق تواصلية يعدّ خطاباً.

ومن هذا الفرق يتبين لنا أنّ الخطاب هو نتاج العملية الشفوية، في حين أنّ النص هو ذلك القالب الذي يشكّل الخطاب بخصائصه وبنائه النصية ولغته المدوّنة، وفي هذا المقام نستدل بمقولة "فان ديك" والتي

¹ ينظر: حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص35.

² عباس حشاني: خطاب الحجاج والتداولية في نتاج ابن باديس الأدبي، مرجع سابق، ص128.

³ خلود العموش: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق - مثل من سورة البقرة -، مرجع سابق، ص24.

⁴ ينظر: حمدي جودي منصور، بنية الخطاب الحجاجي في كليلة ودمنة لابن المقفع، مرجع سابق، ص 26/25.

أوردتها حسين خمري في كتابه "نظرية النص" حيث يقول: "إن الخطاب هو عملية الإنتاج الشفوية ونتيجتها الملموسة، أما النص فهو مجموع البنيات الآلية التي تحكم هذا الخطاب، وبتعبير آخر فإن الخطاب تلفظ ذو طبيعة شفوية لها خصائص نصية، بينما النص هو الشيء المجرد والافتراضي الناتج عن لغتنا العلمية"¹ ومن هذه المقولة نستحضر الفرق الذي أدرجه "سعيد يقطين" بين النص والخطاب، والذي جعل النص بنية، والخطاب إنتاجاً لفظياً "والنص وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب كفعل تواصلي ... إن الخطاب هو في آن واحد فعل الإنتاج التلفظي واللفظي ونتيجته الملموسة والمسموعة والمرئية، بينما النص هو مجموع البنيات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه، وبتعبير آخر إن الخطاب هو الموضوع الأمبريقي* والمجسد أمامنا كفعل، أما النص فهو الموضوع المجرد والمفترض، إنه نتاج لغتنا العلمية"².

وما نصل إليه في جو هذا الجدل، أن العلاقة التي تجمع بين المفهومين هي علاقة احتواء؛ فالنص محتوَى في الخطاب، وهذا الأخير يسمح للنص بالظهور في شكل خطاب، فيضمن له بذلك تحقيق الوظيفة التواصلية.

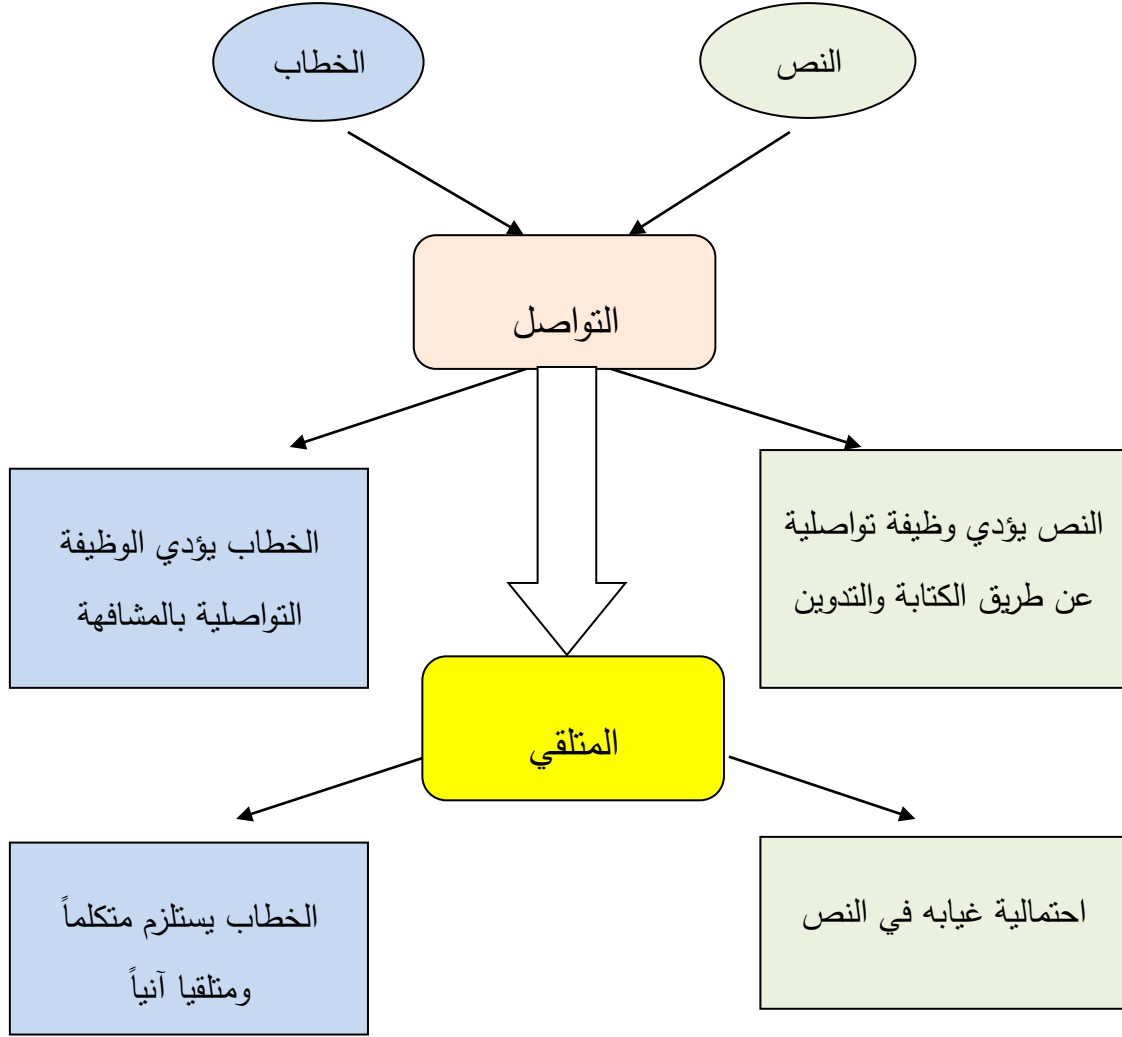
وإذا نظرنا إلى كل منهما بمنظور تواصلي ومن زاوية نفعية، نجد أن كليهما يشتركان في الهدف وهو التأثير في المتلقي.

¹ حسين خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، مرجع سابق، ص 60.

*التجريبي

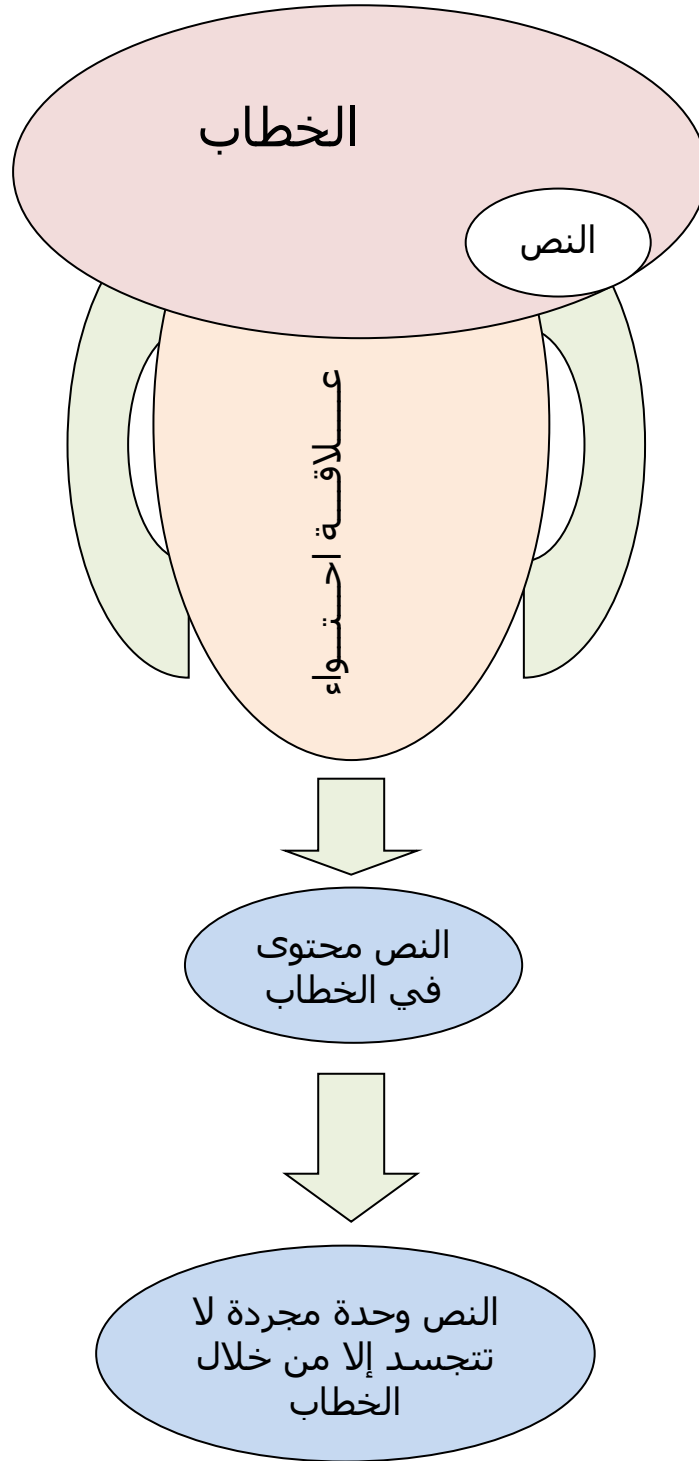
² سعيد يقطين: إنتاج النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2001، ص 16.

و يمكن توضيح هذه النقاط الفارقة في الرسم الموالي (من اجتهادنا):



رسم تخطيطي يوضح النقاط الفارقة بين النص والخطاب

كما يمكن توضيح العلاقة بينهما في المخطط الموالي:



رسم تخطيطي يوضح العلاقة بين الخطاب والنص.

3.1. عناصر الخطاب:

من المستحيل أن يكون الخطاب ذا معنى أو يمكن أن يتواصل به بمعزل عن العناصر المشكلة له، لذا يجب علينا الحديث عن الأطراف الفاعلة فيه، والتي تضي على الخطاب خصوصيته التواصلية، فلا يكون الخطاب خطاباً إلا إذا قام على جملة من العناصر الأساسية وهي:

1- المخاطب:

يلعب هذا العنصر (المتكلم) دوراً رئيسياً وفعالاً في الخطاب أثناء عملية التواصل، إذ يعدّ السّباق والمنتج والمحرّض لعملية التّخاطب، فهو يشكّل "الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة وبغرض تحقيق هدف فيه، ويجسّد ذاته من خلال بناء خطابه"¹، فبدونه لا يكون هنالك خطاب؛ لأنه الطرف الأول الذي يتّحد مع الطرف الثاني (المخاطب) لإكمال دائرة العملية التخاطبية بغية توصيل أفكاره وإفهام مقاصده أو التأثير فيه، ولذلك فإنه يختار ما يتناسب مع مكانته ومكانة المخاطب، كما يهتم بما يتوافق مع السياق العام؛ فخطاب التاجر مع زبونه يختلف حتماً عن خطابه مع تاجر آخر مثله، كما يختلف الخطاب ملك مع أحد رعاياه عن خطابه مع آخر من أئداده.²

فالمخاطب هو المسؤول عن بناء خطابه وانتقاء لغته بحسب مقتضيات السياق وطبيعة المخاطب أين لا يمكن للغة أن " تتجسد وتمارس دورها الحقيقي إلا من خلال المرسل"³، الذي تتوقف عليه نجاح العملية التخاطبية، " فاللغة لا تسيق ذاتها، وإنما المتكلم هو من يلائم بين اللغة والسياق المناسب للخطاب"⁴. وهذه اللغة يتم تحويلها حسب مستوى المخاطب.

وهكذا فإن المخاطب هو عماد العملية التخاطبية، ونجاحها مرهون عليه وعلى كفاءته في تحقيق المطلوب من الخطاب، وفي سبيل هذا المقصد نجده يمنهج طرائق للوصول إلى الغايات المرجوة، وإذا كان هدفه الإقناع نجده يُجنّد مختلف الأدوات اللغوية والآليات الخطابية التي تبلغه مراده.

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجية الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 45.

² ينظر: المرجع نفسه، ص 8.

³ المرجع نفسه، ص 45.

⁴ حمدي جودي منصور: بنية الخطاب الحجاجي في كليلة ودمنة لابن المقفع، مرجع سابق، ص 31.

2- المخاطب:

يمثل الطرف الذي أنتج من أجله الخطاب، باعتباره الطرف الثاني الفعّال و " إليه تتّجه لغة الخطاب التي تعبر عن مقاصد المرسل، وعليه فإنّه يمارس بشكل غير مباشر دوراً في توجيه المرسل عند اختيار أدواته وصياغة خطابه، وذلك بحضوره العينيّ أو الذهني؛ انطلاقاً من علاقاته السابقة بالمرسل وموقفه منه ومن الموضوعات التي يتناولها الخطاب، كل ذلك يترك أثراً بوصفه هو الذي يمارس تفكيك الخطاب ويؤوله لمعرفة مقاصد المرسل وأهداف الخطاب الذي يرى أنه يريد تحقيقها"¹.

وقد أشار اللغويون القدماء في التراث العربي إلى تأثير المخاطب على المخاطب عند إنتاج خطابه سواء على المستوى اللغوي أو البلاغي أو التداولي "وهذا ما يثبت أن بناء الخطاب وتداوله مرهون إلى حد كبير بمعرفة حاله، وبافتراض ذلك الحال ... فالمرسل إليه حاضر في ذهن المرسل عند إنتاج الخطاب سواء أ كان حضوراً عينياً أماستحضاراً ذهنياً، وهذا الشخص أو الاستحضار للمرسل إليه هو ما يسهم في حركية الخطاب"².

إن معرفة أحوال المخاطب (المتلقي) تزيد في قدرة المخاطب (المرسل) التّوحيّة، وتمنحه أفقاً لبناء خطابه وانتقاء اللغة المناسبة التي تتوافق وطبيعة مستوى المخاطب.

3- السياق:

يعرّف ظافر الشهري السياق بأنّه " الإطار الذي يسهم في ترجيح أدوات بعينها واختيار آليات مناسبة لعملية الإفهام، والفهم بين طرفي الخطاب، وذلك من خلال عدد من العناصر، فمن عناصره العلاقة بين المتخاطبين... فمعرفة عناصر السياق تسهم في عملية التعبير عن المقاصد والاستدلال لإدراكهما، وعليه فإن اختيار الأدوات والآليات اللغوية يعد انعكاساً للعناصر التي تشكّل في مجموعها سياقاً معيناً يبرز من خلال لغة الخطاب، وبمعرفة يمكن تفكيك هذه اللغة للوصول إلى المعنى المقصود أو الغرض المراد"³.

ويضيف بأننا " يمكن أن نسميه الجو الخارجي الذي يلف إنتاج الخطاب من ظروف وملابسات، ويعد العنصر الشخصي من أهم عناصر السياق، ويمثله طرفا الخطاب: المرسل و المرسل إليه، وما بينها

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغويّة تداوليّة، مرجع سابق، ص7.

² المرجع نفسه، ص 48.

³ المرجع نفسه، ص7.

من علاقة، بالإضافة إلى مكان التلفظ وزمانه وما فيه من شخوص وأشياء، وما يحيط بهما من عوامل حياتية، واجتماعية، أو سياسية، أو ثقافية¹.

وبهذا يتضح لنا أن السياق هو "جملة الظروف العامة التي ينتج فيها الخطاب، ويتركب من المتكلم والمستمع، ومن أنساقهما المعرفية والإرادية والتقديرية، ومن علاقتها التفاعلية المختلفة"².

أما بيرلمان، فقد قدم تصوراً عن السياق، إذا اعتبره لا يخرج عن نطاقين؛ فالنطاق الأول يكمن في أنه لا يخرج عن الإطار المحدد للخطاب والمستوعب لكلّ محتويات العملية الإبداعية، ولكلّ المشاركين فيها، والنطاق الثاني يتجلى في تلك المقدمات ذات النظام العام التي تساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم³.

وحقيقةً يرتبط السياق - إلى حد كبير- بثقافة المجتمع التي تحدده، وتوجهه وجهة معينة، وعلى إثرها تتم عملية التلقي، لذلك كان السياق مصب اهتمام العديد من الميادين والاختصاصات، فبالرغم من اختلافها إلا أنّها جميعها تتفق على أن "السياق يفسّر الكثير من العمليات المصاحبة لأداء اللغة في وظيفتها التواصلية والابلاغية لدى كل من منتج الكلام والمتلقي، وأنه ركن أساسي في فهم الرسالة اللغوية"⁴.

ومنه، فإن السياق ركن جوهري، وأساس فهم الرسالة اللغوية، ليكون بذلك عنصراً فعالاً في نجاعة الخطاب - لاسيما الحجاجي -، و السياق أنواع كثيرة " نذكر منها :

✓ السياق اللغوي: وهو الذي يعطي الكلمة أو العبارة معناها الخاص في الحديث أو النص بمعنى أنه يزيل اللبس والغموض عن الكلمة.

✓ السياق الحالي (المقام): الذي يزيل اللبس عن الجمل والنصوص.

والسياق بهذا المفهوم يتعدى ما هو معروف من حيث أنه تتابع للأصوات والألفاظ، ليشمل فضلاً عن ذلك الجو البيئي والنفسي المحيط بكل من المتكلم والسامع⁵.

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 45.

² طه عبد الرحمن: الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج، مجلة المناظرة، عدد 4، ماي 1991م، ص 69.

³ ينظر: محمد الأمين محمد سالم، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، عدد2، يناير/ مارس، 2000م، ص 85.

⁴ عباس حشاني: خطاب الحجاج والتداولية - دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، مرجع سابق، ص 138.

⁵ خلود العموش: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق - مثل من سورة البقرة-، مرجع سابق، ص 26.

فمن شأن السياق اللغوي والحالي تحديد نوع الخطاب وتوجيه طبيعته ولغته والكشف عن دور المخاطب أو هو يخبر أم يشرح أم يختار أم يحاجج ...

وبهذا نخلص إلى أن نجاح العملية التخاطبية متوقّف على حبس نبض العناصر المكوّنة للسياق، بدءاً بالجو الخارجي المحيط بإنتاج الخطاب، والذي يتمثّل في الظروف والملابسات التي تحيط بطرفي الخطاب (المخاطب، المخاطب) والعلاقة الرابطة بينهما، بالإضافة إلى البيئة الزمانية والمكانية للخطاب وصولاً إلى العوامل المساعدة على إنتاجه من عوامل سياسية وثقافية واجتماعية ...

وهذا ما يثبت أن هذه العناصر "لا ترتبط بلحظة التالّف، وإنما تمتدّ إلى ما قبله، لتمثّل قاعدة بيانات ينسج على منوالها نصّ الخطاب وهدفه وغاية المتكلّم منه"¹، فهذه القاعدة البيانية هي التي تشكّل بنك معلوماتي لكلّ العناصر التي يستمدّ منها المتكلّم لغة خطابه.

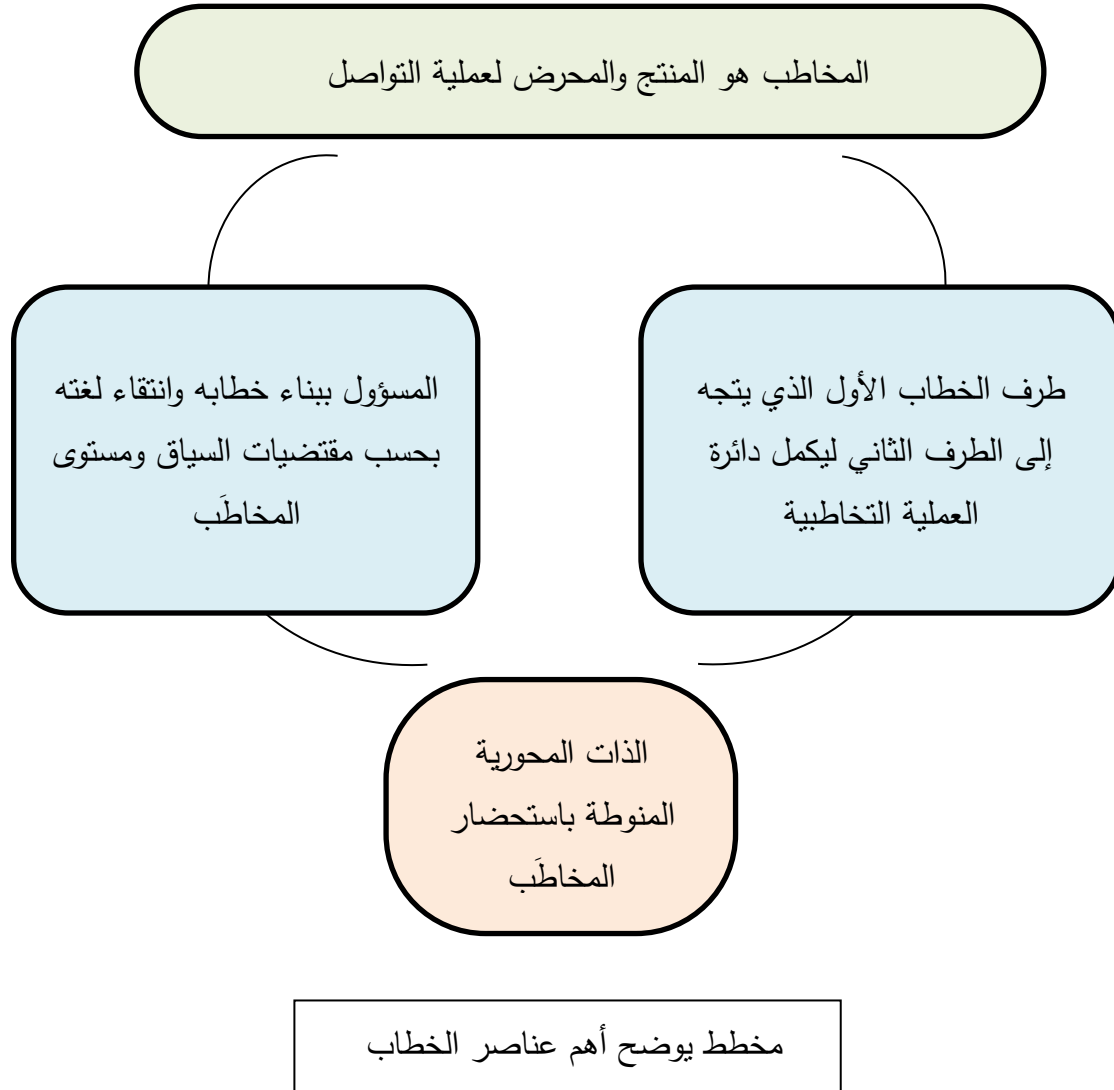
4- الخطاب:

يُعدّ "ثمرة اجتماع العناصر الثلاثة السابقة، ففيها تبرز الآليات الخطابية والأدوات اللغوية المنتقاة، ومن خلال تتبّع خصائصه التعبيرية يمكن معرفة الكيفية التي تعامل بها المرسل مع ذاته ومع المرسل إليه، هل أجّلّه واحترمه أم أهانه وحقره، هل حاول أن يُقرّبه أم يُبعده؟ هل حاول إقناعه أم فرض سلطته عليه مباشرة؟ هل تنازل عن موقعه الاجتماعي أو الوظيفي تقديراً للمرسل إليه أم أنّه مكث في عليائه؟ كل هذه الاعتبارات وغيرها تبيّن كيف للغة الخطاب أن تقود الفاحص إلى إجابة واضحة على هذه التساؤلات"².

¹ حمدي جودي منصور: بنية الخطاب الحجاجي في كلية ودمنة لابن المقفع، مرجع سابق، ص30.

² عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، المقدمة (VI).

ويمكن توضيح أهمّ هذه العناصر في المخطط الموالي:



إذن، فإنّ هذه العناصر هي الأساس في التفاعل الخطابي مع باقي العناصر الأخرى الوسيطة، المرجع ... والتي تجري جميعها في إطار اجتماعي تنظمه قواعد وقوانين سعى بعض الباحثين إلى تحديدها واستنباط الشروط الواجب توفرها فيها، وهو ما سنقوم بتحديدته وتوضيحه.

4.1. شروط الخطاب:

إن قضية التفاعل الخطابي خاصة والخطاب عامة تستدعي بعض الشروط الواجب توفرها، وهي

كالآتي:¹

¹ قدور عمران: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2012م، ص9.

1- القصدية في الخطاب:

إن القصدية في أبسط معانيها هي "كل ما يدور في خلد المتكلم باستمرار أثناء إصداره لملفوظاته، من مقاصد وطموحات ورؤى يسعى إلى إرسالها، والدفاع عنها بواسطة الحجج، إنها كل ما من شأنه أن يحفز المتكلم على تحريك العملية التبليغية التواصلية تصرّيحاً أو تلميحاً، ويلعب القصد دوراً محورياً في تأويل الملفوظات والنصوص"¹، وبهذا تكون هذه السمة من السمات الأساسية التي يجب أخذها بعين الاعتبار في الاستدلال الحجاجي ذو الطبيعة الخطابية؛ لأن معنى قول ما في سياق تواصلي معين، لا يمكن وصفه دون الإحالة على بعض قصود التلفظ"²، ذلك أنّ هذه المقاصد كامنة في كل شبر من ملفوظات المخاطب، فلا يمكن الحديث عن انسجام الخطاب دون معرفة القصد منه، وفي هذا المقام تقول "آن روبول" (Aan (Rupole): "يشكّل القصد محور إنتاج وتأويل الملفوظات والخطابات"³.

وبهذا فإنه يجب إدراك المقصد من الخطاب بغية نجاح العملية التواصلية وتأدية مضامينها وإتمام مهمتها.

2- القيمة في الخطاب:

لا يخرج الخطاب عن أحكام القيمة، فعندما يدافع المخاطب عن فكرة معينة أو رأي ما، فذلك لأنه أكثر قيمة عنده وأقرب إلى المنطق والأعراف السائدة في أي قيمة أخرى في نظره. وتكمن أهمية التفاعل الخطابى بين المخاطب والمخاطب في ضرورة الالتزام بطبيعة الأرضية المشتركة بينهما، حيث تضم جميع الإمكانيات الخطابية الخاصة بمقام ما (وسائل ترتيبية واستدلالية، معلومات...).

تراعى كلها اعتقادات المخاطب والمخاطب وردود أفعالهما، " فكل منهما يشتركان في مجموعة المعطيات (السياق) إلى جانب المعلومات المشتركة بينهما وما يربطهما من تجارب وثقافة"⁴.

¹ عزيز لدية : نظرية الحجاج تطبيق على نثر ابن زيدون ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2015م، ص80.

² رضوان الرقيب: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، عالم الفكر، العدد2، المجلد 40، أكتوبر/ ديسمبر، 2011م، ص 81/80.

³ رميساء مزاهدية: الخطاب الحجاجي. دراسة نظرية في ماهية الخطاب وعلاقته بالحجاج، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، العدد1، المجلد11، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، مارس، 2019م، ص 285.

⁴ ذهبية حمّو الحاج: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر، ط2، 2017، ص 15.

فهي التي تسهم في تشكيل معنى الملفوظ فيغدوا ذا قيمة يكتسبها تركيب الخطاب في سياق التلفظ، أي أن المعنى كقيمة لا تتحكم فيه اللغة بقدر ما يتحكم فيه مستعملوها، وهكذا فإن الملفوظ هو منتج التفاعل بين المتخاطبين، بحجة أن قيمة الخطاب لا تكمن في حضور المتكلم فحسب، ولكنه حضور يتقاسم مع حضور المخاطب¹.

وهذا ما يثبت أن المخاطب مكوّن أساسي في العملية التخاطبية والتواصلية وموجّها ضرورياً لطبيعتها وأهدافها.

3- التلقي:

حتى تتحقّق عملية التلقي عند المخاطب وتثمر العملية التخاطبية بإعطاء نتائجها، يجب أن ينطلق المخاطب من طرح سؤال جوهري ويتمثل في: كيف تجعل المخاطب يعتقد أن ما تنتجه من أفكار وأطروحات مفيد؟ وما هي السبل المتخذة من أجل استمالة المخاطب وجعل كلامه قابلاً للتلقي؟.

وهذا كلّهُ حتّى يبلغ المخاطب غايته المنشودة، وهذا " ما يدفعه للبحث عن فضاءات مشتركة داخل مواقع المخاطب (فضاء المستمع) التي من شأنها أن تخلق أرضية مشتركة بين المخاطبين"².

فاستمالة المخاطب للمخاطب إنما هي وقف على بناء العمليات الحجاجية التي تستوجب من البداية اعتبار المخاطب والبحث في سياقاته، أي " ينبغي البحث عن الاتفاقات المسبقة والمشاركة التي سيقوم عليها الاستدلال، وإلا فإن الحجاج سيكون مصادرة على المطلوب، ولا يؤديّ وظيفته الإقناعية الأساسية"³. لذا ينبغي دائماً الانطلاق من نقطة الاتفاق.

4- التفاعل:

إنّ التفاعل بين المخاطب والمخاطب لا يمكن أن يحدث إلا بالنطق بملفوظات ترد في سياق معين، وزمان ومكان محدد، فالملفوظ يُؤوّل حسب السياق الذي يرد فيه⁴. وهذا يثبت أن إحداث التفاعل لدى المخاطب والمخاطب ليتفاعل مع الخطاب (الملفوظ) هو (سعيًا) الدائم فيما نتلفظه من خطابات، ونتيجة لذلك يحدث التغيير في الموقف والوضعيّات.

¹ قدور عمران: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، مرجع سابق، ص 10.

² المرجع نفسه، ص 11.

³ عمارية حاكم: الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي، دراسة تداولية في الخطابة العربية أيام الحجاج بن يوسف

الثقفي، دار العصماء، دمشق، سوريا، 1436هـ/2015م، ص 11.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص 12/13.

وهكذا، فإن التفاعل قائم بين عناصر العلاقة التخاطبية (المخاطب، المخاطب، السياق...)، التي تتضافر جميعاً لتحقيق وظيفة اللغة التواصلية، وبالتالي الوصول إلى تحقيق هدف الخطاب الذي يريده المخاطب ويسعى إلى تحقيقه بواسطة آليات وتقنيات تخص كل عنصر من عناصر الخطاب ومراعاتها لحفظ التناظر

وهذا الهدف المنشود من الخطاب يتعدد باختلاف أنواع الخطاب.

5.1. أنواع الخطاب:

تتعدد أنواع الخطاب العربي وتختلف باختلاف مرجعيتها، ولقد قسمها "منذر عياشي" إلى ثلاثة أنواع: يأتي على رأسها الخطاب القرآني؛ وهو خطاب إلهي مطلق ولانهائي في دواله ومدلولاته لقوله تعالى " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (سورة الحجر، الآية 9)

والنوع الثاني يمكن تسميته الخطاب الإيصالي ونماذجه متعددة سياسية وإرشادية ووعظية وقضائية وإقناعية واجتماعية وإعلامية ...

يقول "الجابري" قسّمنا الخطاب ... إلى أربعة أصناف: الخطاب النهضوي وجعلناه يدور حول قضية النهضة عامة والتجديد الفكري والثقافي خاصة، والخطاب السياسي محورناه حول العلمانية وما يرتبط بها والديموقراطية وإشكالياتها، الخطاب القومي وركزناه حول التلازم الضروري الإشكالي الذي يقيمه الفكر العربي بين الوحدة الاشتراكية من جهة وبينها وبين تحرير فلسطين من جهة ثانية، ويأتى الخطاب الفلسفي أخيراً ليعود بنا إلى صلب الإشكالية العامّة للخطاب العربي الحديث والمعاصر، وإشكالية الأصالة والمعاصرة¹ والنوع الثالث يمكن أن " نسميه الخطاب الإبداعي (الشعري) ونماذجه المتعددة هي الأخرى... ولكن يتميز عن الأول بأنه خطاب يقوم على مبدأ الأجناس الأدبية².

وبهذا نستنتج أن اختلاف المرجعيات الفكرية يُؤدّي إلى اختلاف الخطاب، حيث يقترن هذا الأخير "بوصف آخر يحدده الموضوع، وبذلك يمكن تصنيف الخطاب حسب الموضوع إلى الخطاب الأدبي، الخطاب العلمي، الخطاب السياسي، الإشهاري"³.

¹ محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مرجع سابق، ص16.

² منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، سوريا، 1990م، ص215.

³ ابتسام بن خراف: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة - دراسة تداولية، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في اللغة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2009م/2010م، ص 16/15.

و رغم اتفاق هذه الأنواع إلا أنها جميعا تختلف في الآلية، والذي يهمنا في كل هذه الأنواع هو الخطاب من حيث الآلية: الخطاب الوصفي، الحجاجي، السردى...

وطبقا لما يوافق بحثنا سنحاول التركيز على أهم نوع وهو الخطاب الحجاجي.

❖ طبيعة الخطاب الحجاجي:

يعتبر الخطاب الحجاجي جوهر العملية التّواصلية الإبلّغية، غايته " استمالة الرأي العام نحو فكرة معينة هي هدف كل قائم بعملية الإقناع والتأثير، ومن أجل ذلك ينصب اهتمام القائمين بالإقناع والتأثير على أفضل السبل وأقلها كلفةً ووقتاً وجهداً في الوصول إلى تغيير اتجاهات الرأي العام أو بناء اتجاهات جديدة، أو تعديلها، أو لفت انتباه الجمهور نحو قضية معينة¹، وهو ما يفسّر أنّ المحاجج يتكلم بقصد التأثير والإقناع.

ويتعدّد الخطاب الحجاجي بتعدّد الأهداف والأغراض المتوخاة منه، فهناك الإشهاري القائم على الاستمالة والتأثير، وكذا العلمي الهادف إلى تبليغ الأفكار وإقناع المتلقي وأيضاً الإعلامي " الذي يسعى بدوره إلى التغيير في مواقف المتلقي وأفكاره"².

يتأسس الخطاب الحجاجي على مجموعة من الحجج غايتها الإقناع، وذلك ما ذهب إليه (فينو) (vignaux) حينما اعتبر أنّ " الخطاب الحجاجي خطاباً غائياً، وينبغي أن يكون كل خطاب غائياً حجاجياً بالضرورة؛ لأن هناك خطابات ذات غاية شخصية لا تهدف إلى إقناع الآخر، كالخطاب الشعري، وبعض أنواع السير الذاتية والمذكرات، أمثلة لخطابات غائية ليست حجاجية"³، ثم حاول " فينو" اعتماداً على الغائية " أن يرسم جملة من تصورات وافتراضات، تتعلق بتصوره للمتلقي، مركزاً في ذلك على المنطق الطبيعي، وبالاعتماد على المفاهيم التي طرحها " كريس " (Grize) في تصوره للنظرية الحجاجية، وتتمثل هذه الافتراضات فيما يأتي⁴:

¹ عامر مصباح: الاقتناع الاجتماعي - خلفيته النظرية وآلياته العملية-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط4، 2006م، ص9.

² المرجع نفسه، ص32.

³ سامية الدريبي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2007م، ص26.

⁴ محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، المغرب، ط1، 2005م، ص91.

1. تكون الخطابات الحجاجية الغائية منبثقة من قضايا تكون استدلال، وتترجم بكيفية مباشرة أو غير مباشرة موقف الخطيب من اثباتات وأحكام وانتقادات...
 2. تحيل دائما في مضمونها على عنصر آخر في الخطاب (فرد، مجموعة، حالة اجتماعية، رأي عام...) (3).
 3. يتحدد الخطاب الحجاجي بكونه يسم موقف الخطيب اتجاه موضوع أو مجموعة من المواضيع، وهو موقف يحدّد مكانة الخطيب داخل التشكيلة الاجتماعية ويتحدد دائما بالآخر كمرجع تحديدي.
- إنّ، فالخطاب الحجاجي خطاب موجّه للتأثير على آراء المخاطب وسلوكياته في قضية أو أطروحة معينة، بغية ايضاح الحقائق وتوجيهه المخاطب صوب الوجهة التي نرتضيها، ونجاح المرسل في خطابه الحجاجي إنما هو وقف على أمرين¹ :
- طبيعة الحجج التي يأتي بها لدعم أطروحته.
 - طريقة انتظام الحجج في الخطاب وكيفية عرضها على المتلقي.
- وهاذين الأمرين هما قوة الخطاب الحجاجي.
- ونقول: " خطاب حجاجي بالنظر إلى عناصر الموقف الكلامي والهدف من الخطاب"²، وبالتالي فهو خطاب إيصالي تواسلي إقناعي .

¹ ينظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط3، 2001م، ص 94.

² عباس حشاني: خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، مرجع سابق، ص 126.

2. الحجاج:

تمهيد:

إنّ الحوار ضرورة تكسب الإنسان القدرة على استعمال أدوات الدفاع عن الحق بطريقة أكثر مرونة وذكاء، وهو "أداة وعي مشتركة تتفاعل فيها الآراء والأفكار، وبعيد كل البعد عن كونه ترفاً فكرياً كما يتصور الكثير من الناس"¹.

وتتضح أهميته من خلال تفاعل الذات مع الآخر سواء أكان هذا الأخير حاضراً عينياً أو ضمناً في قول ميخائيل باختين: "ليس من الضروري إذن أن يوجّه المرء خطابه إلى شخص آخر فحتى الفعل الأكثر شخصية، والذي يصبح واعياً لذاته يتضمن دائماً وأبداً شخصاً مُحاوِراً أي نظرة الآخر نحونا وتلميحاً إلينا"². من أجل هذا كان الحوار فعالية خطابية تستدعي استواء حقوق المتحاوِرين فيها دون تنازل أيّ طرف.

ولمّا كان الأساس في فطرة الإنسان الدفاع عن حقوقه وتقريب مصالحه، كان محتاجاً إلى ضرورة خطابية تتعدّى الحوار وتروم به إقناع الطرف الآخر ونصرة الرأي، لتصل بذلك إلى الحجاج الذي لا يسري إلا في دائرة الحوار مقتسمة معه معظم خصائصه التواصلية، فمحلّ الاختلاف في وجهة نظر معينة تشكل نقطة انطلاق يجتمع حولها الطرفان المختلفان لإيجاد حلّ يحدّ من حدّة هذا الاختلاف، وذلك "عندما يقرران ممارسة الحوار، ثم يعمدان إلى التنازح مستغلين كلّ الإمكانات المتاحة من حجج وحيل وطاقات بلاغية تستغل فيها أطروحات الخصم وأسئلته في الأبنية الحجاجية المضادة، وذلك عبر استراتيجيات يشترط فيها الحذق وسرعة البديهة والخبرة"³.

¹ عبد الله بن حسين الموجان: الحوار في الإسلام، مركز الكون، مكة المكرمة، السعودية، ط1، 1427هـ/2006م، ص15.

² تازفيتان تودوروف، ميخائيل باختين: المبدأ الحوري، ترجمة: فخرى صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1996م، ص68.

³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج والبلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، 2008، ص125.

وهكذا فإن التزاوج بين هاتين الفعالتين أمر واقع بالفعل، وحوارية الحجاج أمر مسلم به " لا تتطور إلا في إطار التواصل حيث ينبثق الاهتمام بالحجة من الاهتمام بما يتعلق بالرسالة، وطريقة نقلها وتوصيلها وتبادلها"¹.

فلا "تواصل من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل ، وإن لفظ الحجاج لا يدور على الألسن مثلما يدور عليه لفظ التواصل"².

إذ السمة الأساس للحجة تظهر في لحظة تشكل علاقة بين أكثر من طرف، وهذا " ما يبرر الدفاع عن الحجاج أساسا لعلوم المعلومات والتواصل"³.

وبهذا كان الإنسان قادرا على تفعيل الممارسات التواصلية بناءً على كفاءاته الحجاجية من تأثير، استمالة وحجر تفكير السامع لوقت معين، أداة للاستقرار على خيار واحد من الخيارات المقترحة، لأن "الحجاج لا يعني أبدا التسليم -ما دمنا أحراراً- في قبول الرأي الآخر أو رفضه، وهذا ما يؤكد أن أثر الحجاج ليس سلبياً"⁴.

ولعلّه ما يؤكّد ذلك الفرضية التاريخية القائلة. "إن نظريات الحجاج هي الرحم التي حملت نظريات التواصل"⁵.

ومنه، فالحجاج قائم على المواجهة اللغوية الخطابية التي تتأسس على الحوار وتبتغي التواصل الرافض للتسليم الأعمى.

1.2. مفهوم الحجاج:

ما دام الحجاج معرفة تحاول أن تُحلّل التجربة الإنسانية من خلال بعض عمليات التفكير⁶ فإنه يُعدّ الوسيلة الأمتل لصيانة قيمة النفس من جهة، والتأكيد من جهة أخرى أنّ الرأي والرأي الآخر يظلان داخل دائرة الممكن والمحتمل.

¹ فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، ترجمة: محمد صالح ناجي الغامدي، مركز النشر العلمي، جدة، السعودية، ط1، 1422هـ/2011م، ص13.

² طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص254.

³ فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص13.

⁴ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص257.

⁵ فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص13.

⁶ ينظر: باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية و الأسلوب، عن كتاب نحو المعنى و المبنى، ترجمة: أحمد الوردني، دار الكتاب الجديد، المتحدة، بن غازي، ليبيا، ط1، 2009م، ص5.

ولأن المنهجية العلمية تقتضي الوقوف على مفهوم الحجاج في اللغة و الاصطلاح بدءاً، فإننا سنتطرق إلى ذلك رغبة في تحديد المفهوم الدقيق للحجاج في خضم اصطلاحات كثيرة تقترب منه دلالة وتغايره دالاً.

1.1.2. لغة:

لمفهوم الحجاج أهمية بالغة تبرز من خلالها دوره في القرآن الكريم في أكثر من موضوع من ذلك قوله تعالى "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ" (سورة البقرة / الآية 258). ولمعرفة أصول مادته يجدر بنا التغلغل في بطون أمهات الكتب وفي المعاجم العربية التي أطالت الكلام عن جذره الثلاثي، فقد ورد في معجم لسان العرب في مادة (ح.ج.ج) من " حَاجَّ وحاججته أحاجة حجاجاً ومحاجة حتى حاججته؛ أي غلبته بالحجاج التي أدليت بها، وحاجه محاجه وحجاجاً، نازعة الحجة، والحجة البرهان وقيل الحجة ما دافع به الخصم وقال الأزهري: الحجة، الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة وهو رجل محاجج أي جدل"¹.

وبهذا يكون الحجاج عند "ابن منظور" مرادفاً للجدل أي مقابلة الحجة بالحجة. وكذلك يدور حول معاني البراهين والأدلة.

أمّا ابن فارس نجده يحصر مادة (ح.ج.ج) في أربعة معان، يقول: "الحاء والجيم أصول أربعة"²:
الأول: القصد وكل قصد حجج ... ثم اختص بهذا الاسم القصد إلى البيت الحرام.
الثاني: الحجة وهي السنة.

الثالث: الحجاج وهو العظم المستدير حول العين.

الرابع: الحججة: أي النكوص.

وورد في مختار الصحاح أن "الحجة البرهان، وحاجه فحجّه من باب ردّ. أي غلبه بالحجة وفي المثل: لجّ فحجّ فهو رجل محاجج بالكسر أي جدل، والتحاجج: التخاصم. والمحجة بفتحتين جادة الطريق"³.

¹ ابن منظور: لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ، 2003م، ج2، ص257.

² ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ، 1399هـ/1989م، ج2 ص31/30.

³ أبو بكر الرازي: مختار الصحاح، ضبط وتخريج: مصطفى ديب البغا، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ط4، 1990م، ص87.

وبذلك فالحجاج في اللغة فعل قول ينتزل ضمن سياق جدالي يجمع بين طرفين أو أكثر ويتقصد إقناع الخصم وإقناع المتلقي بالجملة دلالتين: دلالة البرهان والدليل ودلالة التخاصم والنزاع والجدل والغلبة في مضمونها، أي مقابلة الحجة بالحجة لتكون الغلبة لأحد الطرفين.

وبالرجوع إلى الأصول اللاتينية للمصطلح، نجد أن " كلمة "Argument" من الفعل اللاتيني "Arguer" وتعني جعل الشيء واضحاً ولامعاً وظاهراً وهي من جذر إغريقي "Argues" ويعني أيضاً لامعاً¹.

ومن هنا نلاحظ أن هذا المعنى لمصطلح الحجاج (واضحاً ولامعاً وظاهراً) متقارباً بمعناه في الثقافة العربية، كون الحجج تستخدم للتوضيح والإقناع وإزالة الغموض وإظهار الحقيقة.

2.1.2. اصطلاحاً:

ينمو مصطلح الحجاج في تربة الاختلاف " التي أدخلته في تداخل دلالي مع مصطلحات كثيرة، ويحكم هذا التداخل أمران²:

1- الزمن : إن الحجاج يحكمه الزمن الذي يفصح عن دلالات كثيرة، فقط ارتبط قديماً بمدلولات غير التي فرضتها نظريات الحجاج حديثاً، وإن كانت هذه المدلولات الحديثة محتفظة بجوهر المدلول القديم.

2- الثقافة: ويقصد بها التمايز الاصطلاحي والدلالي الحاصل منطقياً من اختلاف الثقافات، فمصطلح الحجاج محاط بمدلولات في الثقافة العربية تختلف عن تلك المدلولات التي أفرزتها الثقافة الغربية.

ومنه، فالمحركان الرئيسيان للحجاج مصطلحا ودلالة يخلصان إلى تحديده في أربعة مفاهيم، اختزلها عبد الله صولة في " مفاهيم ثلاثة:

- مفهوم يجعله مرادفاً للجدل، خاصة عند القدماء، وبعض المحدثين العرب.
- مفهوم يجعله قاسماً مشتركاً بين الجدل والخطابة ونجده عند اليونان.
- ومفهوم له في العصر الحديث، وهو مفهوم أدقّ وأشمل وأعمق من المفهومين السابقين³ يختزله مفهوم "البلاغة الجديدة".

وسنحاول الوقوف على هذه المفاهيم فيما يأتي:

¹ عبد الجليل العشراوي: الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م، ص10.

² عبد الرزاق بنور: جدل حول الخطابة والحجاج، الدار العربية للكتاب، تونس، 2008 م، ص 27.

³ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص8.

(1) مفهوم الحجاج مرادفا لمفهوم الجدل:

تكاد تكون كل محاوره فكرية في الثقافة العربية الإسلامية حجاجاً، وإن لم تأت بلفظ الحجاج نفسه، وذلك " أن هناك منظومة من المفاهيم التي تجمعها مع الحجاج علاقات الترادف، أو التقابل مطلقاً، أو بوجه من الوجوه، منها: التماثل، والمراء والمخاصمة"¹ ولعل أقربها مفهوماً للحجاج، وأكثرها سريانا على لسان العلماء العرب: الجدل.

لقد سوى الإمام النووي بين "الجدل" و"الحجاج" و"المخاصمة" حيث يقول: "الجدل وأصله المخاصمة الشديدة، وسمي جدل لأن كل واحد منها يحكم خصومته وحقته إككاماً بليغاً على قدر طاقته تشبيهاً بجدل الجدل". ويقول كذلك: "الجدل والجدال والمجادلة مقابل الحجة بالحجة وتكون بحق وباطل"².

ووضح ابن الجوزي في كلامه عن أهمية الجدل، دور الآليات الجدلية في الحكم على صحة الدليل من فساده. حيث يقول: "وإنما المراسم الجدلية تفصل الحق والباطل وتبين المستقيم من السقيم، فمن لم يحط به علماً كان في مناظرته كحاطب ليل"³.

أما ابن خلدون، فنجدته يوظف المصطلحات الثلاث: (الجدل)، (الحجاج)، (المناظرة) بمفهوم واحد، حيث يقول: "الجدل معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ومما يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأ، فاحتجاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً، وأحكاماً يقف المتناظرون عمد حدودها في الرد والقبول"⁴، وهكذا فإنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه.

* للوقوف على معاني المصطلحات التالية: المحاجة، المخاصمة، المحاوره... ينظر: لمهابة محفوظ ميارة: مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، دراسة مصطلحية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج81، ج3، ص90. وينظر: عبد الله بن حسين الموجان: الحوار في الإسلام، مرجع سابق.

¹ لمهابة محفوظ ميارة: مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، دراسة مصطلحية، مرجع سابق، ص532.

** وإن كان للوقوف على الحق كان محموداً قال تعالى: "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (سورة النحل/ الآية 125). وإن كان يسير علم كان مذموماً، قال تعالى: " وَجَادِلْهُمْ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ " (سورة غافر/ الآية 5).

² عبد الله بن حسين الموجان: الحوار في الإسلام، مرجع سابق، ص19.

³ عبد الرحمان بن الجوزي: كتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل و المناظرة، تحقيق: محمود بن محمد السيد الدغيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1415هـ/1995م، ص99.

⁴ ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر العربي للطلاعة و النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1428هـ/2007م، ص466.

وقد استمرّ هذا الترادف بين "الحجاج" و"الجدل" عند بعض العلماء المحدثين، كما هو الشأن في كتاب الهادي حمّو "مواقف الحجاج والجدل في القرآن الكريم"، حيث أوردهما مراراً في مركب عطفى واحد، بدءاً بالعنوان. وإن كان أشار* إلى ما قد يكون من فرق بينهم، وموعده لا يغير من مبدأ القول بالترادف¹.

ويساوي "طه عبد الرحمن" بين المصطلحين في قوله: "وحدّ الحجاج أنه فاعلية تداولية جدالية"².

كما أكدّ "محمد الواسطي" في مقاله المعنون ب: "أساليب الحجاج في البلاغة العربية" أن الحجاج جدل، وذلك في قوله: "الحجاج في اللغة: الجدل"³.

وعليه، فإن التداخل المفهومي بين مصطلحي الحجاج والجدل* في الثقافة العربية الإسلامية قديم ب - بصفة خاصة - وعند بعض المحدثين أمر ثابت، وذلك أن أكثر العلماء من فقهاء وفلاسفة ومتكلمين تداولوا المصطلحين بمفهوم واحد.

ولئن كسر القرآن الكريم قاعدة القول بهذا الترادف، وذلك أن ألفاظ الحجاج قد أبانت في كل مواضعها عن اختلاف بين في مفهومها عن ألفاظ الجدل، تبقى نسبة ورود المصطلحين فيه متقاربة، فقد ذُكر الحجاج عشرون مرة**، وزاد عليه لفظ الجدل بتسع جاءت على صيغ مختلفة.

وعلى الرغم من إقرار هذا الترادف إلا أنّ هناك فروقاً بين المصطلحين سواء من حيث المفهوم، أو من حيث الوظيفة، فأما المطلوب بالحجاج فهو ظهور الحجّة، بينما المطلوب بالجدل هو الرجوع عن

* الإشارة التي أوما إليها حكاية عن أبي علي الطبرسي، ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص15.

¹ ينظر: المرجع نفسه، ص19.

² طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1998م، ص45.

³ محمد الواسطي: أساليب الحجاج في البلاغة العربية، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه و مجالاته، ج3، ص142.

** كما أن السيوطي في كتابه "جدل القرآن" يعد الحجاج و إن ضمنياً المذهب الكلامي، ويستعملها على الترادف، وكذلك ابن أبي الاصبع المصري الذي عرف المذهب الكلامي تعريفاً يقترب به كثيراً من مفهوم الجدل في المنطق، وأصول الفقه، والاصطلاحات الثلاثة { المذهب الكلامي، الجدل، الحجاج } مترادفة عند ابن الجوزي. ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص13/14.

*** الحجاج عشرون مرة في سبع سور من القرآن الكريم وهي: سورة البقرة، آل عمران، النساء، الأنعام، غافر، الشورى، الجاثية. ينظر: كهينة زموش، حجاج موسى عليه السلام في النص القرآني، دراسة تداولية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في اللغة و الأدب العربي، قسم الأدب العربي، جامعة تيزي وزو، الجزائر، ص13.

المذهب، وهو ألصق بالصناعة المنطقية. " فالحجاج أوسع من الجدل، من أجل ذلك كان كل جدل حجاج وليس كل حجاج جدل"¹.

وعليه، فإن هذا الثراء الدلالي لمصطلح الحجاج كغيره من مصطلحات اللغة يبين عن حيوية تجلعه خاضعا لتأويلات متعددة، وطوعية استعمالية تؤكد الليونة التداولية² للغة عامة، ولللفظ الحجاج خاصة. ثم إن هذه الفروق الدقيقة بين لفظ الحجاج والجدل، أو غيره من الاصطلاحات السالفة الذكر والتي لا يتسع المقام لذكرها جميعا، لم يبين عنها إلا في العصر الحديث، وذلك بعد استواء الحجاج مبحثاً خاصاً له مبادئه النظرية وآلياته المنهجية.

(2) مفهوم الحجاج قاسما مشتركا بين مفهومي الجدل والخطابة:

لقد تساوقت الفلسفة مع صناعة القول في الحضارة اليونانية التي ظهر فيها جلياً التداخل والتعلق بين الطاقمين الفلسفي والبلاغي.

ولمّا كان "المجتمع اليوناني مجتمعاً يعطي مساحة واسعة لثقافة الإقناع"³، كان موضوع الحجاج مؤثراً بالنسبة إليهم، إذ أحلوه من البلاغة محلاً رفيعاً، تلك الأدلة العجيبة "فن الكلام الذي يقنع ويغذي في آن واحد"⁴.

وقد كان مفهوم الحجاج في هذه الفترة، قاسما مشتركا بين الجدل والخطابة، أو بعبارة أخرى، فقد كان على نمطين: الحجاج الجدلي، والحجاج الخطابي كما أقرّها أرسطو (Aristote) (ت 399 ق.م) فالجدل عند أفلاطون (Platon) (ت 397 ق.م) يختلف عن الممارسات الجدلية عند سقراط (ت 39 ق.م) والتي يفى مناقشة تقوم على سؤال وجواب⁵.

وهو عنده صناعة ملوكية "Art royal" يمثل ذروة العلوم وتتويجها وبه تبلغ الحقيقة، وهو منهج في الفكر والقول جميعاً⁶. وأما الخطابة عنده فهي "صناعة قيادة النفوس بالقول لا في المحاكم والمجالس العامة

¹ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 17.

² ينظر: حسين ببولوط، الحجاج في الإمتاع و الموائسة لأبي حيان التّوحيدي، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، تخصص لسانيات الخطاب، قسم اللغة العربية و أدابها، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2010/2009م، ص 27.

³ فيليب بورتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص 35.

⁴ باتريك شارودو: الحجاج بين النظرية والأسلوب، مرجع سابق، ص 7.

⁵ ينظر: عبد الرحمن بن الجوزي، كتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، مرجع سابق، ص 67.

⁶ هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، مقال ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 81.

بل في الاجتماعات الخاصة أيضا¹، ويرتقي الجدل عند أرسطو إلى كونه قياسا مؤلفا من مشهورات ومسلّمات، وموضوعه هو الاستدلال المبني على الآراء الراجحة، أو المختلطة، وهو وسيط بين الأقاويل البرهانية و الأقاويل الخطابية².

وقد كانت الخطابة في الثقافة اليونانية صناعة* حجاجية وإقناعية تهدف إلى استرجاع الحقوق عنوة بواسطة اللغة، وهي كما عرفها أرسطو: "صناعة تكلف الإقناع في الأمر بعرض كائن من كان"³ وهكذا فإن الخطاب الجدلي يتوجه إلى إنسان مجرد يختزل في وضعية ذات تشترك مع المتكلم في سننه اللساني، أما الخطابي، فهو يتوجه إلى إنسان واقعي يتمتع بملكة الحكم، وذا انفعالات وعادات ثقافية. إلا أن أرسطو رشح المنهج الجدلي الذي يرى فيه القدرة على وضع مبادئ فكر حوارية⁴.

ثم إن التباين بين النمطين الحجاجيين يرجع إلى اختلاف القائل في كل نمط منهما أولاً، وإلى الوظيفة المسندة لكل نمط لكل نمط ثانياً:

أ- من حيث القائل :

فالقائل في الحجاج الجدلي يفحص مضمون الحكم، أي يفحص قضية فكرية، أما القائل في الحجاج الخطابي فمشغله عملي، ويتمثل في بناء الحكم وتوجيه الفعل⁵.

¹ عبد الرحمن بن الجوزي: كتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، مرجع سابق، ص 80.

² ينظر: المرجع نفسه، ص 67.

* أستنادا لما قاله فيليبيون: "كان كل شيء في اليونان خاضعا للشعب، وكان الشعب خاضعا للخطابة"، والصناعة عند أرسطو هي جماع القواعد التي بها يقتدر الإنسان على الإنشاء إنشاء القول. ينظر: هشام الرفي، الحجاج عند أرسطو، مرجع سابق، ص 170.

³ أرسطو طاليس: الخطابة، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، د ط، 1979، ص 9.

⁴ ينظر: فليبي بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط 1، 2007، ص 20-21-22.

⁵ ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 51.

ب- من حيث الوظيفة :

إن وظيفة الجدل عند أرسطو تقنين المناظرة حول أي مطلوب إثباتا وإبطالا بالاعتماد على مقدمات محتملة وشبيهة، مع تجنب التناقض الذاتي، وأما وظيفة الخطابة¹ فتقنين الإقناع بأيّ مطلوب إثباتا أو إبطالا بالاعتماد على مقدمات محتملة، وشبيهة مع تجنب التناقض الذاتي¹.

ولئن كانت الخطابة مجالاً مقتطعاً من مجال عريض وهو الجدل فإن " منبع الحجاجين يبقى واحداً، وهو الاختلاف والتساؤل والحيرة"²، كما "أن كلاهما يعتمد على المحتمل"³. ولما كان أرسطو حريصاً على استقصاء الأشكال المتناهية التي يرتد إليها المنجز أو الممكن إنجازها، فإن الهام عنده ليس القول الحجاجي في حد ذاته، وإنما هو " آليات ذلك القول وإنتاجه والوصول إلى الجذور التي تتشف منها مختلف الأقاويل الحجاجية الممكنة"⁴، ولعل النمطين اللذين ذكرهما أرسطو: الحجاج الجدلي، والحجاج الخطابي يمثلان النمطين الحجاجين الجامعين الممكنين، " فإليها يمكن أن نرجع الأجناس الحجاجية المختلفة مما نعرف في الحضارة الغربية، والحضارة العربية الإسلامية قديماً وحديثاً"⁵. وبعد كل هذا، نجد أن مفهوم الحجاج قاسم مشترك بين مفهومي الجدل والخطابة.

(3) مفهوم الحجاج في العصر الحديث:

لقد استقرت البلاغة عقوداً من الزمن في " الصيغة المحسناتية الشعرية التي ظهرت بوادرها مع البلاغة الرومانية وبلغت ذروة ذلك في القرن الـ19، حيث أصبحت بلاغة أدبية صرفة"⁶.

* يعرف أرسطو الخطابة في موضع آخر من كتابه فيقول: "وقد تشبه في شيء الجدل و في أشياء أخرى الكلام السوفسطائي". ينظر: أرسطو طاليس، الخطابة، ص19.

¹ حمّو النقاري: حول التقنين الأرسطي لطرق الإقناع، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3، ص15.

² محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص51.

³ محمد الولي: مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بيرمان، مجلة عالم الفكر، العدد2، ج40، أكتوبر/سبتمبر، 2011م، ص24.

⁴ هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، مرجع سابق، ص197.

⁵ المرجع نفسه، ص128.

⁶ صابر الحباشة: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، مرجع سابق، ص15.

وفي المنتصف الثاني من القرن الـ 20 ظهرت محاولات جديدة تحنّ للعودة إلى الأصل؛ أيام البلاغة الحجاجية، حيث كانت "المزینات مجرد روافد تسعى إلى بعث الإقناع لا إلى الاستماع الجمالي غير الغائي بالتأثير، وتعديل الرأي والسلوك"¹.

ولعلّ ما يفسّر هذه الجهود على المستويين النظري والمنهجي "الاهتمام المتزايد باللغة الطبيعية وتكاثف الدراسات، وانفتاحها على التداولية ونظرية الخطاب"²، أضف إلى ذلك تغيير النظرة إلى العلم، "فما كان حتمياً أصبح نسبياً احتمالياً، وما كان انطباعياً تأثرياً أصبح يسعى جاهداً بفضل المناهج العلمية إدراك درجة من الدقة والصرامة"³.

وبما أن "القرن الـ 20 قد ميزه الكلام الحجاجي"⁴، وكانت ممارسة الحجاج واقعاً اجتماعياً في عالم اليوم، كان من المناسب إرجاع الأهمية الثقافية اللازمة للنظرية والمنهج⁵.
فالبلاغة الجديدة (الحجاج) "غير معنية بشكل الخطاب من أجل الزخرف أو القيمة الجمالية، بل من جهة كون ذلك وسيلة للإقناع وخاصة وسيلة للإبداع والحضور"⁶.

وبذلك فإن جهود الباحثين في الحجاج تجلت في مجموع النظريات الحجاجية التي انفتحت جميعها على السعي لإعادة الدور الحجاجي الأساس والأول في البلاغة، واختلفت في فروع تحكمها الإيديولوجية والخلفية المعرفية لكل رؤية، وهو السبب العامل في اختلاف مفاهيم الحجاج بين الباحثين. ف جاء مفهوم الحجاج في القاموس الموسوعي للتداولية بمعنيين:

¹ محمد الولي: مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مرجع سابق، ص 32.

² ابتسام بن خراف: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، مرجع سابق، ص 71.

³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 2، ص 178.

⁴ ابتسام بن خراف: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة، مرجع سابق، نقلاً عن:

Mariana Tutesui, L'argumentation, introduction à l'étude du discours

[http:// e book unibuc / cls /mainatutescu-arguemtation/.htm](http://e-book.unibuc/cls/mainatutescu-arguemtation/.htm).

⁵ فليب بووتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص 108.

⁶ يقصد بالإبداع: الحضور وذلك بجلب أشياء إلى ذهن السامع ليست حاضرة في ذلك الحين، وذلك عبر تقنيات المثل. ينظر: صابر الحباشة: التداولية و الحجاج مداخل ونصوص، مرجع سابق، ص 15.

الأول: ويتمثل في الحجاج بمعناه العادي: "مجموعة الترتيبات والاستراتيجيات التي يستعملها المتكلم في الخطاب وقصد إقناع سامعيه"¹.

أما الثاني: فورد بمعناه الفني وهو: "صنف مخصوص من العلاقة الحجاجية يكونها درجة في الخطاب"². وقد حدّد صاحب المصنّف الأوّل في الحجاج "مصنّف في الحجاج" البلاغة الجديدة ل: شاييم بيرلمان (Chaim perleman) ولوسي أولبريشت تيتيكا (Lucy Albrecht Teteka) الانطلاقة من الإرث الأرسطي، والحجاج عندهما هو: "معرفة التقنيات القولية التي تمكّن من إشارة أو تنمية انخراط العقول في الأطروحات التي تقدّم إليها لتتال رضاها"³، فيضع الباحثان بذلك مجالاً ثالثاً للحجاج، يقع بين المجالين الذي دار فيهما الحجاج اليوناني ولكنهما لا يعدمان آثار كل من الجدل والخطابة فيه؛ فيكمن آثار الأول في حديثهم من التأثير الذهني للمتلقين عن تسليمه بما يقدم له، وإذعانه بما يعرض عليه إذعاناً نظرياً مجرداً مجاله العقل والإدراك، أما عن أثر الخطابة في الحجاج، فيظهر من خلال إلحاحهما على فكرة توجيه العمل والإعداد له، والدفاع عنه، فالجدل في خدمة الخطابة وهي غايته، وهو لها عماد، وهي له امتداد⁴.

كما يضع التعريف السابق للباحثين حدّاً فاصلاً بين الحجاج والبرهان. "إذا كان برهان واحد يكفي للإقناع فإننا نبقى في الحجاج بحاجة إلى أكبر عدد من الحجج، لينتمي بذلك الحجاج إلى الاستدلال الجدالي (مجال الرأي)، وليس الاستدلال التحليلي"⁵.

ويقرر ميشال مايير (Michel Meyer 1950) الانطلاقة ذاتها لنظريته حين اعترّم العودة بالفلسفة إلى وظيفتها الأولى التي ليست إلا المسائلة والنظر في أبعادها وخصوصياتها، والحجاج عنده: "دراسة كل علاقة قائمة بين ظاهر الكلام وضمينه"⁶، فسيبيل الحجاج عنده ترجمة ثنائية (سؤال / جواب)، ذلك أن الكلام

¹ جاك موشر، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة الأساتذة والباحثين، إشراف: عز الدين المجذوب، دار سيناترا، تونس، دط، ص 93.

² ينظر: المرجع نفسه، ص 93.

³ باتريك شارودو: الحجاج بين النظرية والأسلوب، مرجع سابق، ص 8.

⁴ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 28.

⁵ ينظر: ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، مرجع سابق، ص 74.

⁶ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 37، نقاً عن:

يتضمن بالقوة سؤالاً - حسبه - ولما كان " كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه، كان الحجاج جهداً إقناعياً وبعداً جوهرياً في اللغة¹.

كما يؤكد مايبير " أن كل بلاغة حجاج، وكل حجاج بلاغة، فهو يطابق بين المفهومين²؛ لأنّ كليهما يهدف إلى تضيق شقة الخلاف بين المتحاورين والمتخاطبين، أو إلغائها.

ويعدّ صاحب نظرية الحجاج في اللغة أوزفالد ديكر (Oswald Ducrot) وأنسكومبر (J. Anscombe) الحجاج نظرية لسانية تبين عن أن اللغة تحمل بصفة جوهريّة وظيفيّة حجاجيّة³، وهو عندهما: "عبارة عن ترابطات لفظية تؤدي إلى نتائج معلومة ومحددة"⁴، وهو قائم في اللغة بغض النظر عن مجالات استعمالها.

ويخالفهما بلانتان (plantin Christian) في ذلك، حيث يؤكد أن " الحجاج لا يوجد في اللغة أساساً وإنما يرجع إلى مكانته في القول"⁵ وهو عنده: " عملية لغوية يحاول من خلالها مستخدم اللغة الحصول على قبول متلقيه لنتيجة ما"⁶.

ويُركّز ايميرين وجروتندروست (rob grootendorst/fransfan Emeren) على أهمية السياق الذي تتولد فيه عملية الحجاج، وانطلاقاً من ذلك فالحجاج: "نشاط اجتماعي وفكري يهدف إلى الحصول على موافقة الملتقى"⁷.

ويرى بيير أوليرون (Pierre-Oleron) في الحجاج نشاطاً تواصلياً بالدرجة الأولى، إذ يستحضر في تعريفه شروط العملية التواصلية بقوله: " الآلية التي من خلالها يأخذ شخص أو مجموعة أشخاص على عاتقه قيادة مثلث إلى تبني موقف وذلك بتقديم تأكيدات حجج تهدف إلى توضيح صلاحية هذا الموقف"⁸.

¹ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 103.

² ابتسام بن خراف: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، مرجع سابق، ص 102.

³ ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء المغرب، ط 1، 1426هـ، 2006م، ص 14.

⁴ علي الشبعان: الحجاج والخطاب: الحجاج وقضاياها من خلال مؤلف روث أموسي، مقال ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 2، ص 221.

⁵ عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، مقابلة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006 م، ص 14.

⁶ فيليب بروتون، جيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص 101.

⁷ المرجع نفسه، ص 99.

⁸ المرجع نفسه، ص 109.

وخاصة القول: إن مفاهيم الحجاج السابقة تتقارب فيما بينها على اختلاف الخلفية المعرفية لمنظرها سواء أكانت فلسفية أم لغوية أم منطقية، وتتصهر في بوتقة واحدة مبرزة نفاطاً ومحوراً مهمة:

(1) - معظم المفاهيم انطلق أصحابها من الإرث الأرسطي، وحاولوا تفعيله والتمكين له تماشياً مع الثورة العلمية الحديثة، وتفاعلا مع مختلف نظرياتها في اللغة.

(2) - محاولة تخلص مفهوم البلاغة الجديدة (الحجاج) مما علق بها من زخرف وزينة.

(3) - تداول معظم المنظرين مصطلحي البلاغة والحجاج على الترادف وخاصة عند بيرلمان ومايبر.

كما أنه لا يمكننا أن نغض البصر عن جهود الباحثين العرب الساعية إلى تحديد مفهوم الحجاج، الذي يريد الإقناع بأهميته لا من جهة أنه منهج لدراسة نصوص الخلافات والمناظرات، فهذه مواطن مهياً لتنتج هذه المخاطبات، وإتّما من جهة أنه يوجد - أي الحجاج - في صلب اللغة، وفي العادي من الكلام مما يدور بين الناس في مبادلاتهم اليومية¹.

إذ يراه طه عبد الرحمن " أصلاً في كل تفاعل كائناً ما كان"²، وهو عنده " كل منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها"³.

ويُركّز حمادي صمود على بعده التأثيري في المتلقي، وهو عنده علاقة بين طرفين، أوعده أطراف تتأسس على اللغة والخطاب ويحاول أحد الطرفين فيها أن يؤثر في الطرف المقابل جنساً من التأثير يوجّه به فعله أو يثبت لديه اعتقاداً، أو يميله عنده، أو يضعفه له صنعا⁴.

ويوجّه عبد السلام عشير وجهة منطقية، فهو عنده عملية موجّهة إلى العقل، يقول في تعريفه " إنه أسلوب يتّجه نحو مخاطبة العقل وآلياته العقلية إعمالاً للحواس والإدراك والتدليل على الممكن"⁵.

وهو عند محمّد الولي: "توجيه خطاب إلى متلق ما لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معاً، وهو لا يقوم إلا بالكلام المتألف من معجم اللّغة الطبيعيّة"⁶.

وعليه قد دارت مفاهيم الحجاج كما عرضها بعض الباحثين العرب حول نقاط أهمها:

¹ ينظر: حمادي صمود، من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1999م، ص96.

² طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص229.

³ المرجع نفسه، ص226.

⁴ ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص276.

⁵ عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، مقابلة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، مرجع سابق، ص20/19.

⁶ محمّد الولي: مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مرجع سابق، ص11.

(1) - لم تبتعد هذه المفاهيم في جوهرها كثيراً عما توصلت إليه النظريات الغربية، وإنما مال كل مفهوم إلى التيار الغربي الذي يلائم توجهه.

(2) - ركزت المفاهيم السابقة على:

* البعد التفاعلي للحجاج.

* البعد التأثيري للحجاج في (عقل) المتلقي.

* البعد اللغوي للحجاج أي تواجده بالقوة في اللغة والكلام.

2.2. الحجاج تطور وتاريخ:

لإن كان الحجاج سمة أساس في خطاب العقل واللغة، فإن قضية التأريخ له تبدو أمراً مستحيلاً؛ لأنه سيتحتم علينا العودة إلى الخطابات الأولى التي أنتجها الإنسان، إما لإقناع نفسه أو غيره. ولكنه قد يلجأ في ظروف معينة إلى آلية الحجاج رغبةً في تحقيق مآرب معينة، موظفاً كل إستراتيجياته، إما دفاعاً عن نفسه، أو طرحاً لفكرة، أو دحضا لرأي، أو إعلاء لرأي آخر، وهو الجو نفسه الذي شكل البيئة المهد للحجاج في أثنية وأماكن متعددة.

1.2.2. الحجاج عند الغرب:

1.1.2.2. قديماً:

تعود جذور نظرية الحجاج من الزاوية التاريخية إلى الفترة اليونانية، وخصوصاً مع السفسطائيين، وأفلاطون، وأرسطو، حين تناولوا الكثير من الظواهر المرتبطة بالممارسة الحجاجية بدرجة عالية من الدقة والشمول، وسنعرض بعض ما قدمه هؤلاء فيما يأتي:

1. الحجاج عند السفسطائيين:

إنّ تضافر الظروف السياسية والاجتماعية* في القرن ال5 ق.م، عجل بظهور جماعة عُرفت في التاريخ باسم السفسطائيين، "وذلك في سياق برز فيه الحكم الديمقراطي بعد أفول نجم الأقلية الأوليغارشية؛ أين أصبحت الحاجة ماسة إلى نخبة تُثَقَّف الرعية، وتُدَرَّبهم على حسن استعمال الكلام في المجالس السياسية (البرلمان)، والقضائية (المحاكم)، وأنيطت هذه المهمة بالسفسطائي¹."

* قام الطاغيان جيلون وهيلون من صقلية بتهجير السكان ونقلهم ومصادرة أملاكهم من أجل إعمار سيراكوزة وتمليك المرتزقة، وبعد أن أطاحت بهما انتفاضة ديمقراطية حدثت عدة نزاعات. ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص24. وينظر: فيليب بروتون، جيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص23.

¹ حافظ إسماعيل علوي: التقديم لكتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة، الحجاج : حدود وتعريفات، عالم الكتاب الحديث، إريد، الأردن، ط1، 2010م، ج1، ص5.

وقد كان فكر هذه الجماعة قائما على أنّ " المدينة والمدنيّة كلاهما تتأسسان على بلاغة القول، وليس على أعمال أهل الصنائع والحرف"¹، فالقول عندهم سلاح قادر على تغيير الحقائق لأن الرأي رأيه، والسلطة سلطته.

وعموما فقد عُرف الحجاج عند السفسطائيين بمعنى الخطابة؛ "فهم أول من اتّجه إلى تكوين الخطباء، وتوجيههم الجدل، وفن الحوار، كما تجلّى في أدبيات الخطابة (البلاغة) لديهم. فكانت لهم مشاركة عضوية في تربية الأفراد وإعداد القادة السياسيين والحكام؛ حيث درس هؤلاء الأشخاص دراسة احترافية (...). ومن هذا أخذت تملك من حيث هي خطاب - القدرة على تعبئة النفوس، وتحريك العواطف، واستمالة الوجدان (...). ولهذا اختار الخطابة السفسطائية حجاجا ذاتيا قوامه الإنسان الذي صار مقياس كل شيء"². وهكذا اهتمت هذه الفئة بالطرق التي تؤدي إلى الإقناع والتأثير، ولم يكتفُ بأن يكونوا منظرين أو مفكرين وإنما اختاروا أن يكونوا معلّمين محترفين، غرباء متنقلين، يتاجرون بحكمتهم وثقافتهم وقدراتهم ولكنهم في الوقت ذاته كانوا أشخاصا لهم قوّة، يعرفون كيف يقنعون القضاة وكيف يُغيرون رأي الجموع وكيف يُؤدّون المهام على أفضل وجه"³؛ بمعنى أنّهم كانوا يمتلكون الحجج الدامغة القويّة التي تتأسس تحت جناح الحجاج والتي تدلّ على أنّ "الخطابة قد ارتفعت عند السفسطائيين جميعا إلى مرتبة العلم بمعناه الصحيح"⁴ حيث كانوا يمارسون الحجاج للحصول على سلطة المجتمع ويُعلّمون الشباب الخطابة التي اعتبروها من أجلّ العلوم التي تهيء الإنسان للنجاح السياسي، وهذا ما يؤكّده بروتاغوراس* في قوله: "أوافق أنني سفسطائي، ووظيفتي تعليم الناس"⁵.

¹ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ص 24.

² حافظ إسماعيل علوي : التقديم لكتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة ، مرجع سابق، ص 7/6.

³ فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص 23.

⁴ حافظ إسماعيل علوي : التقديم لكتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة، ج 1، مرجع سابق، ص 7.

* فيلسوف يوناني قديم عاش بين (347 ق.م - 427 ق.م) ولد بأثينا، وهو أشهر فلاسفة اليونان على الإطلاق، عرف من خلال مخطوطاته التي جمعت بين الفلسفة والشعر والفن وكانت كتاباته على شكل حوارات ورسائل.

⁵ حمادي صمود : الحجاج عند أرسطو، مقال ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، منوبة، تونس، 1998م، ص 61.

ولقد مكّنت المناقشات الفلسفية ذات المنزع اللغوي، التي كان يعقدها السوفسطائيون مع خصومهم مع الحرص على طريقة عرض أفكارهم من جهة، وعلى لغة العرض من جهة أخرى، فأولوا بذلك أهمية كبيرة لبنية الكلام (الكلمة/الجملة)، كما بحثوا عن السبل الممكنة التي يتحقّق بها الإقناع¹.

ومن أهمّ ما توصّلوا إليه مبدأ تناقض الأفكار (Antilogie)؛ "فكان منهجهم أساساً هو تناقض الأفكار، ولقد كان الهدف هو تعليم كيفية النقد والمناقشة وترتيب المناظرة بين العقول"²، وإنّ اهتمامهم بطرائق الإقناع التي تعمل على تغيير مواقف الآخرين من طريق اللغة كان همّهم الأول، فقد "كانوا أوّل من أرسى بُعداً نظرياً لسلطة الكلام"³ وذلك من خلال:

- الاهتمام بجمالية اللغة وقدرتها الإقناعية.

- النظر للكائن الإنساني⁴ "ككل يحويه هذا القول"⁵.

ولمّا كان تصوّرهم قائماً على فصل اللغة عن الوجود؛ فإن ذلك "جعلهم يهتمّون بالأسس التي ينبغي أن تعتمد كي يقول الإنسان الحقيقة، أو يُوقّر أكثر الضمانات للاقتراب منها"⁶.

وهذا ما جعل حججهم مبنية على فكرة النفعيّة المتعلقة بالهوى، وليس النفع المتعلق بالمثل أو الخير⁷، فكان الإنسان عندهم هو مقياس كل شيء، ولم يعتمدوا على أن هناك حقيقة في الواقع الخارجي مستقلة عن الإنسان⁸، وهو المبدأ الذي أشعل فتيل نقد أفلاطون.

¹ فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص24.

² ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص24/25.

³ أحمد يوسف: البلاغة السوفسطائية وفتحة الحجاج، "تفاوت المعنى وهباء الحقيقة"، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص7.

*يقول بروتاغوراس وهو أحد السوفسطائيين: إنّ الإنسان مقياس كل الأشياء التي لها ماهية لها وجود، وتلك التي ليس لها ماهية ليس لها وجود

⁴ ينظر: فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص9.

⁵ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ عبد الجبار أبو بكر: الحجاج الفلسفي وإشكالية المشترك اللفظي، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3، ص106.

⁷ ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص27.

⁸ ينظر: أحمد أمين، زكي نجيب محفوظ: قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1935م، ص105.

2. الحجاج عند أفلاطون:

انتقد أفلاطون السفسطائيين بقوله: "إنه (القول الخطابي السفسطائي) قول إثباتي غير جدلي لا يقوم على المسألة، يعقده صاحبه على الظن لا على العلم، ويقصد به الإقناع معتمداً على ذلك ما يوافق اللذة، لذة السامع والقائل لا الخير؛ فالخطابة السفسطائية هي إذاً خطابة استهواء"¹، وتجدر الإشارة إلى أن أفلاطون حاول اقتداءً بأستاذه سقراط الذي سعى إلى "إرساء نظرية العلم على المعيار العقلي الخالص، أن يصرف قدراً كبيراً من جهده الفلسفي في محاولة افتكاك الخطابة من قبضة السفسطائيين أنفسهم*، وأقام من خلالها تمييزاً حاسماً بين نوعين أساسيين من الخطابة"²:

- الخطابة المعلومة (La gographie) ونسبها للسفسطائيين.
- الخطابة المعقولة (psychogogie) وهي الخطابة الفلسفية التي تتخذ الجدل منهاجاً لها، والبحث عن الحقيقة ومعرفتها هي غايتها المنشودة.

وبهذا "النقد الأفلاطوني بدأ الانفصال بين الخطابة والسفسطة، لتستقلّ هذه الأخيرة حاملة معها كل النعوت القدحية"³، ومن هنا يمكننا تحديد معالم الممارسة الحجاجية الأفلاطونية من خلال تحديد مفهوم الخطابة والجدل في محاوراته ضد السفسطائيين:

أ- الخطابة:

لقد قدّم أفلاطون مشروعاً في صناعة الخطابة "قد تروق للآلهة"⁴ على حدّ قوله، وذلك رغبة في جعل الحجاج قاصداً إلى الخير والفضيلة أثناء تداوله على ألسن الناس، ليتبلور حدّ الخطابة حسب: "صناعة قيادة النفوس بالقول"⁵؛ أي سياقها إلى طريق الخير والحق لا إلى تحقيق المقصد بسلطة القول، والقول الذي أراد أفلاطون تأسيسه هو قول موجّه إلى النفس ومداره تحقيق الفضيلة.

¹ هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، ص 56.

* من أهم المحاورات التي كانت تتداول كثيراً عند سقراط: محاوره جو ريجياس التي بحث فيها في موضوع الخطابة ووظيفتها، ومحاوره (فيدر) التي كان فيها الحجاج أنموذجاً بأنموذج مضاد. ينظر: المرجع نفسه، ص 68.

² حافظ إسماعيل علوي: التقديم لكتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ج1، ص8.

³ رشيد الراضي: السفسطات في المنطقيات المعاصرة، التوجه التداولي الجدلي، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3، ص206.

⁴ حمادي صمود: الحجاج عند أرسطو، مرجع سابق، ص78.

⁵ المرجع نفسه، ص79.

وهكذا فالخطابة عنده ليست فضاء تفاعل قولي بين الإنسان وغيره، بما في ذلك من علاقات معقدة ومقاصد مختلفة وتنوع في الرؤى، وإنما هي فعل قولي أخلاقي¹.

و"تبنى صناعة الخطابة عند أفلاطون على ثلاثة أركان تتمثل في"²:

1. اعتماد المنهج الجدلي.

2. معرفة أنواع النفوس وما يناسبها من أقوال.

3. معرفة ما يناسب المقامات المختلفة من أساليب.

وقد اتخذت بحوثه في الحجاج مسارا أخلاقيا، لم يسلم من نقد تلميذه أرسطو وكذا نقد الباحثين قديما وحديثا من أمثال بيرلمان وأوليرون على أنه حجاج مثالي لا يخدم التطورات الإنسانية³.

(ب) الجدل:

إنّ الجدل عند أفلاطون صناعة ملوكيّة تقترب اقترابا شديدا من العلم، حيث اتخذ هذا النوع منهجا فلسفيا انتقل من خلاله الحجاج من مجال الظن إلى مجال الحقيقة، ولما كان الجدل هو الحوار والمناقشة الذي يكون من خلال السّؤال والجواب؛ فإنّ أفلاطون قدّم ممارسته لهذا الفن من خلال عمليتين هما: عملية تأليف، وعملية تقسيم أو تفريع⁴؛ حيث أن العملية الأولى - كما سماها البعض - "جدلية صاعدة وبها يتجاوز عالم المحسوس إلى الخير الأسمى، والعملية الثانية جدلية هابطة من الخير الأسمى إلى العالم المحسوس"⁵، فمن خلال ما تقدم يتضح أن أفلاطون يرى أن مقصد الحجاج ينطلق من الخطابة والجدل اللذان يعتمدان على دعامتين أساسيتين هما العلم والخير، وأن البحث في الحجاج عنده أو عند السوفسطائيين لا يتعدى دراسة كيفية استخدام هذه الآلية (الحجاج)، والوقوف على مختلف تقنياتها، وقد تجلّى ذلك في نموذجين متكاملين فيما بينهما:

¹ حمادي صمود: الحجاج عند أرسطو، مرجع سابق، ص79.

² المرجع نفسه، ص 81/80.

³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص31.

⁴ ينظر: هشام الرفي، الحجاج عند أرسطو، مرجع سابق، ص81.

⁵ جميل حمداوي: نظريات الحجاج، شبكة الألوكة www.alukah.net، ص13.

الأول: "حجاج بحجاج في مسائل فلسفية مختلفة، ومثله نقد أفلاطون للسوفسطائيين، والذي أفرز خطابين حجاجيين متقابلين ناشرين لنظريتين مختلفتين في وضع القول"¹، ونجد لهذا النوع من الحجاج امتدادا مع أرسطو.

الثاني: "حجاج فيما ينبغي أن يكون الحجاج، ومثله جهود السوفسطائيين وإسهاماتهم في إرساء نظرية القول موازاة مع ما سعى إليه أفلاطون في تقديم مشروع خطابة بديل، وهو مشروع يتجاوز الخطابة في الحقيقة ليحتضن الحجاج"².

لينتقل الحجاج بذلك من مرحلة الممارسة والآلية إلى مستوى التّظهير على نحو ما سيكون مع أرسطو.

3. الحجاج عند أرسطو:

يعدّ أرسطو فيلسوفا موسوعياً شاملاً، تنفتح فلسفته على كل ضروب المعرفة؛ إذ يبحث في الطبيعة والميتافيزيقا والشعر وفنّ الخطابة والجدل، وقد جعل الحجاج قاسما مشتركا بين الخطابة والجدل،

وهذان الأخيران قوتان لإنتاج الحجاج³، وتناول هذه الآلية من زاويتين متقابلتين:

1. من زاوية بلاغية: ربط فيها الحجاج بالجوانب المتعلقة بالإقناع.

2. من زاوية جدلية: والتي تعتبر الحجاج عملية تفكير تتم في بنية حوارية، وتنطلق من مقدمات لتصل إلى نتائج ترتبط بها الضرورة.

وهاتان النظريتان المتقابلتان تتكاملان في التّحديد الذي يقدمه أرسطو لمفهوم الخطاب؛ "إذ يبينه انطلاقا من الحضور ومن الرغبة في الإقناع.

ويحدّده في ثلاثة أنواع: النوع الاستشاري، النوع القضائي، والنوع القيمي"⁴.

وقد ميّز بهذا بين الحجاج الجدلي والحجاج الخطابي؛ "إذ أنّ الحجاج الجدلي مداره على مناقشة

الأراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد، أمّا الحجاج الخطابي فهو حجاج موجّه إلى جمهور غايته تتعدّى إلى التأثير العاطفي"⁵.

¹ هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، مرجع سابق، ص 51.

² المرجع نفسه، ص 68.

³ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 17.

⁴ حسين ببولوط: الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التّوحيدي، مرجع سابق، ص 76.

⁵ عبدالله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م، ص 18.

وقد ركّز أرسطو في نقده للسوفسطائيين "على طرق إنتاجهم للحجج وما يتعلّق بها من آليات وذلك بغية معرفة الحيل التي يستعملونها حتى لا يقع فيها الطرف الآخر"¹، وهذا من خلال المغالطات التي قسّمها "إلى نوعين: لغوية وغير لغوية.

- اللّغويّة: والتي تبنى على التّلاعبات باللّغة المستعملة في المناقشات.
 - غير اللّغوية: والتي توجد خارج اللّغة، ودعا إلى التدريب عليها حتى لا ينطلي علينا حجج المغالط"².
- وفي كتابه "الخطابة" الذي تدارك فيه نقائص سابقه سعى إلى جمع شوارد الخطابة، وإعادة الاعتبار إلى المقومات الحجاجيّة الذاتيّة التي توزّع على المرسل والمرسل إليه الذين يتحقّق بهما أهمّ إنجاز النظرية الحجاجية الأرسطية*، والتي تستوي على دعامتين³:

أ) الاستدلال الحجاجي:

وهو المنهجية المتبعة لإرساء حقيقة معيّنة، وما يقتضيه ذلك الإرساء من عمليات منطقية عقلية تدعم ذلك الطرح دعماً حجاجياً من جهة، وأساليب إنمائية توجيهية من جهة أخرى.

ب) البحث اللّغوي الوجودي:

وتتلخص في علاقة البحث اللغوي بالإنسان والوجود، "فإدراك الذات والوسط مرهون عنده بمدى الوعي باللّغة"⁴.

وخلاصة القول: إنّ النقلة النوعيّة في مباحث الحجاج كانت على يد أرسطو؛ إذ تحوّل الحجاج من آلية يسعى أصحابها إلى تحصيل كلّ استراتيجياتها بغية التأثير والإقناع إلى نظرية تتخذ من المنطق أساساً لها، وتتصل بروافد نفسية، اجتماعية، أخلاقية وحتى سياسية، و"لعلّ هذا الشمول الذي حقّقه هذه النظرية هو ما يفسّر سيطرة الشمول الأرسطي على الفكر الغربي حتى حدود القرن 19م"⁵، الذي كان يجب انتظاره حتى يعاد فيه اكتشاف بلاغة أرسطو، و يرد الاعتبار لها من خلال النظريات الحديثة.

¹ فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص 27.

² رشيد الراضي: السفطات في المنطقيات المعاصرة، التوجه التداولي الجدلي، مرجع سابق، ص 206/207.

* تسعى المغالطات إلى تحقيق مجموعة من الأهداف مثل: التكبّيت، الإيقاع في الخطأ، الدفع الى مخالفة المشهور، استعمال الغريب من اللّغة، دفع المجيب إلى الكلام الفارغ. ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة: في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 34.

³ ينظر: حافظ إسماعيل علوي، التقديم لكتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة، ج 1، مرجع سابق، ص 9.

⁴ محمد الولي: مدخل الى أفلاطون، أرسطو وشايم بيرلمان، مرجع سابق، ص 14.

⁵ فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، مرجع سابق، ص 24.

لقد تجاوز الحجاج في العصر الحديث دراسة "آليات التأثير والتأثر إلى تتبع الثغرات التي يمكن أن تجدد على ثنائية النص والخطاب في علاقتهما بالواقع والمخاطبين من جهة، وعلاقتهما بالثورة التقنية التواصلية سريعة الخطى من جهة أخرى"¹، وذلك بعد الثورة البلاغية الجديدة على الإسراف في تزيين القول، الأمر الذي أفقده قدرته الحقيقية على الإثارة والتأثير، وأحدث ردود فعل عكسية عززت الشعور بالانفصام عن الواقع، وأدت إلى تدني مستوى الخطاب* الأدبي².

ظهرت أول نظرية في الحجاج من خلال كتاب "مصنف في الحجاج البلاغة الجديدة" الصادر عام 1958م لصاحبيه شايم بيرلمان وتيتكا في مجتمع تسوده الثقافة الديمقراطية التي تكرر التنوع والأخلاق وتنبذ العنف، فكانت بحاجة ماسة إلى نمط جديد من الخطابة (البلاغة) تماماً كما حدث في السياق الأثيني³.

1 - نظرية البلاغة الجديدة عند بيرلمان وتيتكا:

إن هذه البلاغة الجديدة (الحجاج) تكاد تغطي كل المساحة التي تمتد من الخطاب اليومي إلى الأدب والفلسفة، والعلوم القانونية، والعلوم الإنسانية، التي "حاول من خلالها بيرلمان تبرئة البلاغة من جميع التهم الموجهة إليها، بل وحاول إقامة ما يشبه وحدة اندماجية بين أفلاطون* وأرسطو"⁴.

¹ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 284/285.

* ويرجع محمد سالم محمد الأمين الطلبة ذلك إلى سببين: أحدهما سياسي وهو ارتباط البلاغة بجمهور محدد الهدف إقناعه ببعض البرامج السياسية لا غير، ومن هنا بدأت البلاغة تفقد حيويتها بوصفها فناً خطابياً تتحول إلى فن الفصاحة، وأما الثاني فهو تربوي ويتمثل في التبسيط الذي مورس على المادة البلاغية كي يلائم الطرح المدرسي وافهام التلاميذ. ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مفهوم الجدل عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص175.

² صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ/2004م، ص103.

³ حافظ إسماعيل علوي: التقديم لكتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة، ج1، مرجع سابق، ص9.

* لقد رفض بيرلمان أفلاطون (جورجياس) ولم يرفض أفلاطون(فيدر)، ذلك أن أفلاطون أدان البلاغة في (جورجياس) لأنها قائمة على الخداع واحتفل بها في (فيدر)؛ لأنها عبارة عن حوار بين الخاصة المتفلسفة أو العامة، ينظر: حافظ إسماعيل علوي، التقديم لكتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة، مرجع سابق، ص35.

⁴ محمد الولي: مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مرجع سابق، ص34.

فالحجاج الذي سعى العالمان للتنظير له، له معقولية وحرية. وهو "حوار من أجل التوافق بين الأطراف المتحاوره ومن أجل التسليم برأي الآخر بعيدا عن الاعتباطية واللامعقولية اللذين يطبعان الخطابة، وبعيدا عن الإلزام والاضطرار اللذين يطبعان الجدل؛ فالحجاج عكس العنف بكل مظاهره"¹، وموضوعه: "دراسة الخطاب غير البرهاني وبالتالي فهو يغطي كل حقل: الخطاب الهادف إلى الإفهام والإقناع"². وأما مجاله "فيتعلق أساسا بالبحث في المماثل والمعقول وذلك حال ما إذا كان هذا الأخير يلفت من كل الحسابات الحتمية"³.

وقد سميت بحوثه بالبلاغة الجديدة (la nouvelle rhétorique) لدوافع أهمها:

- "حادثة الأبعاد التي تهتم بها.
- كونها ذات خصائص إنسانية، فقد أجريت داخل قسم الفلسفة وعلم الاجتماع بجامعة بروكسل (بلجيكا)"⁴.

وبالعودة إلى الأصول المعرفية التي توجه الحجاجيات اللسانية نجدها تنحدر من:

1. الأصل الذي تمثله النوعية التداولية في اللغويات المعاصرة.
2. الأصل الذي تمثله جهود الخطابة الجديدة مع مؤسسيها بيرلمان وتيتكا. وعليه "فقد مثلت الحجاجيات اللسانية مجاوزة حقيقية الكثير من الأفكار التي تبلورت في إطارها لتتمكّن بفضل ذلك من رسم معالم دقيقة لدرس جديد مستقل بموضوعه، درس ينطوي على نضج نظري يخرج من دائرة النظريات الفلسفية ليلحقه بالممارسة العلمية اللسانية"⁵، وقد كشفت بحوثها عن جوانب عميقة في الدرس البلاغي المعاصر لتأملهما الدقيق في اللغة والفكر من خلال كتاب بيرلمان "البلاغة الجديدة" "La nouvelle rhétorique" في 1952م، وهو عنوان جزئي لكتاب "المصنف في الحجاج"⁶ وكتاب آخر بالاشتراك مع تيتكا "دراسة الحجاج" "Traité de l'argumentation" الذي درسا فيه التقنيات

¹ عبدالله صولة: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة بيرلمان وتيتكا، ص 298.

² فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص 43.

³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 183.

⁴ المرجع نفسه، ص 104.

⁵ حافظ إسماعيل علوي: التقديم لكتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة، ج 2، ص 79.

⁶ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 102.

التي تؤدي إلى التسليم بالأسطروحات المعروضة، وبهذا يرى هذان الباحثان أن موضوع نظرية الحجاج هو " درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليهما من أسطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"¹، وتتنظم هذه التقنيات في صنفين²:

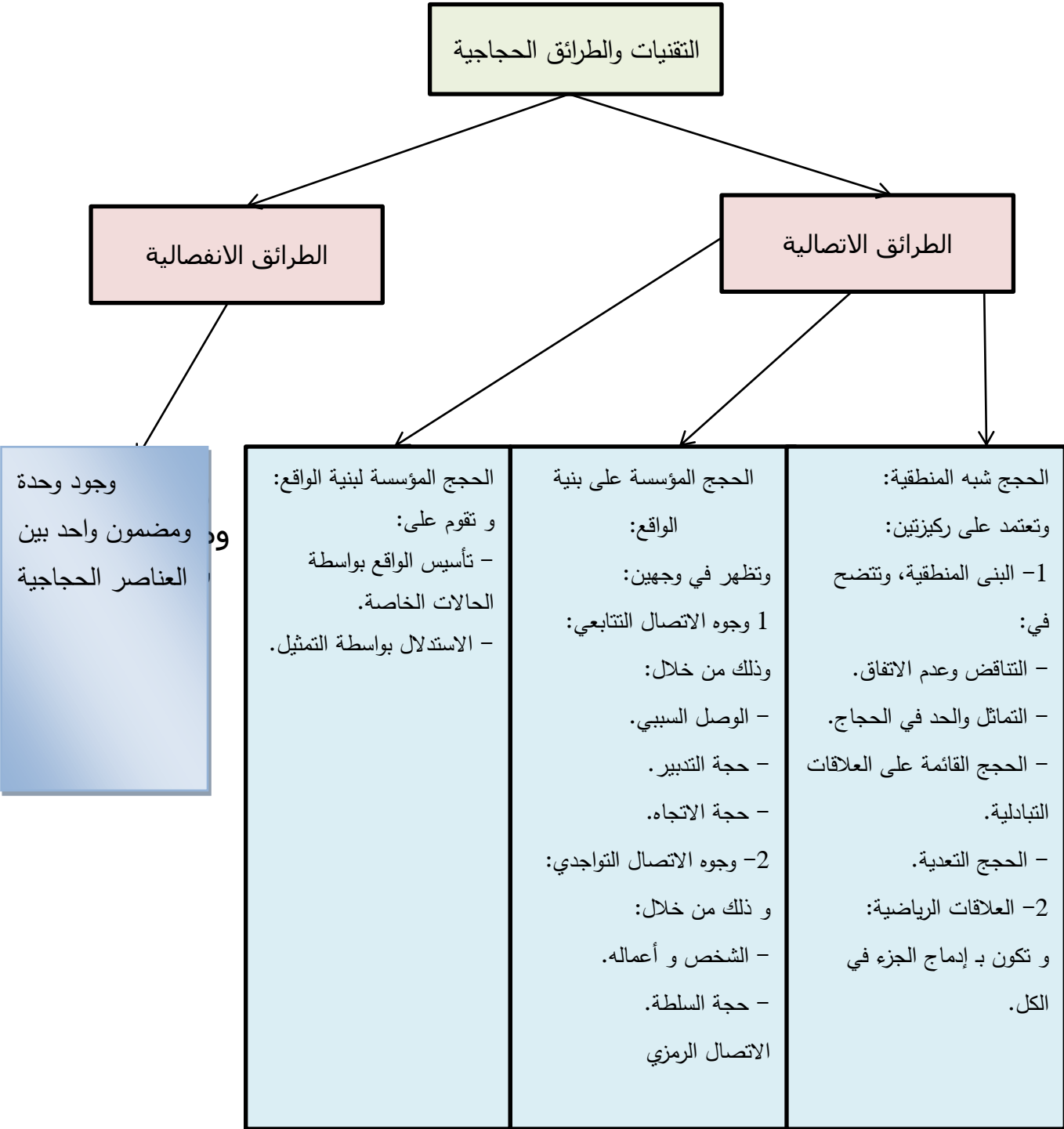
1- الطرائق الاتصالية (procedes de liaison).

2- الطرائق الانفصالية (procedes de dissociation).

¹ عبدالله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 27.

² حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، 1998م ص 254.

ويمكن شرحهما في المخطط الموالي:



رسم تخطيطي يوضح التقنيات و الطرائق الحجاجية عند بيرلمان

ومنه فإن الخطاب الحجاجي عند بيرلمان وتيتيكا خطاب واعٍ، يقوم في جوهره على منهج الخطاب وعلى مدى قدرته في بناء النص الحجاجي موظفا فيه مختلف الآليات الحجاجية، ومعتمدا في بناء استدلالاته سياقه الحجاجي على جملة مقدمات تتمثل في:

(1) الوقائع (Les faits):

"وتتمثل ما هو مشترك بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس، وهذه الوقائع فيها ما هو حياتي وفيها المفترضات أي الوقائع الممكنة والمحتملة"¹، بمعنى أنّ المتكلم يستخدم الوقائع المتداولة بين الناس بنوعها لاسيما الوقائع المشاهدة لتأثيرها العميق في النفوس وقدرتها الفعّالة في إقناع الآخر، وهذا نتاج مقارنتها بالوقائع المفترضة.

(2) الحقائق (Les vérités):

"وتتعلق بالنظريات العلمية والتصورات الفلسفية والدينية المتعالية"²؛ فالحقائق تحمل طابعا عاما يجعلها تختلف عن الوقائع التي يميّزها الطابع الخاص، ذلك أن الناس طبقات في درجة العلم بتلك التصورات الفلسفية والدينية والعلمية.

(3) الافتراضات (Les presumptions):

"هي أحكام قبلية أو آراء متصورة سلفا وتكون موضع موافقة عامة، إلا أن التجاوب معها لا يصل حدوده القصوى؛ فالفرضيات تتحدد بالقياس إلى العادي أو المحتمل، وهما قيمتان تتغيران بتغير الحالات والأوضاع"³، بمعنى أن الافتراضات هي جملة الفرضيات غير الثابتة التي يقترحها الباحث تحتل الصدق أو الكذب، مما يجعل قضية التجاوب معها ضعيفا يتحدد في نهاية المطاف.

(4) القيم (Les valeurs):

"تتدخل القيم كأسس الحجاج في الميادين القضائية والسياسية والفلسفية، وهي تستدعي لدفع المستمع نحو اختيارات معينة، أو لتبرير هذه الاختيارات، والقيم ليست كونية لأنها ذات صلة بتطلعات مجموعات خاصة، وهي إما مجردة مثل: العدل، والحق، أو محسوسة مثل الوطن"⁴؛ فهذه القيم هي مرتكزات السامع نحو الفعل المطلوب في ميدان الحجاج.

¹ عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 1434هـ/2013م، ص87.

² المرجع نفسه، ص87.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص88.

(5) الهرميات (Les hierarchies):

"إن القيم درجات ومراتب مما يعني خضوعها للهرميات والتراتب؛ فالعدل مثلا يعتبر أفضل من قيم أخرى نبيلة، ولذلك فالترتيب استعمال حجاجي عملي للقيم"¹؛ مما يعني أن القيم تتخذ شكلا هرميا من حيث الترتيب.

(6) المعاني أو المواضع (Les lieux):²

"بالمعنى الأرسطي أي المقدمات العامة التي يلجأ إليها المحاجج لبناء القيم وترتيبها؛ ففي مخازن الحجج والأطر الناظمة فهذه المعاني أو المواضع يستعين بها المحاجج لإقناع الغير، والمواضع أنواع:

- مواضع الكم : Lieu de quantite : وهي المواضع المشتركة التي تفسر شيئا بفضل شيئا آخر لأسباب كمية.

- مواضع الكيف Lieu de qualitie: وتتعلق بالأهمية التي يكتسبها شيء أو فعل مقارنة بأشياء وأفعال أخرى.

- مواضع أخرى منها مواضع الترتيب lieu d'ordre: والتي تقر بأفضلية السابق على اللاحق.

- مواضع الموجود Lieu d'existant: والتي تفسر بأفضلية الموجود على الممكن والمحتمل.

- مواضع الجوهر: Lieu d'essensi: وتتعلق بما يجسد بشكل أفضل نوعا ما.

وتمثل هذه المقدمات الست التي وصفها بيرلمان وتيتكا الشروط الأساسية لإقامة الحجاج وبناء مساره.

بناء على ماسبق نخلص للإقرار بأن بيرلمان و تيتيكا قد حاولا تخليص الحجاج من دائرة الخطابة والجدل، وطورا اللبانات الأولى للدرس البلاغي أو النظرية الحجاجية بشكل جعلها منسجمة ومستجدات العصر، والتطلع إلى مصاف العلوم الإنسانية وذلك بتلخيصها من شوائب المنطق والأبنية الاستدلالية المجردة، وجعلها حوارًا بين الخطيب وجمهوره، لتتشكل بذلك نظرية جديدة تسمى "الخطابة الجديدة أو البلاغة الجديدة"، التي تدرس التقنيات الخطابية كوظيفة حجاجية منطلقة من الأطروحات ومنتبهة إلى الإقناع؛ ولهذا فقد حاول كل من بيرلمان وتيتيكا الابتعاد عن الاعتباطية واللامعقولية والتركيز على البعد العقلي للحجاج.

¹ عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص 88.

² لطفي عبد البديع: فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ص 98.

(7) نظرية المساءلة عند ميشال مايبير*:

يعد رائد النظرية الحجاجية التي تمثلت في مقارنة المساءلة البلاغية؛ إذ انطلق في نظريته من تحديد طبيعة الكلام ووظيفته التساؤلية؛ ذلك أن الحجاج نقاش وحوار يثيره السؤال الذي يستدعي الكلام والبحث عن الجواب.

فأراء مايبير في الحجاج واللغة والبلاغة تميزت عن آراء أقرانه في المدرسة البلجيكية (ورائدها بيرلمان)؛ لأنها "متعلقة بإطار فلسفي إبستمولوجي غلب على منهجه بصفة عامة"¹، مما جعل الحجاج عنده "محايث لاستعمال الكلام؛ لأنه يتضمن بالقوة سؤالاً يستمد منه دلالاته"²، وتقوم نظريته على "ثلاثة أبعاد تتمثل في:

(1) البعد التداولي: من حيث بحثها في ظروف إنجاز الخطاب وآلياته.

(2) البعد التأويلي: من حيث علاقة السؤال بالجواب، وما يتطلبه من تأويل لكل منهما، وروافده المغذية له.

(3) البعد البلاغي: من حيث ربطه إياها بالحجاج، وفتحها لها على مختلف وسائل الاتصال الكائنة اليوم، والممكنة"³.

وقد طرح مايبير ثنائية "السؤال والجواب" لبناء سلسلة حوارية ذات بعد حجاجي؛ "إذ تندرج هذه الثنائية تحت الإسهامات التنظيرية المعاصرة لوظائف الكلام، وأبعاد اللغة، والتي تبقى متينة الاتصال بنظرية المعنى المرتبطة بالسؤال أشد الارتباط، وبالسؤال المنفتح على الأجوبة المتعددة التي تتضافر فيها المقاصد التداولية (ظروف إنجاز الخطاب)، والتأويلية (علاقة السؤال بالجواب) والبلاغية الحجاجية أساساً في حقيقتها"⁴.

* هو عالم فرنسي شغل منصب أستاذ في جامعة بروكسل و مدير المجلة الدولية للفلسفة و مؤسساً و رئيساً للمركز الأوروبي لدراسة الحجاج. ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص 103.

¹ ابتسام الخراف: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، مرجع سابق، ص 99.

² محمد علي القارصي: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسائلة لميشال مايبير، مقال ضمن كتاب أهم نظريات التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 394.

³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 132.

⁴ حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 401.

وقد عبّر مايير عن مفهوم الحجاج بقوله: "الحجاج هو دراسة الصلة بين المعنى الصريح والمعنى الضمني، وأحسبه التعريف الأكثر عمومية الذي بإمكاننا أن نعطيه للحجاج"¹.
ومن هنا فإن مايير يُوظّف مفهومين أساسيين في عملية الحجاج هما "الضمني"، و"المصرّح به"؛
"المصرّح به هو ظاهر السؤال، أما الضمني فتلك الإمكانيات المختلفة للإجابة عن السؤال الواحد"²، بمعنى أنه قد قسّم الحجاج إلى قسمين رئيسيين.

وهكذا فإن مفهوم الحجاج عنده لا يخرج عن السمة الاجتماعية، كونه عقليا استدلاليا من جهة، وتواصليا إقناعيا من جهة أخرى، تحت مبدأ أن الجواب هو سؤال مفترض في نفسه موجّه لجمهور المتلقين، ولم تعد البلاغة من وجهة نظره مرتبطة بالتعبير والإقناع فقط؛ بل أصبحت طرحا لمختلف المسائل والمساءلات التي عالجتها النظريات المعرفية، والتواصلية، والفلسفية داخل نظام اللغة وخارجه.

(8) نظرية الحجاج عند تولمين Tollmin :

سعى تولمين إلى إعادة تجديد المنطق من خلال إقامة نظرية حجاجية تدرس الأدوات الحجاجية في الاستخدام اللغوي، وذلك في بحثه المقدم عام 1958م، بعنوان "The uses of arguments".
وقد تم التعرف على نظريته من خلال نموذج المشهور للحجة التي تتألف من انسجام الأدلة مع بعضها، وهي "مجموعة من سلاسل مرتبطة، ومتماسكة تتمثل في أدلة، وهذه الأدلة يجب أن تكون منطقية بالأساس لكي يفهمها العقل"³.

ومنه فإن تولمين يجعل المنطق مرجع كل الحجج، وهذه الأخيرة خمسة أزواج هي:⁴

- حجج تحليلية / حجج مادية.
- حجج صحيحة الشكل / حجج غير صحيحة الشكل.
- حجج توظف ضمانة ما / حجج تؤسس ضمانة ما.

¹ نعمة دهش فرحان الطائي: نظرية المسائلة والبلاغة لميشال مايير، مقارنة في الأصول والأسس والتمثلات، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، جامعة بغداد، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 43، نيسان، 2019، ص 287. نقلا عن: ibid p 112

² محمد علي القارصي: البلاغة والحجاج من خلال النظرية المسائلة لميشال مايير، مرجع سابق، ص 391/395.

³ كمال الزماني : حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، عالم كتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، م2012، ص134/135.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص135/136.

- حجج تحوي مفردات منطقية / حجج لا تحوي أي مفردات منطقية.

- حجج ضرورية / حجج احتمالية.

وبهذا يكون فيلسوف المعرفة (تولمين) " أول من عرض الوضعية (الحجة) ومنطقيتها صراحة من خلال تطويره في الحجج"¹، كما أنه قد "اجتهد في إثراء قضايا القياس المنطقي وإخصابه بواسطة القضايا المتداولة في نظرية القانون، وفي المرافعات القضائية من جهة، وأسهم من جهة أخرى في إخضاع هذه القضايا القانونية لبناء منطقي صارم"²، وهذا الخليط المتجانس من قضية وسبب أو عدة أسباب: يشكل الحجة عند تولمين، والتي بحسبه "تمارس وظيفة تبريرية أصلية، وكل وظيفة أخرى لها تبقى ثانوية، بل عالية على هذه التبريرية"³.

و"الحجج عنده نوعان"⁴:

(1) **الحجج التحليلية:** ويعني قبول الأسباب القبول الضمني للقضية؛ ذلك أنّ القضية موجودة سلفاً في

الأسباب، ومثالها:

كل أخوات جاك شعرهنّ أصهب.

"أن" هي إحدى أخوات جاك.

إذا فشعر "أن" أصهب.

(2) **الحجج الجوهرية:** وهي الحجج التي لا تحتوي فيها الأسباب على المعلومات المقدمة في القضية،

والقضية تحتوي على معلومات غير موجودة في الأسباب ومثالها:

"أن" هي إحدى أخوات جاك.

¹ فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجج المعاصرة، مرجع سابق، ص 59/58.

² عبدالله صولة: الحجج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 26.

³ فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجج المعاصرة، مرجع سابق، ص 60.

⁴ المرجع نفسه: ص 63/64.

كل أخوات جاك اللاتي رأيناهنّ حتّى الآن شعرهنّ أصهب.

إذا المحتمل أن يكون شعر "أن" أصهب.

9) نظرية الحجاج في اللغة عند أوزفالد ديكر و أنسكومبر:

إن نظرية الحجاج في اللغة وليدة نظرية الأعمال اللغوية وفق ما يسمّى بالأفعال الكلامية، والتي طرحها كل من أوستين "Austin" وسيرل "Sorell"، ليأتي ديكر و"يطور آراءهما المتعلقة بالأفعال اللغوية وذلك بإضافة فعلين آخرين: (فعل الحجاج)، و(فعل الاقتضاء)¹.

ولابد من الإشارة إلى التقاء بلاغة ديكر و أنسكومبر ببلاغة بيرلمان وتيتكا، وذلك في خضوعهما لقانون الأنفع والأجدى في الخطاب، والأشكال الواحدة في الهيكلية هي الهيكلية الحجاجية بالوصل، والهيكلية الحجاجية بالفصل².

ولكن هناك فرق جوهري بين البلاغتين، يكمن في أن ديكر و يخالف بيرلمان الذي يرى أن "كل قول لا يحتوي على فعل إقناعي لا يكون حجاجاً، بل أدبا في المعنى العام، يعمم الحجاج على كل قول ويجعلها تعادلية ضرورية: كل قول: حجاج"³.

ولمّا كان " كل كلام حجاجياً فوظيفة الكلام الجوهرية هي أن يوجّه لا أن يدلّ"⁴، وهكذا فحجاج ديكر و يقوم على اللغة أساساً ويكمن فيها، بينما يُعرّف بيرلمان الحجاج باعتباره " مجموعة أساليب وتقنيات في الخطاب تكون: شبه منطقية، أو شكلية، أو رياضية"⁵، و" هذا الخلاف جعل ديكر و ينطلق من فكرة مفادها أننا نتكلّم عامّة بقصد التأثير "⁶.

¹ أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص 15.

² عبد الله صولة: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (الحجاج)، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 1، ص 32.

³ عبد الرزاق بنور: الأطر الإيديولوجية لبعض نظريات الحجاج، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 2، ص 312.

⁴ عبد الله صولة: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (الحجاج)، مرجع سابق، ص 32.

⁵ سامية دريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص 22.

⁶ صابر حباشة: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، مرجع سابق، ص 50.

وقد عرّف ديكرو وأنسكومير مفهوم الحجاج وآلياته من خلال كتابهما "الحجاج في اللغة" (L'argumentation dans la langue) في 1983م، وهو حجاج لغوي بحت؛ حيث حصره في اللغة ودراستها بعيدا عن واقعها الحالي ليكون بذلك: "علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجة"¹، أي أنّ الحجاج عندهما هو "مجال لعملين: عمل التصريح بالحجة من ناحية، وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى، سواء كانت النتيجة مصرّحا بها أو مفهومة من (ق 1) أي القضية الأولى"².

إنّ المستوى الإعرابي والمعجمي للجملة عند الباحثين يتضمّن وجهة حجاجيّة، يتّضح معناها قبل استعمالها، عكس القول الملفوظ الذي يتمحور حول استعمال الجملة في مقام معين، والذي يفرض ضربا من النتائج دون غيرها، وهذا يستلزم أنّ الملفوظ لا يصلح لأن يكون حجة لهذه النتيجة أو تلك، إلاّ بموجب الوجهة الحجاجية المسجّلة فيه، ومأتى هذه الوجهة والمكوّنات اللغوية هو "الروابط والعوامل، وهي التي تحدّد طريق الربط بين النتيجة وحجّتها"³، وهذه العوامل والروابط الحجاجيّة هي "الدليل القاطع على أنّ الحجاج له مؤشّر في بنية اللّغة نفسها"⁴.

وعندما تقوم علاقة ترتيبية معيّنة بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما؛ فإنّ هذه الحجج تنتمي بذاتها إلى السلم الحجابي نفسه الذي هو فئة حجاجية موجّهة، ويتّسم بالسمتين الآتيتين:⁵

- ✓ كل قول يرد في درجة ما من السلم، يكون القول الذي يعلوه دليلا أقوى منه بالنسبة إلى (ن).
 - ✓ وإذا كان القول (ب) يؤدي إلى النتيجة نفسها (ن)، فهذا يستلزم أن (ج) و(د) الذي يعلوه درجة يؤدي إليها؛ حيث (ن) نتيجة و(ب)،(ج)،(د) حجج.
- ويسير السلم الحجابي وفق قوانين ثلاثة:

- قانون النفي.
- قانون القلب.

¹ أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص 16.

² عبدالله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 34.

³ شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة، مقال ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 376.

⁴ ابتسام بن خراف: الخطاب الحجابي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، مرجع سابق، ص 158.

⁵ أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص 21/20.

- قانون الخفض¹.

وقد بيّن ديكر و أنسكومبر أن "الحجاج باللغة يجعل الأقوال تتتابع وتترابط على نحو دقيق، فتكون بعضها حجاجياً، وتدعم وتثبت بعضها الآخر"²؛ حيث أقحما الحجاج في التداولية، بل "ويقرر ديكر و الانتماء إليها"³، وفي نظريتهما هذه أشارا أساساً إلى مفهوم التوجيه (L'orientation)؛ إذ اعتبر ديكر و أن غاية الخطاب نمط من النتائج باعتبارها الوجهة الوحيدة التي يمكن للمخاطب أن يسير فيه"⁴.

ولكن ما عيب على هذه النظرية هو حصر صاحبها دلالة الملفوظ في التوجيه، إلا "أن دلالة الكلام وحتى الكلمة ليست التوجيه فحسب، وإنما التوجيه جزء من دلالة الكلام أو بعض منها"⁵.

وبعد عرض ما سبق من النظريات الحديثة في الدراسات الغربية، نجد أنها جميعاً قد شكّلت المرجع النظري للحجاج ابتداءً بنظرية البلاغة الجديدة التي تعدّ الأساس الأول والعمدة الانطلاقيّة لكلّ النظريات بعدها، والتي تمّ فيها حصر الحجاج في أشكال اتصالية، وأشكال انفصالية.

أمّا نظرية المساءلة ذات الأصول الفلسفية، فقد اختزل فيها ما يبرر الحجاج في ثنائية تقابلية سؤال/جواب، والتي تقترب بدورها كثيراً من نظرية البلاغة الجديدة في المقومات والمصطلحات، في حين أن الجهود النظرية لتولمين تبلورت في دراسة الحجج وأنواعها لتأتي فيما بعد نظرية الحجاج في اللغة التي تعد ثمرة تزاوج بين الحجاج والتداولية؛ والتي تمحورت حول الجوانب الحجاجية للغة كالروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية و السلام الحجاجية... - على سبيل المثال لا الحصر - ونلخصها في نقطتين أساسيتين هما:

أ) الحجاج بعد جوهر في اللغة.

ب) تحليل البناء الحجاجي يكون عن طريق السلم الحجاجي والروابط والعوامل الحجاجية.

2.2.2. الحجاج عند العرب:

1.2.2.2 قديماً:

غلب الشعر على أصناف القول في تراثنا الأدبي قبل نزول القرآن الكريم، أين كان الأدب بمختلف أنواعه شفوياً، يؤدي الوظائف المسندة إليه اعتماداً على وقع السمع في الشكل، تماماً كالاكتفاء على بنية

¹ أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص 22/23/24.

² صابر الحباشة: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، مرجع سابق، ص 23.

³ عبدالله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 34.

⁴ صابر الحباشة: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، مرجع سابق، ص 24.

⁵ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 36.

معانيه وقوة حججه¹؛ فالأوائل عرفوا "الحجاج ممارسة لغوية أي تابعا تبعية عضوية واستعمالية لمجالات تستدعيه وأفعال تتطلبه"²، دون الحاجة إلى تدوين قوانينه؛ "لأن القرائح الأولى تغنيهم عن تدوينهم إياه، كما كانت تغنيهم عن تدوين اللغة والنحو، والعروض وغيرها"³.

ولأن الخطاب الشعري يتعدى كونه أحاسيس وانفعالات يترجمها كلام موزون مقفى، ذلك لما فيه من شأن في تغيير رأي الآخر من التأثير والفعل فيه، وتوجيه سلوكه "مواقفه وجهات خاصة تتفق والأغراض الاجتماعية المباشرة للشعر، كنصرة عقيدة دينية أو كلامية، أو الدفاع عن مذهب سياسي... وأوضح ما يتجلى ذلك في المديح والهجاء وما يتفرع عنهما"⁴، فإننا نعثر في الشعر على إشارات واضحة إلى شروط الكلام، وسماته، ومقاصد المتكلم، ومقدمات الخطاب، كما نجد فيه اهتماما بيّنا بالمتلقي⁵.

ثم نزل القرآن الكريم الذي كان "حجة الحجج على الناس كافة"؛ لأنه كلام الله عز وجل، ومعتمد على حكم كل مسألة وأصلها، "فأقرّ الحجة من خارج النص لا من النص، وأقام نصّا حجة على نص، وكانت تلك الحجة من دائرة المعجز المنقطع"⁶، لا من دائرة الإمكانية المحتملة؛ لأنه {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[فصلت:41]، وهكذا "قامت الحجة من شكل النص وبنائه لسد الحاجة إلى حجة العقل"⁷.

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وانقضاء خلافتي أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- فُتح باب الفتنة على مصراعيه بمقتل عثمان -رضي الله عنه- وسبق أمر الخلافة إلى المسلمين، فانقسمت الأمة إلى أحزاب، وكان لكل حزب لسان حال، ليتنوع بذلك سادة القول بين ولاية، وأمراء، وملوك، ودعاة، وغيرهم ممن كانت غايتهم قابضة وراء هذه الحروب المذهبية، وتعد هذه الفترة على مافي الأمر من اختلاف* من أهم

¹ ينظر: حمادي صمود: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، مقال من كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 25.

² الحبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3، ص32.

³ عبد الرحمن بن الجوزي: الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، مرجع سابق، ص 86.

⁴ جابر أحمد عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ص 367.

⁵ ابتسام بن خراف: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، مرجع سابق، ص 52.

⁶ حمادي صمود: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، مرجع سابق، ص 26.

⁷ المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

* والمقصود تتابع الأحداث غير المتوقعة بعد وفاة عثمان بن عفان من اقتتال الصحابة حول الخلافة وتحزبهم، ومقاتلة علي للسيدة عائشة في موقعة الجمل وغيرها من الأحداث التي أفاضت فيها كتب التاريخ الإسلامي.

الفترات الخصبة في تاريخ الثقافة الإسلامية في وضع القول واكتشاف ما للغة من قدرة على قول الشيء ونقيضه، وإمكانية أن يقوم الرأي، والرأي المضاد والحجة ونقيضها¹، وهذا ما يؤكد أن المسلمين قد اشتهروا منذ بداية أمرهم بممارسة الحجاج وفنون الجدل، وأن " الفكر الإسلامي قد حوى قواعد وأدبيات لاغنى عنها في الحوار والتناظر"²، كما "وضع النظار المسلمون لمنهج المناظرة والحجاج شروط وقوانين تنافسفي ضبطها وصرامتها وترتيبها ضوابط المنطق وأحكامه، ولا أدل على ذلك من أنهم استخدموا طرق الجدل في الاستدلال على قضايا من صميم المنطق نفسه"³، و تجدر الإشارة إلى أن "الخطب السياسية الهادئة القائمة على الحجاج كانت قليلة في الخطابة العربية؛ ذلك أن العلاقة بين الأنداد أنفسهم كانت ميالة إلى حسم الأمور بطرق غير الإقناع"⁴.

وعليه فقد عرفت الثقافة العربية الإسلامية نوعين من الحجاج؛ " أما الأول فمداره التأثير العاطفي، وإثارة المشاعر والانفعالات، وكان سعيه إرضاء الجمهور واستمالتة، وأما الثاني فمداره مناقشة الآراء مناقشة نظرية مخصصة لغاية التأثير العقلي المجرد"⁵، ويدل هذا النوع الأخير على ظهور علم الكلام علما قائما بذاته، والذي يعد أخصّ المباحث النظرية التي مثلت طبيعة الممارسة العقلية المجردة عند المسلمين⁶، وهو "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة"⁷.

¹ حمادي صمود: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ، ص26.

² علي الإدريسي: في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام : الرسالة الجوابية على رسالة عبد الملك بن مروان أنموذجا، مقال ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه وضوابطه، تنسيق: حمو النقاري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1427هـ/2006م، ص 82.

³ طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص69.

⁴ محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م، ص54.

⁵ عبدالله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 18.

⁶ ينظر: طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2 ، 1997م، ص 73.

⁷ ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص467.

وقد برزت أهمية الحجاج خاصة في "البرهنة على الفرضيات الكلامية المتعلقة بكلام الله، وقضية خلق القرآن، والصفات، حيث بدأ مع البحث في هذه القضايا الاهتمام الفعلي بتوظيف الآليات اللغوية، والبلاغية، والسياقية المقامية من أجل ترجيح قضية ما على غيرها"¹.

ثم إن لإسهامات الفقهاء في اشتغالهم على النص القرآني دوراً كبيراً في رسوخ منهج المناظرات، والمساجلات الكلامية البعيدة عن البرهنة الصورية الصارمة²، وقد بقي مبحث الجدل والحجاج، أو المذهب الكلامي في كتب علوم القرآن، وحتى في الكتب الأصولية محافظاً على بعده المنطقي في مستوى المصطلح، وفي طريقة بناء الأقيسة واستخلاص النتائج³.

ولعل كل ذلك يؤكد أن الحجاج في الثقافة العربية الإسلامية تتجاذبه علوم كثيرة أثرت بحوثه، وأن الوعي به لم يكن وعياً بحضوره آلية فحسب، وإنما وعياً بمفهومه وأهميته وآلياته، ولئن كانت مجالاته في علم الكلام، وأصول الفقه، وعلوم القرآن، والفلسفة، وغيرها غزيرة؛ فإنها قد كانت في البلاغة العربية أبرز وأغزر. فالمتتبع للشأن البلاغي العربي يجد فيه عناصر المقاربة التداولية للخطاب الحجاجي، إضافة إلى الاهتمام بآليات الإقناع الخارج عن اللغة، وخصوصاً المتعلقة بالأمر النفسي والهيئات العضوية والحركات الجسمية وبعض الإشارات⁴، لأن مدار البلاغة كلها "استدراج الخصم إلى الإذعان، والتسليم، لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة، دون أن تكون مستجابة لبلوغ غرض المخاطب بها"⁵.

وهذا ما نقف عليه في نظرية البيان عند الجاحظ، الذي "انطلق من السياقات اللفظية، وغير اللفظية المكونة للخطاب اللغوي، والتي أساسها مراعاة أحوال المخاطبين، ليتسع ويضيق البيان عنده بحسب المقام، ولكنه في كل الحالات هو البلاغة، وهو الحجاج كذلك"⁶؛ "إنه كل شيء كشف لك قناع المعنى الخفي، حتى يتأدى الفهم، ويتقبله العقل فذلك هو البيان"⁷.

¹ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 261.

² ينظر: الحسن بعبو، استئناف القول في الطبيعة الحجاجية للمقال الفقهي على شرط أبي حامد الغزالي، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3، ص330.

³ ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 16.

⁴ ابتسام بن خراف: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، مرجع سابق، ص 52.

⁵ ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، د ط، د ت، ص4.

⁶ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 211.

⁷ الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1498هـ/1998م، ج1، ص 76.

وقد أشار الجاحظ إلى ثلاثة محاور تدور عليها الخطب وهي المحور الديني والسياسي والجدلي، والتي يغلب عليها طابع الحجاج الذي أكثر من ذكر مادته اللغوية بجميع اشتقاقاتها الصرفية، ومتعلقاتها الدلالية، في معرض حديثه عن الوظيفة الخطابية للكلام، أين تطرق إلى أهميته باعتبار البلاغة حجاجاً¹، وذلك عندما عرفها بأنها: "إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق"².

وفي كتابة "البيان والتبيين" نجده يعطي الأهمية للخطاب الإقناعي عندما تكلم عن البلاغة حيث يقول: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة؛ وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة"³، وهكذا فإن الجاحظ بقوله هذا يربط الحجاج بالإقناع.

ثم إن الصور البيانية مقدمة كبرى تؤدي في نهاية المطاف إلى "استنتاج باصطلاح المنطقة، أو إلى معنى المعنى باصطلاح عبد القاهر الجرجاني، أو إلى الدلالة العقلية باصطلاح السكاكي، مما يجعل البيان ضرباً من ضروب الاستدلال، قوامه البيئة وغايته الإقناع"⁴، ولا يخرج البديع عن هذه الغاية وإن مالت بنيته إلى الإيقاع الصوتي، والجرس الموسيقي؛ ذلك أنه أحد فروع البلاغة الهادفة إلى الاستمالة والإقناع.

وقد انتبه عبدالله صولة إلى وجود تعارض قائم في كتب البلاغة العربية، وذلك بين مفهوم البلاغة، وطريقة تناولها بالدرس لمختلف الوجوه البلاغية، " فكلما اقترب مفهوم البلاغة من مفهوم الحجاج خاصة فيما يتعلق بقانون الأنفع* في الخطاب (...) الذي يعد القانون الأسمى فيه، باعتباره أجدر القوانين (...) كلما ابتعد الجانب التطبيقي عن هذا المفهوم"⁵، فالبلاغة كما يعرفها أحد الأعلام القداماء وهو ابن عميرة في كتابه التنبيهات: "صناعة تفيد قوة الإقناع على ما يريده الإنسان، أو يراد منه بتمكين من إيقاع التصديق

¹ محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتدادها، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، د ط، 1999م، ص 195 .

² الجاحظ: البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 2003م، ج 1، ص 113.

³ المرجع نفسه، ص 74.

⁴ ابتسام بن خراف: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، مرجع سابق، ص 64.

* هذا المصطلح وضعه عبدالله صولة، وهو يترجم إلى سؤال من قبيل لماذا قال المتكلم ما قال ؟ ويستعين في تحصيل الجواب عن ذلك المقام أو الوضعية وهو قانون تخضع له عملية تاوليل الخطاب بصفة عامة. ينظر: عبدالله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (الحجاج)، مرجع سابق، ص 23.

⁵ عبدالله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (الحجاج)، مرجع سابق، ص 37.

به، وإذعان النفس له¹، تتساوى مع مفهوم الحجاج وهو " الآلية التي يستعمل المرسل فيها اللغة لإيصال معنى معين، وتتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع"²، غير أن "دراسة الآليات التي يتحقق بها كل من شواهد البيان والمعاني والبديع قيمته البلاغية باعتبار البلاغة تبليغ المعنى، وإيصال حجة المتكلم إلى السامع، فهذا ما لا نكاد نعثر عليه إلا عرضاً"³.

وخلاصة القول: أن الحجاج في تعريفات القدامى قد ارتبط بالجدل والإقناع والمناظرة؛ أين كان خطاب المناظرة في التراث العربي من أهم أنواع الخطابات التي يتوجه المرسل لاستعمالها ليكون الإقناع بذلك مطلبها الأساس على الرغم من تنوعها، أي إحداث التأثير بطريقة استدلالية دون قمع أو إكراه. كما أن التراث العربي الإسلامي على تنوع روافده، يشكل أرضية صلبة تقيم من جهة دليلاً قاطعاً على أن الخطاب الحجاجي العربي فيه من الثراء والشمول ما يجعله متفرداً ومتميزاً عن غيره من خطابات الثقافة الأجنبية، ومن جهة أخرى يؤسس للدرس الحجاجي العربي الذي يلتقي مع أصول النظرية الحجاجية المعاصرة في نقاط عدة.

2.2.2.2. حديثاً:

أسهم كثير من المفكرين العرب في بناء نظرة جديدة للدرس الحجاجي، وذلك عن طريق ترجمة النظريات الغربية الحجاجية وتطبيقاتها المبنوثة في الكتب النظرية الأولى التي أسست للحجاج في الغرب، وتجسدت جهود هؤلاء المفكرين والباحثين في إنجاز أعمال فردية، وأخرى جماعية؛ فأما العمل الفردي فمثلته العديد من الإنجازات أهمها: ترجمة محمد صالح ناجي الغامدي لكتاب "نظريات الحجاج" لفيليب بروتون وجيل جوتيه، في حين أن العمل الجماعي قاده جهود الكثير من الباحثين التونسيين: كحمادي صمود، وعبد الله صولة، وهشام الريفي...

وتضافرت هذه الجهود البعيدة عن الترجمة، والقريبة من العرض المفصل لهذه النظريات في السعي لربط الثقافة العربية بالثقافة الغربية، ولدينا كتاب غني بأفكار الباحثين أنفسهم بعنوان: "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم".

¹ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 246.

² عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 456.

³ عبدالله صولة: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (الحجاج)، مرجع سابق، ص 39.

وقد سارت جهود بعض الدارسين نحو استثمار البحث الغربي في الوقوف على حيوية تراثنا العربيّ، مثل: جهود محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الذي قدّمه في مقاله المطوّل: "مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة"¹، أضاف إلى ذلك كتاب عبدالله صولة "الحجاج في القرآن من خلال أهمخصائصه الأسلوبية"، الذي يدل على القدرة الواعية في تطويع النظرية الغربية بما يناسب ثقافتنا العربية عامة، والقرآن الكريم خاصة.

أطه عبد الرحمن:

ترقى بعض الدراسات الحجاجية في النظر للحجاج على أنه مظهر من المظاهر التي يتجلى فيها التداخل المعرفي²، وهذا ما نجده عند طه عبد الرحمن الذي عالج مسألة الحجاج بوصه آلية لغوية إقناعية ممن خلال كتابيه:

(1) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:

وفيه عقد بابا معنونا بـ"الخطاب والحجاج"، أكد فيه على أن "الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية، انطلاقاً من أنه لا خطاب بدون حجاج"³.

ويقول طه عبد الرحمن: "فقد جمعنا في هذا الكتاب أبحاثاً منطقية لسانية؛ إذ سعينا أن نجيء بها بشكل أو بآخر بما لانكون معه مقلدين، ولا ناقلين، ولا شارحين، بين اختراع لمفاهيم، وتوليد لمصطلحات، وبيان لفروق، وإنشاء لدعاوى، ووضوح لمبادئ، ووضع لقواعد، وترتيب لقوانين، وتدليل على مسائل، واستخلاص لنتائج، وتصحيح لآراء، وإيراد لشبه، وقس على ذلك نظائره"⁴.

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص453.

² محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص275.

³ طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص66.

⁴ طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص18.

وقد حدد النماذج التواصلية بناءً على أن كل تواصلٍ حجاجٍ، فنجدّه يقف على ثلاثة نماذج تواصلية للحجة، وهي:¹

- النموذج الوصلي للحجة: تكون فيه الوظيفة التواصلية للحجة وظيفة وصل.
- النموذج الإيصالي للحجة: وتكون فيه الوظيفة التواصلية للحجة وظيفة إيصال.
- النموذج الاتصالي للحجة: تكون فيه الوظيفة التواصلية للحجة وظيفة اتصال.

كما نجدّه قد خصص فصلاً كاملاً للحديث عن الاستعارة، وسماه "الاستعارة بين الحساب والحجاج"، باعتبارها من أهم الأساليب الإقناعية التي تدعم موقف الباحث.

(2) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام:

و فيه تحدّث عن الحجاج، وأورد له مفاهيم عدة منها: "الحجاج فعالية تداولية جدلية؛ فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي [...] وهو أيضاً جدلي لأن هدفه إقناعي، قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة"². كما يرى أنه "فعالية استدلالية خطابية، مبناه على عرض رأي أو الاعتراض عليه، ومرماها إقناع الغير بصواب الرأي المعروف، أو ببطلان الرأي المعارض عليه، استناداً إلى موضوعات البحث عن الحقيقة الفلسفية"³.

ويتضح من هذين التعريفين أن طه عبد الرحمن قد تحدث عن الحجاج بوصفه فعالية، تارة تكون تداولية جدلية، وتارة تكون استدلالية خطابية.

وأهم ما تميزت به أعمال طه عبد الرحمن قيامها على الدرس الحجاجي العربي بما يوافق مستجدات النظرية الغربية الحديثة، وبحثها عن رابط منطقي لغوي في سلك نظرية تأخذه بقوة المنطق، وسلاسة اللغة⁴.

¹ ينظر: طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص 256/255.

² طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص 65.

³ المرجع نفسه، ص 66.

⁴ ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 451.

وبهذا نتأكد أنه الاسم اللامع في مجال التداوليات والحجاج؛ فقد استطاع من خلال جهوده أن يحدد مفهومه لطبيعة الحجاج وتقنياته.

ب- صلاح فضل:

إن المنتبغ لحركة البحث في البلاغة المعاصرة عند المصريين، سيجد أن كتاب "بلاغة الخطاب وعلم النص" لصلاح فضل من بواكير المصنفات في حقل الدراسات النقدية المعاصرة، التي تهتمّ "ببلاغة الحجاج لبييرلمان، وهكذا فإن جهوده عملت على ربط الحجاج بالدرس النقدي، والتي تجاوزت المقولات الحجاجية إلى ربط بلاغة الخطاب بعلم النص من جهة، وإمدادها بالعديد من الآليات التحليلية المستمدة من فكرة التداخل المعرفي من جهة أخرى"¹، وذلك من أجل "توسيع البلاغة المعاصرة لتشمل -إلى جانب الأصول القديمة- قضايا علم الذكاء الاصطناعي، وعلمي النفس والاجتماع المعرفيين"².

وقد كان صلاح فضل في كتابه هذا يهدف إلى تبيان أوجه الإقناع في بعض الخطب العربية القديمة، وخاصة في العصر الإسلامي، وهو الشيء الذي دفعه للاهتمام بالحجاج، من خلال إعادة قراءة التراث البلاغي في ضوء المقولات النقدية المعاصرة، "... والتي غلب عليها الاهتمام بإعادة بعث التراث العربي القديم، بدءاً من الجاحظ، ووصولاً إلى السكاكي، والقزويني، والسيوطي، فقد اهتمت بالتاريخ الذي قطعته البلاغة من عصر التدوين حتى عصور التقعيد الرسمي، والقولبة النظرية"³.

وبهذا فإن صلاح فضل -بأعماله تلك- قد انتبه إلى الحجاج في المدرسة المصرية، التي تعدّ أهم المدارس العربية من حيث الأسبقية التاريخية، باعتبارها رائدة النزعة الإحيائية.

ج- محمد العمري:

تتبع محمد العمري مسيرة البلاغة العربية في اهتمامها بالحجاج من جهة، وعلاقته بالنصوص الأرسطية من جهة أخرى، وذلك في تركيزه على الأبعاد التداولية في البلاغة العربية القديمة، وعلاقتها بمختلف العلوم الأخرى.

¹ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 286.

² ابتسام بن خراف : الخطاب الحجاجي في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 286.

³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 243.

فمن جهة الحجاج، يرى أن الحاجة إليه، والاهتمام به، قد برز بشكل جلي في فترة الاهتمامات الكلامية، عندما "أصبح التسلح بالوسائل الحجاجية البلاغية اللغوية أمرا ضروريا للدفاع ضد مزاعم المتناولين للمتشابه من القرآن الكريم"¹، وقد برزت أهمية الحجاج "في البرهنة على الفرضيات الكلامية المتعلقة بالقرآن الكريم، بتوظيف الآليات اللغوية، والبلاغية، والسياقية، بغية ترجيح قضية ما"².

وهكذا مثلت "دراسات وترجمات محمد العمري مشروعا علميا جريئا، يفتح آفاقا جديدة للدراسات البلاغية والنقدية، تكشف عما يتميز به صحابه من تشبع بالتراث، وتحكم في النظريات الغربية"³، إذ حاول صياغة أوجه الإقناع صياغة منطقية في الخطابة العربية، وفقا لما جاء به أفلاطون وأرسطو، وهنا تكمن جهة اهتمامه بالبلاغة العربية في شق علاقتها بالنصوص الأرسطية.

د- أبو بكر العزاوي:

يرتبط الدرس الحجاجي المعاصر ارتباطا وثيقا باللغوي أبي بكر العزاوي؛ إذ يعدّ بمصنفاته ومقالاته من أصحاب المشاريع الجديدة للدراسات الحجاجية، لا سيما في كتابيه:

- (1) **اللغة والحجاج**: والذي حاول فيه تحديد كومة المفاهيم والروابط الأساسية لنظرية الحجاج، وأبرز بعض المظاهر الحجاجية للاستعارة، من مثل السلم الحجاجي، والإبطال، والقوة الحجاجية.
- (2) **الخطاب والحجاج**: انتقل فيه من حجاجيات الأقوال والجمال، إلى حجاجيات الخطاب، لما كان المجال الرحب للحجاج، ويوصفه المجال الأساسي الذي تظهر وجوه استعماله، وتتجلى بشكل أكبر من طرائق اشتغاله⁴.

وقد أعلن العزاوي عن غايته المنشودة من هذا الكتاب بقوله: "السعي إلى تطوير النظرية الحجاجية، وتوسيع مجال تطبيقها، ليشمل مختلف النصوص الدينية، والأدبية، والسياسية، والتاريخية، والصحفية، والإشهارية"⁵.

¹ إيمان درنوني: الحجاج في النص القرآني سورة الأنبياء أنموذجا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2013/2012م، ص17.

² المرجع نفسه، ص17.

³ ابتسام بن خراف: الخطاب الحجاجي في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص178.

⁴ ينظر: أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص35.

⁵ المرجع نفسه، ص17.

كما استطاع تبيان نظرية الحجاج في "أربعة نماذج من الخطابات هي: الخطاب القرآني، الخطاب الشعري، الخطاب المثلي، الخطاب الإشهاري، والتي شكلت فصول الكتاب، والانطلاق من مُسَلِّمة مفادها أن كل الخطابات التي تتجز بوسطة اللغة الطبيعية حجاجية"¹.

وتجدر الإشارة إلى أن اللغوي المغربي العزاوي المتأثر بمدرسة ديكرود-المشرف على رسالته في الدكتوراه- قد "عمل على تطبيق نظرية الحجاج في اللغة على ظواهر جديدة لم يدرسها لا ديكرود، ولا تلاميذه، ونقصد بذلك ظاهرة الاستعارة، وما أسماه بالحجاجية الأيقونية"².

هـ-حمادي صمود:

أسهم هذا الدارس العربي المعاصر بشكل كبير في بناء الدرس الحجاجي بالنسبة للمدرسة التونسية، وذلك من خلال كتابه: "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" المؤلف عام 1998م، والذي جمع فيه عددا من "النظريات الغربية على التوالي: الحجاج عند أرسطو، الحجاج أطره ومنطلقاته، وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة - لبييرلمان وتنتيكا، ونظرية الحجاج في اللغة لوصف أعمال ديكرود، ونظرية المسألة عند ميشال مايير، والأساليب المغالطة في الحجاج"³. وقد اعتبر بلاغة الحجاج أدق مواضيع الدرس البلاغي؛ إذ أنها تقوم على استعمال جميع العناصر المحاور المساعدة في فهم الخطاب، وتوصيله، وكذا وضع حجج المتكلم كل في مكانها الذي يمنحها الفاعلية.

ومن خلال هذا يمكن القول أن الدرس العربي قد عرف محاولات عدة للتطوير، وإعادة صياغة، وتصنيف المواد الحجاجية البلاغية، ولكن مع دخول البحث اللساني الحديث عرف هذا الدرس تطورا جديداً من خلال الاستعانة بالمفاهيم التداولية الحديثة، وعليه فإن الجهود العربية المبذولة في الدرس الحجاجي تدور في جملة من النقاط أهمها:

- أن الجهود الحركية حوّرت الدرس الغربي بما يتماشى والنص العربي، وعملت على رصد تفاعله - بعيدا عن الترجمة- مع الدرس الحجاجي الغربي، وهذا دليل واضح على إيجابية هذه الجهود وحيويتها.

¹ أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص14.

² عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص354.

³ ينظر: حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مرجع سابق، ص4.

- أنّها تتوّعت بين التتبع للدرس الحجاجي العربي، وتجسيد النظرية الغربية على النصوص العربية على اختلافها قديمها، وحديثها، وبين الترجمة، والقراءات المتأنية والواعية في البحوث الغربية.
 - تقدّم جهود باحثي مصر ثم تونس والمغرب عن الباحثين الآخرين في باقي المغرب العربي، أما جهود طه عبد الرحمن فقد كانت متميزة عن غيرها من البحوث، لاستفادته من النظريات الغربية الحديثة، وتشكيل الخلفية النظرية التي يتم الارتكاز عليها في الدرس الحجاجي الأول.
 - تميّز الدرس الحجاجي العربي بإنتاجين ضخمين: الأول في أجزاء خمسة وهو: "الحجاج مفهومه ومجالاته" من إعداد حافظ إسماعيل علوي، والثاني: "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" بإشراف حمادي صمود.
- وكل هذه الأعمال والجهود تتمّ عن نظرية عربية متأصلة، ولكنها في الفروع تكاد تعادل النظريات الغربية أو تفوقها.

3.2. أنواع الحجاج:

يمكن تصنيف أنواع الحجاج إلى ثلاثة أنواع لا على سبيل الإحصاء، وإنما على سبيل الحصر، كونها الأكثر تناولا وتداولاً من حيث الدراسة؛ فقد ذكر طه عبد الرحمن هذه الأنواع في كتابه "اللسان والميزان أو الكوثر العقلي"، مبتدئاً بالحجاج التجريدي، ويقصد به "الإتيان بالدليل على دعوى عن طريق أهل البرهان، علماً أن البرهان: هو الاستدلال الذي يُعنى بترتيب صور العبارات بعضها على بعض، بصرف النظر على مضامينها واستعمالاتها"¹، مبيّناً أن "الحجة المجردة ليست إلاّ مظهرًا فقيرًا من مظاهر الاستدلال في الخطاب الطبيعي، وتتبنى أصلاً على اعتبار الصورة، وإلغاء المضمون والمقام"²، فإن كان الحجاج التجريدي هو الإتيان بالحجة مبنية على اعتبار الصورة والشكل، فإن هذا النوع من الحجاج هو توجيه هذه الحجة وإحداث نوع من التواصل. ما يسمى بالحجاج التوجيهي (وهو النوع الثاني) فيقصد به "إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، علماً أن التوجيه هو هنا فعل إيصال المستدل حجته إلى غيره"³، ويمثّل لهذا النوع من الحجاج بالأفعال اللغوية التي تقي فقط بالجزء الذي يخص المرسل من

¹ طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو الكوثر العقلي، مرجع سابق، ص 226.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ المرجع نفسه، ص 227.

الاستدلال؛ لأنه لا يفترض حجج المرسل إليه¹، وهي "تتبنى أصلاً على اعتبار فعل المخاطب، وإلغاء ردّ فعل المخاطب"².

بناءً على ما سبق يمكن القول أن الحجاج التوجيهي يركّز على فاعلية المرسل؛ لأنه يقوم بفعل توجيهه الحجة.

وما يمكن ملاحظته هو أن هذين النوعين - سالف الذكر - يكونان بين طرفين اثنين: المرسل والمرسل إليه، بينما يكون النوع الثالث للحجاج بين المرسل وذاته؛ إذ يكون بإقامة حوار حقيقي بينه وبين نفسه، معترضاً على دعاؤه، ومقيماً الحجة على نفسه، هذا ما يسمّى بالحجاج التقويمي، ويقصد به "إثبات دعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتاً ثانية، ينزلها منزلة المعترض على دعاؤه"³. والعلمية التي تكتنف هذا الصنف من الحجاج هي "ما يسمّيه إيميرن وجرو تندورست" بالحوار الضمني، وغرضه هو درء الشك المتوقع من المرسل إليه⁴.

وعليه يمكن القول أن هذه الأنواع الثلاثة في هذا الطرح قد وردت بالتدرج، بدءاً بالحجة التجريدية التي تركز على الصورة والشكل، انتقالاً إلى الحجة التوجيهية التي تضيف إلى هذه الصورة المعنى، والمضمون، ما يجعلها تحقق وظيفتها التواصلية، أي تحقيق القصد من الحجاج إلا أن هذا النوع من الحجاج يتوقف على المرسل، ويلغي دور المتلقي، مما يستدعي حجة التقويم التي تضع المرسل إليه في الحساب، عن طريق الحوار الذاتي القائم بين المرسل ونفسه، بغرض درء الشك المتوقع من المرسل إليه.

4.2. ضوابط الحجاج:

يتميز الخطاب الحجاجي بجملة من الضوابط نذكر منها⁵:

- أن يكون الحجاج ضمن إطار الثوابت، مثل الثوابت الدينية، والعرفية، فليس كل شيء قابلاً للحجاج.
- أن تكون دلالة الألفاظ محدّدة، والمرجع الذي يحيل إليه محدداً، بيد أن تفاوت التأويل يكسب الخطاب ثراءً وغنى، لادقة ونهاية.

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 473.

² طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص 228.

³ المرجع نفسه، ص 228.

⁴ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 474.

⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص 466/465.

- ألا يقع المرسل في التناقض في قوله أو فعله، ويجب أن يكون الحجاج موافقا لما يقبله العقل، وإلا بدا زيف الخطاب ووهن الحجة.
- أن يكون الحجاج جامعا مشتركا بين المتحاجين؛ لكي يحصل توافق بينهما في إمكانية قبول الحجج أو رفضها.
- ضرورة خلو الحجاج من الإبهام والمغالطة والابتعاد عنها.
- امتلاك المرسل لثقافة واسعة؛ فيقدر ما يملك من ثقافة بقدر ما يملك من حجج.

5.2. خصائص الحجاج:

- وتتمثل - حسب ما جمعها " بانوات رونو" Benoit Renaud¹ - في النقاط الآتية:
 - ✓ القصد المعلن: إحداث أثر ما في المتلقي أي إقناعه بفكرة معينة، وهو ما يُعبّر عنه بالطريقة الإيحائية.
 - ✓ التناغم: يوظّف التسلسل الذي يحكم ما يحدثه الكلام من تأثيرات سواء أتعلق الأمر بالفتنة أو الانفعال، ومدرك لنفسية المتلقي وقدراته.
 - ✓ الاستدلال: وهو سياقُه العقلي أي تطوّره المنطقي، فالنص الحجاجي قائم على البرهنة. و إذا أعدنا الحجاج إلى أبسط صورهِ وجدناه مرتبا للعناصر اللغوية ترتيبا منطقيًا عقليًا، يستجيب فيه المتلقي لنية الإقناع.
 - ✓ البرهنة: تتمثل في ذلك الأسلوب الذي ينتهي بالمتلقي إلى الاقتناع من خلال ما يتضمنه من حجج إقناعية، أو هي "الطريقة التي إليها ترد الأمثلة والحجج وكل تقنيات الإقناع مرورًا بأبلغ إحصاء وأوضح استدلال وصولًا إلى ألطف فكرة وأنفذها، ويعبر به عما يريد بأداة واضحة وفي صلب الموضوع"²
 - ✓ الحوار أو التحوارية: فمن مستلزمات الخطاب الحجاجي نذكر الحوار الذي يدور بين الأقطاب المتحاورة {المخاطب، المخاطب}، وفي هذا الصدد يقول طه عبد الرحمن: لا كلام مفيد إلاّ بين اثنين؛ لكل منهما مقامان هما: مقام المتكلم ومقتم المستمع ...³، بمعنى أنه حوار قائم بين مؤسس الخطاب ومتلقيه، لأنّ "المحاور يتوجه إلى غيره مطلعًا إياه على ما يعتقد وما يعرف، ومطالبًا إياه بمشاركته اعتقاداته ومعارفه،

¹ ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، مرجع سابق، ص 455.

² سامية دريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص 27.

³ طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص 99.

وفي هذا الإطلاع وهذه المطالبة يكمن البعد الاجتماعي للحوارية¹؛ أي أنه يستلزم في الحوار مراعاة مستوى المتلقي، حيث أن العلاقة بين المرسل والمتلقي تتخذ أشكالاً عديدة يكشفها الخطاب الحجاجي، الذي يراهن أحياناً كثيرة على إقناع أكبر عدد ممكن من المتلقين بما جاء فيه، بل قد يطمع أحياناً إلى إقناع ما يسمى بـ "المتلقي الكوني"².

✓ التخطيط: يبرز من خلال الإعداد المسبق لكيفية بناء وتركيب الخطاب الحجاجي مراعيًا ضوابط محددة، فعندما نحتح لموضوع ما أو لأطروحة معينة، يعني أننا نرسم عن طريق الخطاب كونا مصغرا يحتل النموذج الأمثل لوضعية ما، لكن دون أن يعكس مقتضيات البناء العلمي مع الاعتماد أساساً على بعد حوارى³، أي لا بد من التزام سلمية معينة في عرض القضية المطروحة والعناصر المكونة لها في الخطاب الحجاجي، ويتضح ذلك بشكل جلي في الخطاب الإشهاري الذي يهدف إلى استمالة الزبون بغرض إقناعه بالعرض المقدم⁴، وهنا تبرز المهارة اللغوية للتأثير في المتلقي.

✓ الإنتقاء أو الإنتقائية: ونقصد هنا انتقاء لعناصر وتراكيب الخطاب التي يكون بها المخاطب خطابه، والتي تمتاز " بشكل دقيق وموجه يساير فيه تلك العناصر المنتقاة غاية الخطاب من جهة، وتلائم وضع المتلقي وقدراته، وتستجيب خاصة لآفاق انتظاره من جهة أخرى"⁵، ولهذا على المحاجج أن يدقق في وضع التراكيب اللغوية والألفاظ المعبرة للوصول بالمتلقي إلى الفهم والتأويل الصحيح.

✓ الغائية: يعتبر الخطاب الحجاجي خطاباً غائياً، وهو ما توصل إليه "فينو جورج" "vineau jorge" من خلال كتابه " الحجاج محاولة في منطق الخطاب 1967م"، غير أنه ينفي أن يكون كل خطاب غائياً حجاجياً بالضرورة؛ لأن هناك خطابات ذات غاية شخصية خاصة كالشعر، المذكرات، السير الذاتية... أما على مستوى الخطابات الحجاجية فالأمر يختلف لأنها تسعى إلى الإقناع لا السرد أو الإبلاغ فقط، فمن

¹ طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص 37.

² ينظر: سامية دريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيتة وأساليبه)، مرجع سابق، ص 28.

³ المرجع نفسه، ص 30.

⁴ محمد عرابي: البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، جامعة وهران، 2008/2009م، ص 19/18.

⁵ ينظر: سامية دريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيتة وأساليبه)، مرجع سابق، ص 31.

الأهداف التي يرمي المرسل إلى تحقيقها من خلال خطابه إقناع الرسل إليه بما يراه؛ أي إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي¹، لذا فهدف الحجاج إقناعي تعديلي أو تغييرى لفكرة معينة. وهذه جلّ السمات والخصائص التي رصدت حدود الخطاب الحجاجي وميّزته عن غيره من الخطابات الأخرى.

¹ ينظر: سامية دريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص37.

نختم من خلال ما تقدّم بإثبات مقولة طه عبد الرحمن " لا خطاب بغير حجاج"، حيث يختصّ هذا الأخير بالخطابات الطبيعية التي تتسم بالخصوبة والالتباس والتداول والتفاعل الإجتماعي، وبسبب غناها النحوي والمعجمي والدلالي كانت الأداة المفضلة للتواصل البشري الطبيعي والعادي بكل ما يشملها هذا التواصل من أهداف ووظائف تعبيرية؛ أين يغطي فيها الحجاج كل مجال الخطاب الذي يهدف إلى الإفهام والإقناع مهما كان المتلقي ومهما كانت الطريقة المتبعة وطبيعة الموضوع الذي يدور حوله النقاش، حيث يصدر المخاطب خطابه بغية إحداث الإقناع الفكري الخالص عند المتلقي، وينتهج في ذلك أساليب حجاجية يسطرّها من أجل الإعداد لقبول أطروحة ما، وبالتالي يرمي إلى دفع المتلقي إلى الفعل ولا يتأتى له ذلك إلا بالحجاج، للتبلور العلاقة التلازمية بين الخطاب والحجاج في إطار تفاعلي تبادلي، التي شكّلت الخطاب الحجاجي الذي تفرّد بسمات ميّزته عن أقرانه من الخطابات الأخرى؛ لأنّ غايته الأسمى هي إقناع المخاطب بالخطاب المقدّم. فكان بذلك خطاب إقناعي موجّه للتأثير في المخاطب، بالاعتماد على الاستراتيجية اللغوية القائمة على الربط المنطقي والدلالي بين أجزائه المكوّنة له من جهة، والآليات الحجاجية من جهة أخرى.

الفصل الثاني:

الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

1. الآليات الوصلية
2. الآليات الانفصالية

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

تمهيد:

تكتسي تقنيات الحجاج أهمية بالغة في الدرس اللساني التداولي باعتبارها الآليات والمفاهيم المكونة للبنية الحجاجية، ولكي تحقق هذه التقنيات هدفها التواصلي لابد من ترتيبها ترتيباً منطقياً يؤهلها للمقبولية من طرف العقل والتدرج في تسلسل الحجج.

حيث تشكل هذه الآليات أساس بناء الخطاب الحجاجي، الذي يعدّ استراتيجية تتشكل عن طريق تفاعل مكوناته الداخلية (استدلال، آليات، مفاهيم ...) والخارجية (وقائع، تجربة، أسباب، مسببات ...)، وهذه العناصر ضرورية لكنها غير كافية لفهم وتحليل القول الحجاجي، ذلك لأنّ الحجاج طرح إشكالات أخرى ترتبط بطبيعة أشكاله وأنواع حججه وطرق توظيفها، فكل خطاب حجاجي يبني أساساً على مجموعة من الحجج.¹

ولقد حاول عبد السلام عشير أن يطرح هذه الإشكالات من خلال مجموعة من الأسئلة ترتبط بطبيعة المجموعة الحجاجية للقضايا الأساسية وتتمثل هذه الإشكالات في :

- ما هي طبيعة الميكانيزمات والقواعد التي تجعلنا نحكم على صحة الحجاج وطبيعة أشكاله ؟ هل يتعلّق الأمر فقط بتطبيق صارم للاستدلال الصوري المنطقي ؟ أم يتعلّق الأمر بمراعاة قواعد خارجية للدفاع عن الرأي أو الحكم على صحة الحجاج وطبيعة أشكاله أو الانتصار لفكرة ما ؟ فما هي إذن هذه القواعد ؟ وما هي أنواع الحجج التي يوظّفها الحجاج في ضوء النظرية الجديدة ؟.

من خلال هذا الطرح لإشكاليات الحجاج، حاولنا أن نقف على أهمّ التقنيات الحجاجية في النظرية الجديدة - والتي جاءت مع بيرلمان -، ذلك أنّ الخوض في أيّ خطاب حجاجي (يعني بالضرورة الإقناع أو الحمل على الإذعان).

وقد أفضى البحث في جزئياته إلى استخلاص :

- مفهوم الحجاج عند بيرلمان.

- البنى الحجاجية الثلاث :

❖ حجج شبه منطقية Arguments Quasi-logique.

❖ حجج تأسس على بنية الواقع Arguments Fondes sur la structure réel.

¹ ينظر : محمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، مرجع سابق، ص 26-27.

❖ حجج تؤسس لبنية الواقع Arguments Fondant la structure du réel.¹

لقد أعاد بيرلمان صياغة مفاهيم البلاغة القديمة برؤية جديدة، مقدما بذلك ما يسمى بـ "البلاغة الجديدة" التي تركز بدورها على دراسة التقنيات الخطابية التي تؤدي إلى التسليم فيما يعرض عليها من أطروحات وتصورات وقضايا، وتتمثل في جملة من البنى الذهنية الاستدلالية والمكونات الحجاجية، والعناصر الإثباتية المرتبة بطريقة محددة، والمحكمة بعلاقات ربط وفصل معينة، حيث تكمن وظيفة هذه التقنيات في "الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيئه للقيام بالعمل"²، لتكون قوة وغاية الحجاج التي تقوم على بناء الحقائق لدى المتلقي وترسيخها في ذهنه، ومن ثمة تجسيدها في سلوكه، وبهذا فإن آلياته ترمي إلى تحقيق نتائج عملية قابلة للقياس، أي أن تقييم الحجاج يتوقف على المستهلكين " فيعتبر الحجاج جيدا أو صحيحا إذا نجح في التأثير على المتلقين"³، بمعنى أن لهذه التقنيات ثلاث وظائف تتمثل في: " الإقناع الفكري، العقلي الخالص، الإعداد لقبول أطروحة ما، الدفع إلى الفعل"⁴.

ويفرّق بيرلمان بين نوعين من الحجاج: نوع يسمّيه الاحتجاج الإقناعي (l'argumentation convaincante) والذي يهدف إلى " أن يسلم به كل ذي عقل فهو عام"⁵ ويوجّه - على حد تعبير محمد العمري - إلى المتلقي أو المستمع الكوني (l'auditoire universel)، وعلى هذا المبدأ اعتبره بيرلمان " أساس الإذعان وأساس الحجاج"⁶، أما النوع الثاني فيسمّى بالحجاج الإقناعي (l'argumentation persuasive) وهو حجاج خاص وذاتي، كونه يتوجه إلى نوع خاص من المتلقين (l'auditoire particulier) لأن مجاله ضيق فهو لا يُعتدّ به في الحجاج⁷.

¹ ينظر: محمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، مرجع ساب، ص 27-28.

² سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنينته وأساليبه)، مرجع سابق، ص 21.

³ فرانزفان إيموان، روب غروتندورست: نظرية نسقية في الحجاج - المقاربة الذريعية الجدلية-، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2016م، ص 66.

⁴ عبد الجليل العشراوي: الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إربد، لبنان، ط1، 2012م، ص 30.

⁵ عبد الله صولة: في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 15.

⁶ المرجع نفسه، ص 15.

⁷ ينظر: المرجع نفسه، ص 15-16.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وبهذا اختار بيرلمان تصنيف المتلقي إلى نوعين: متلقي عام ومتلقي خاص، ويرجع ذلك إلى صعوبة التفريق بين ما هو عقلي موضوعي، وما هو وجداني ذاتي في طبيعة المتلقي، ومن هنا فإن الفرق بين الإقناع والاقتران يتجلى في كون الأول يرتبط بما هو ذاتي، في حين أنّ الثاني يرتبط بما هو عقلي، وهذا الاختلاف -حسب بيرلمان- يتمحور حول "أن المرء في حالة الاقتران يكون قد أفتع نفسه بأفكاره الخاصة، أما في حالة الإقناع فإن الغير هم الذين يقنعونه دائماً"¹.

وبما أن مجال الحجاج القائم على توسيع المجال لذهن المتلقي يتناسب مع حرية اختياره في خضوعه لما يعرض عليه من أطروحات ومسائل، نجد أن بيرلمان قد ارتكز على الاقتران في بلاغته الجديدة، وجعله بعيداً عن الاعتباطية والتسليم الاضطراري العنيف والملزم، لأن "الحجاج غير الملزم" non contraignant " وغير الاعتباطي هو وحده القمين بأن يحقق الحرية الإنسانية من حيث هي ممارسة لاختيار عاقل"².

من خلال ما تقدّم نجد أن بيرلمان قد جاء بما يسمّى بـ "المدرسة البلاغية البرهانية" التي شكّلت المرحلة الأخيرة أو المنظور البلاغي في كل الثورة اللسانية الحديثة³، أين تميّز عنده الحجاج "بخمسة ملامح رئيسية:

- 1- أن يعبر عنه بلغة طبيعية.
- 2- أن يتوجّه إلى المستمع.
- 3- مسلّماته لا تعدو أن تكون احتمالية.
- 4- لا يفتقر تناميّه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.
- 5- نتائجه ليست ملزمة"⁴.

¹ كمال الزماني: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، مرجع سابق، ص118.

² ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص16.

³ صابر الحباشة: لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2010م، ص57.

⁴ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، ع2، مارس، 2000، ص61.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وبالتالي، فالحجاج عبارة عن تصوّر معيّن لقراءة الواقع اعتماداً على بعض المعطيات الخاصة بكل من المحاجج والمقام الذي يُنجم هذا الخطاب. وهو عند بيرلمان " جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفية هي حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الإقناع"¹. وعليه " فبيرلمان " يركّز على المتلقي ومدى تأثره من جراء هذه الحجج.

و بعد التطرّق إلى مفهوم الحجاج ووظيفته المتمثلة في تحقيق اقتناع المتلقي قولاً وعملاً فيما يعرض عليه من أطروحات، أكّد بيرلمان على أهمّ ركائز الدرس الحجاجي في البلاغة الجديدة والمساهمة في نجاح العملية الحجاجية، والتي أسماها ب "التقنيات الحجاجية " فقد عرف الحجاج - كما رأينا - بأنه دراسة تقنيات الخطاب التي تعمل على تحقيق إذعان المتلقي أو الزيادة في درجة إذعانه وهذه التقنيات أو الآليات الإقناعية هي مجموع الحجج المختلفة التي يقوم عليها الحجاج في أي خطاب كان. وقد جعلها الفيلسوف البلجيكي شايبم بيرلمان قائمة على ثنائيتين:

الأولى "تمثل الحجج القائمة على الوصل (liaison)، وهي التي تمكّن من نقل القبول الحاصل حول المقدمات إلى النتائج، والثانية تمثل الحجج القائمة على الفصل (sissociption)، و هي التي تسعى إلى الفصل بين عناصر ربطت اللغة أو إحدى التقاليد المعترف بها بينها"².

1. الآليات الوصلية (procèdes de liaison):

وتشمل كل الحجج التي اهتمت بها البلاغة القديمة، وهي ثلاثة أنماط :

1.1 الحجج شبه المنطقية (les arguments quasi-logique):

والتي "تستمد قوتها الإقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية (formelle)، و المنطقية والرياضية في البرهنة، لكنها هي تشبهها فحسب وليست هي إياها إذ فيها ما يثير الاعتراض"³.

فهي " تختلف عنها في كونها غير ملزمة، من حيث أن الاستدلال المنطقي الصوري ملزم قطعياً، وذلك أنها تنتج من عملية تبسيط غير ممكنة إلا في ظروف محددة، داخل نظام معزول ومحدّد"⁴، وبالتالي

¹ بيرلمان وبتيكا : مصنف في الحجاج (الخطابة الجديدة)، المطابع الجامعية، بليون، 1981م، ج1، ص13. نقلا عن : سامية دريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيتة وأساليبه)، مرجع سابق، ص21.

² الحسين بنو هاشم : نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2014م، ص57.

³ عبد الله صولة : في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص57.

⁴ فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص47.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

فهي لا تتساوى مع المنطق الرياضي والصوري، بل تقترب منه فقط، لأنها لو تساوت معه لأصبح الحجاج برهنة، وهذا يتناقض مع مفهومه وطبيعته الممكنة والاحتمالية، ومنه فهي قابلة للرد لكونها ليست منطقية، حيث أن هذه الحجج شبه المنطقية من خلال استنادها إلى بعض المبادئ المنطقية " كالتناقض والتماثل التام أو الجزئي، وقانون التعدية"¹ والتي تستند قوتها الإقناعية، وتنقسم إلى أنواع هي كالتالي :

1.1.1. الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية :

وهي بدورها أنواع :

1.1.1.1. التناقض و عدم الاتفاق (contradiction et incompatibilité) :

إن مصطلح التناقض (contradiction) يقصد به "أن تكون هناك قضيتان (deux propositions) في نطاق مشكلتين إحداها نفي للأخرى ونقض لها"²، وبهذا فإن التناقض يكون فيه عدم الاتفاق أو الاختلاف بين قضيتين، أو بين فكرة و نتائجها العملية. كقولنا: الجن موجود وغير موجود في الوقت نفسه، في هذا المثال جُمع بين الإثبات والنفي؛ أي أن هناك قضية تنقض قضية أخرى وتنفيها، وبالتالي يستحيل الجمع بينهما.

وقد يشمل التناقض اللغة الطبيعية؛ لأن " التناقض الصارخ من قبل أبيض/أسود نادر جداً في الحجاج، فالخطاب الحجاجي قلماً يلتجأ إلى الاستدلال بالخلف (par l'absurde)، ولكنه يحتفل احتفالاً واضحاً بعدم الاتفاق (Incompatibilité)، إذ يدفع الحجاج أطروحة ما مُبيناً أنها لا تتفق مع أخرى"³.

في حين أن عدم الاتفاق أو "التعارض - ترجمات مختلفة ل incompatibilité - بين ملفوظين يكون بإسقاط الملفوظين على الواقع و الظروف أو المقام لترجيح إحدى القضيتين، وإقصاء الأخرى التي هي خاطئة"⁴؛ أي أننا أمام قضيتين إحداها صحيحة والأخرى خاطئة، وبالتالي لا مجال للنقض هنا، و لذلك ترتبط التعارض بالمقام وظروفه في ترجيح قضية على حساب أخرى، أين يمكن تأويل الألفاظ بطرق متنوعة. في حين أن التناقض يرتبط بقضايا الحضور والغياب، والنفي والإثبات، ليكون بذلك مجال الحجاج هو التعارض، وليس التناقض المنطقي، الصارم والملزم الذي لا يتأثر بالظروف و المقام.

¹ عباس حشاني : خطاب الحجاج و التداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، مرجع سابق، ص85.

² عبد الله صولة: في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص42-43.

³ سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص192.

⁴ عبد الله صولة: الحجاج أطره ومطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج"، مرجع سابق، ص325.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وكمثال على عدم الاتفاق (التعارض) قوله تعالى: "أتأمرون الناس بالبر و تتسبون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون" (سورة البقرة، الآية 44) و"يقول تعالى: كيف يليق بكم- يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير- أن تتسوا أنفسكم، فلا تأمروا بما تأمرون به الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، و تعلمون ما فيه من قصر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنتهبوا من رقدتكم، وتتصروا من عمايتكم"¹.

ونجد عدم الاتفاق جليا في كونهم يأمرون غيرهم بأعمال البر، في حين هم لا يعملون بما أمروا به غيرهم، فيقعون بذلك فيما أسماه بيرلمان بالسخرية والهزء (ridicule)، حيث نجده يقدم على ذلك مثالا "يتعلق بالشخص الذي يزعم أنه لم يسبق له أن قتل كائنا حياً، والذي يُتَبَيَّن له أنه بمعالجة جرح متقيح، سوف يضطر إلى قتل عدد هائل من الميكروبات"²، باعتبارها كائنات حية، ولهذا السبب اعتبر بيرلمان أن "السخرية أو الهزء من أهم الأسلحة الحجاجية"³ وعوامل نجاحه.

وقد يشمل التناقض اللغة الطبيعية؛ لأن "التناقض الصارخ من قبيل أبيض/أسود نادر جدا في الحجاج، فالخطاب الحجاجي قلما يلتجأ إلى الاستدلال بالخلف par l absurde ، ولكنه يحتفل احتفالا واضحا بعدم الاتفاق Incompatibilite ، إذ يدفع الحجاج أطروحة ما مبيِّنا أنها لا تتفق مع أخرى"⁴.

وهو ما يمكن أن نعثر عليه في مدونتنا، إذ يقول ابن القيم : " وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك، والأمني شيء آخر، فكلُّ راجٍ خائفٌ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات "

فقد جمع هنا بين قيمتين متعارضتين (الخوف والرجاء) في قلب العبد، وهما عملا ن قلبيان متناقضان، ولكنه بيّن تناقضهما (تعارضهما) في الحقيقة وإمكانية الجمع بينهما، " إذا أراد المرء رفع تعارضٍ بدل أن يُؤجِّلَه، عليه أن يُضحّي بإحدى القاعدتين المتضاربتين، أو على الأقل معالجة التعارض، وذلك بالقيام بفصلٍ بين المفاهيم "⁵.

¹ ابن كثير : تفسير القرآن الكريم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، السعودية، ط2، 1999م، ج1، ص246.

² الحسين بنو هاشم : نظرية الحجاج عند بيرلمان، مرجع سابق، ص59.

³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة : الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص128

⁴ سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيتة وأساليبه)، مرجع سابق،

ص192.

⁵ الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، مرجع سابق، ص61.

فالمحاجج قد أتى بكلمتين يبدو أنهما في الظاهر متناقضين أو متعارضين، بمعنى أن :

(الخوف # الرجاء) ظاهرياً، إلا أنه يحاول - بطريقة معيّنة - تبيان عدم تعارض هذه العبارة " فكل راجٍ خائف "، وأن هذا التعارض هو تعارض صوري الظاهر فقط، ولكنه في الواقع لا يوجد تناقض (تعارض) وذلك بالتوفيق بين الكلمتين.

ومنه فإن هذه التقنية الحجاجية قد استعملت لغرض الإقناع بأن العبد ينبغي أن يكون راجياً خائفاً في نفس الوقت، على الرغم من أن الرجاء عكس أو نقيض الخوف، إذ يوضح ابن القيم عدم التناقض بين الأمرين (الرجاء والخوف)، وذلك بجعلهما أمرين متكاملين؛ فالعبد يخاف من الله ويرجو من عند الله لذلك ينبغي الجمع بينهما، لأن الله سبحانه وتعالى كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل.

وبهذا، فإن المثال السابق الذي أوتي به كحجة بالغة، لإذعان المتلقي على الإقناع والتسليم، يحمل في ذاته تناقضاً صريحاً بين ظاهره وباطنه.

2.1.1.1. التماثل والحد في الحجاج (l'identité dans l'argumentation) :

نجد مصطلح identité قد ترجم " بالهوية " وترجم أيضا " بالتماثل "، حيث يعدّ نوع من الحجج القائمة على البنى المنطقية، و" مداره على التعريف (définition) من حيث هو تعبير عن التماثل بين المعرّف (le définiens) والمعرّف (le définiendum)، وليس المعرّف تمام المعرّف على الحقيقة¹. بمعنى أننا عندما نعرف مفهوماً ما أو مصطلحاً معيناً أو حادثةً بحدّ أو تعريف مماثل، فإن كلا من المعرّف والمعرّف يكونان متماثلين ومتطابقين لفظاً بشكل يبدو ظاهرياً أنه منطقي، لكنهما في الحقيقة مختلفين، " لأن استخدام التعريفات في الحجاج يفترض احتمالية تعددها، والاختيار من بين هذه التعددية²، فقولنا : الرجل رجل. أو الأب يبقى دائماً أباً، هو من قبيل تحصيل الحاصل، فلا تجد فيه معنى المعرّف وهو رجل أو أباً هو نفسه معنى المعرّف وهو الرجل والأب. ولهذا قيل عن مثل هذه القضايا أن أحد لفظيها ورد على الحقيقة والآخر على المجاز³، وللتوضيح أكثر نسوق المثال الآتي: العمل هو العمل حيث أن هذه العبارة دورية من

¹ عبد الله صولة : في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص44.

² سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص200.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص203.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

حيث اللفظ والتكرار فيها لا يدل على المعنى ذاته، بمعنى أن كلمة العمل الأولى التي تعني القيمة المجردة تختلف عن الثانية التي تشمل كل عمل سواء أكان صالحاً أم سيئاً، وبالتالي فهي مجازية، ومع ذلك "فإن التماثل الظاهر يصعب دفعه"¹ وبالتالي فالحجة هي في تعريف العمل.

إن مبدأ التماثل يقتضي التعريف بالفكرة وضبط وجودها عن طريق الكلمات التي تتفق أو تتشابه لفظاً وتتوحد دلالة " كأن يقول أحدنا: " الدنيا هي الدنيا " مقدّماً بذلك تعريفاً يفتقر إلى الصرامة المنطقية وإلى وضوح طرفيه "²، فقد يتنوع مفهوم الدنيا بحسب تعدّد المتلقين، وقد نفهم الدنيا على أنها الحياة أو المرأة أو الغدر أو البؤس ...

وهناك من يسمّي الحدّ في الحجاج بالتماثل التام، وهو ما أشار إليه محمد سالم محمد الأمين الطلبة بقوله: "أما التماثل التام فمقداره على التعريف الذي يكون فيه المَعْرَف والمُعْرَفُ تماثلين لفظاً، الأمر الذي يجعلنا نعتبر اللفظ الثاني محمولاً على المجاز، وذلك حتى لا تكون العبارة الثانية حشوًا (pléonasmelle) أو تحصيل حاصل"³.

فمن هذا الكلام يُفهم بأن الباحث قادر على التفريق بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي للكلمات التحديدية التي قد تحمل معاني متعددة، وهو ما أكدّه محمد الولي بقوله: " إن بعض العبارات التحديدية توفر من حيث الصياغة عبارات دورية " المرأة هي المرأة " و " الدراهم هو الدراهم "، إلا أننا نلاحظ في مثل هذه العبارات أن التحقق الثاني يُحيل على معنى غير المعنى الأول"⁴.

ومن نماذج هذه البنية الحجاجية قول ابن القيم: "وحسن الظن هو الرجاء. فمن كان رجاءه حادياً له على الطاعة، زاجراً له عن المعصية فهو رجاء صحيح. ومن كانت بطالته رجاءً، ورجاؤه بطالةً وتفريطاً، فهو المغرور". فهو هنا بصدد الاحتجاج لمبحث مهم في كتابه وهو الفرق بين حسن الظن والغرور، وذلك في سياق بيان أنه لا يجوز للعبد الإسراف في المعاصي مع ادّعاء حسن الظن بالله، وفيه نجد أن تعريف (حدّ) حسن الظن هو الرجاء، وبناءً على التسليم بهذا الحدّ فإن حسن الظن لا يقود للإسراف في

¹ فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص48.

² سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص200.

³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 128.

⁴ محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مقال ضمن التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه وضوابطه، ص378.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

المعاصي، بل يحدو إلى العمل الصالح، كما قال تعالى : " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشركْ بعبادة ربه أحداً " (سورة الكهف، الآية 110).

وهكذا، فإن الرجاء هو حُسن الظن بالله تعالى وهو من لوازم التوحيد وواجباته، والله مع الذين يحسنون الظن به - سبحانه -، فهم يعتقدون في الله خيراً؛ أنه سيرحمهم، وأنه سوف يوفقهم، وييسر أمورهم، وأنه سيحقق لهم ما يصبون إليه في الدنيا والآخرة، ولهذا على المسلم أن يظن بالله خيراً حتى يتحقق له ما يريد، فهناك من يقول : " دعوت ربي فلم يستجب لي"، وهذا إساءة ظنّ بالله، ولم يعلموا حكمة الله - عزّ وجلّ -، وأنه لم يستجب لهم إلا لمصلحة عظيمة لا يعلمونها، وهذا هو الجوهر واللبّ المراد الإقناع به.

ومنه، فإن تعريف ابن القيم للرجاء هو حسن الظن، حيث استعمله بهذا المفهوم في جلّ كتابه، لا كما هو متداول عند الناس بأن حسن الظن بالله هو توقع كلّ جميل وحسن من الله تعالى رغم ارتكابه للمعاصي، فيقول أن الله غفور رحيم، ولكنه حاول التخلص من هذا الأمر، واستخلص أن الإقرار بحسن الظن هو الرجاء. ليفتح بذلك (المحاجج) باب التعريف لإقناع المتلقي واستعمال حجج أخرى للزيادة في التأثير والإذعان.

وبهذا أمكننا القول بأن المطابقة بين كلمة "الرجاء" وكلمة "حسن الظن" تشكل تقنية التماثل والحدّ في الحجاج، بحيث يكمن طابعها الحجاجي في التوجيه والتوضيح، لأنه يقصد إلى جعل عبارات أو كلمات محددة قابلة لأن يُعوّض بعضها البعض، وذلك بسوق المستمع نحو تصورات مطابقة لفكرة المُحاجج عنها، وبالتالي إبعاد كل التأويلات المخالفة وذلك بتقريب الصورة أكثر للمتلقي وحمله على الإذعان.

3.1.1.1 الحجج القائمة على العلاقات التبادلية (arguments de réciprocité) :

وهي التي تعتمد على البنى المنطقية التبادلية، وذلك حين نبادل بين قضيتين تبدوان متماثلتين متشابهتين ومن نفس النوع، ولكنه حقيقة تبادل عكسي انطلاقاً من قاعدة العدل بينهما (la règle de justice) التي تقول أن " الكائنات المنتمية إلى الفئة الأساسية ينبغي أن تعامل بالطريقة نفسها " ¹، فلا يقاس لإحدهما بمقياسين، ولذلك هي " حجج عكسية ودعوة إلى تطبيق قاعدة العدل على وضعيتين متناظرتين " ²، حيث يمثّل لهذه القاعدة بالمثل الذي تقدّمه تيتيكا عن ذلك المتشرد الذي يقول : " لا أفهم

¹ الحسين بنو هاشم : نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، مرجع سابق، ص 64.

² عبد الله صولة : في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص 46.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

كيف يمكن أن يعتبر التسول جريمة في مجتمع يرى الصدقة فضيلة!¹، وهذه الحجة شبه المنطقية تسمى بالعدل أو المساواة؛ إذ أن المتشرد لا يفهم كيف يمكن أن يكون التسول جنحة في مجتمع يجعل من الصدقة فضيلة، ويظهر ذلك في كون المجتمع ينظر للتسول على أنه جريمة وأن الصدقة فضيلة وهم من جنس واحد، إذن فمعاملته للتسول ستكون من جنس معاملته للصدقة، وهنا يتجلى التبادل العكسي على الرغم من تماثل القضيتين.

وهكذا فإن هذه الحجج تقوم على مبدأ العدالة بين الأفراد والقضايا التي يربطها رابط سببي، أي أن ما ينطبق على الأول ينطبق على الآخر، لأن >> الحجج القائمة على العلاقة التبادلية les arguments réciprocité تتمثل في محاولة الموازنة بين الحجج العكسية، ويمثل بيرلمان لهذا بمقولة تعتمد فكرة التناظر: " ضع نفسك مكاني " <<². فالعلاقة التبادلية قوامها التناظر والتسوية بين الطرفين، ويوضح ذلك " ليونال بلنجي"lionelbellonger" بقوله: " إن الحجاج عن طريق العلاقة التبادلية التي تقوم عليها حجج شبه منطقية عديدة يصبح ممكنا شرط تناسي كل ما يفرق بين الأوضاع وتعديلها لا بشكل تعدو معه متطابقة"³.

ومن نماذج هذه الحجج في كتاب الداء و الدواء قول ابن القيم: " كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرّد بالإلهية يحب أن يُفرد بالعبودية ".
يحتجّ ابن القيم هنا على المرائي بأعماله: كيف أنه يقَرّ بأن الله هو الإله المعبود، ثم يرائي بأعماله غير الله، فهنا قضيتان:

- الأولى: وتتمثل في: توحيد الله في العبادة.
- أما الثانية: فتتمثل في: الإقرار بوحداية الله فمن أقرّ بالأخيرة لزمه الإتيان بالأولى وعليه يبطل بهذا أصل الرياء.

فالحجة هنا تكمن في المرائي وهو العبد الذي يُرائي في أعماله، حيث يُقرّ في الجملة أن الله هو المعبود الخالق الرزاق الذي يُفرد وحده بالعبادة، ومع هذا فإنه يُرائي في بعض أعماله غير الله عزّ وجلّ. والحقيقة أنه أحد يستحقّ العبادة إلا الله، و هذا هو مفهوم لا إله إلا الله؛ أي لا معبود بحق إلا الله، فمادام أنه أقرّ بأن الله

¹ الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، مرجع سابق، ص 66.

² محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص 129.

³ المرجع نفسه، ص 201.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

هو الحق والمعبود، فيلزمه الإقرار بمعطى آخر، وهو صرف جميع أنواع العبادات لله عزّ وجلّ، وبهذا يبطل الرياء.

وبالتالي فابن القيم قد استعمل هنا مبدأ الإقرار بشيء لإلزامه الإقرار بشيء آخر، أي استخدم وأقرّ بوجود الله عزّ وجلّ وأنه هو الإله، وذلك لإلزامه بأن يصرف جميع أنواع العبادات لله وحده دون سواه، وذلك وفق العلاقة التبادلية التي أتت كحجّة داعمة في إبطال أصل الرياء. ومنه، فإن هذه الحجة قد ماثلت بين حالتين - سبق ذكرهما -، ببيان أنهما مترابطتان داخل العلاقة التبادلية، وذلك لحمل المتلقي على الإقناع والتسليم بالفكرة المطروحة.

4.1.1.1 حجج التعدية (l'arguments de transitivité) :

ترتكز هذه الحجج على علاقة منطقية صورية بين طرفين فأكثر، أين تعد التعدية خاصية شكلية "نجدها في أنواع من العلاقات التي تتيح لنا أن نمر من إثبات أن العلاقة الموجودة بين (أ) و(ب) من ناحية، وبين (ب) و(ج) من ناحية أخرى هي علاقة واحدة من الاستنتاج أن العلاقة هي نفسها بين (أ) و(ج). وأنواع العلاقات التي نجدها هي خاصية التعدية هي علاقات التساوي والتفوق والتضمن"¹؛ أي أنه إذا كانت هناك علاقة معينة سواء مساواة *égal*، أو تضمين *inclusion*، أو تفوق (كبير) *plus grand que*، بين (أ) و(ب)، والعلاقة نفسها موجودة بين (ب) و(ج)، فإنه وفق قانون التعدية توجد علاقة تعدية بين (أ) و(ج)، وهذه السمات الصورية للتعدية والاشتمال قابلة للنقل إلى حقل الحجج² واللغة الطبيعية لا الاصطناعية، ومن أمثلة ذلك وفق ما هو متداول في الواقع - قولنا: (صديق عدوي عدوي) هنا علاقة تعدية، وفي نفس الوقت تتضمن (*inclus dans*) علاقة أخرى - مفادها أن: (عدو صديقي عدوي)، وبالتاليفي حجة التعدية بالتضمنين.

غير أن هذه الحجج قد لا يقبلها المجتمع بل يكذبها ويردها لأنه ليس بالضرورة أن يكون صديق عدوي عدوي، فقد يكون قريبي مثلاً، ولا عدو صديقي عدوي، فقد يكون صديقي أيضاً.

و" يمكن أن نلخص هذه العلاقة في هذه الإمكانيات ":

$$(أ) = (ب) \text{ و } (ب) = (ج) \text{ إذن } (أ) = (ج)$$

$$(أ) \# (ب) \text{ و } (ب) \# (ج) \text{ إذن } (أ) \# (ج)$$

¹ عبد الله صولة : الحجج أطرها ومنطقاته وتقنياته من خلال " مصنف في الحجج "، مرجع سابق، ص 329.

² فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجج المعاصرة، مرجع سابق، ص 49.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

أو (أ) \in (ب) و (ب) \in (ج) إذن (أ) \in (ج)¹

فقولنا : كل إنسان فان (أ)
سقراط إنسان.
إن سقراط فان.

فـ (إنسان) (أ) له علاقة بـ (فان) (ب)، وسقراط له علاقة بـ (إنسان) (ب)، إذن (سقراط) (ج) له علاقة بـ (فان).

وهكذا، فإن التعديّة هنا مبنية على علاقة التضمن، و هذا ما نلمسه في باقي الأمثلة المذكورة سلفاً.

ومن أمثلة علاقة التّعدية أيضاً:

10 > 5
← إذن 15 > 5
15 > 10

نلاحظ هنا أن علاقة التّعدية مبنية على حجة التفوق أو الكبر.

وإذا قلنا :

1/2 = 0.5
← 3/6 = 0.5
1/2 = 3/6

فإنّ التّعدية في هذا المثال قد جاءت بحجّة المساواة.

¹ سراب الرحموني : الحجاج في بنية كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي، دار سحر للمعرفة، تونس دط، 2013م، ص25.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وهكذا فإن حجة التعديّة تعتمد على القاعدة الرياضيّة القائمة على أنه إذا كان $أ = ب$ و $ب = ج$ ، فإن $أ = ج$ ، وتكاد تقدم " أغلب الدراسات المتصلة بالحجاج نفس المثال لتوضيح ما يسمى بحجة التعديّة، أو القول بأن صديق صديقي، صديقي أو عدو صديقي عدوي"¹.

ونظير ذلك في مدوّنتنا قول ابن القيم : " ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإنّ المحبة والطاعة لا تتمّ إلاّ بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأمّا أن توالي أعداء الملك ثم تدّعي أنّك مؤالٍ له، فهذا محال "

يستعمل ابن القيم هنا علاقة التعديّة للاحتجاج على وجوب معاداة أعداء الله، إذ أن من يوالي أعداء الله كان عدوّاً لله، فأولياء العدو أعداء، كما أنّ أعداء العدو أولياء. وقد استخدم هذه التقنيّة الحجاجية في الإقرار بمبدأ الولاء و البراء في العقيدة؛ أي أن توالي أولياء الله وتعادي أعداء الله وهذا من خصائص الإيمان الكبرى، وهكذا تحب من يحب الله، وتعادي من يعاديه بمعنى أن :

• كلّ من كان عدوّ لله ← عدو لي شخصياً

• وكل من كان وليّ لله ← ولي لي شخصياً

ويمكن توضيح هذه الحجة بالمعادلة الآتية :

عدوّ الله ← عدوّي

أولياء عدو الله ← أعدائي

أو:

وليّ الله ← وليّي

أعداء عدو الله ← أوليائي

2.1.1. الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى الرياضية :

ويتأسس هذا القسم من الحجج شبه المنطقية على مبادئ وقواعد رياضية تعتمد على الاستدلال والاستنتاج للوصول إلى النتائج المقصودة؛ أي تعتمد على البنى الرياضية في تأسيس علاقاتها الداخلية وتلاؤمها، وهو ما يدعم قوتها الحجاجيّة بغرض الإقناع وعددها ثلاث وهي : حجة إدماج الجزء في الكل، وحجة تقسيم الكل إلى أجزاء، وحجة المقارنة.

¹ سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنينته وأساليبه)، مرجع سابق، ص205.

1.2.1.1. إدماج الجزء في الكل :

يطلق على هذا النوع "حجة الاشتمال" (inclusion) والتي تقوم في جوهرها على مبدأ رياضي مفاده "أن ما ينسحب على الكل ينسحب على الجزء من هذا الكل"¹، أي أن ما ينطبق على الكل فهو بالضرورة ينطبق على الجزء، لأنه في حقيقته "رؤية كمية، فالكل يتضمن الجزء، ومن ثمة فهو أهم بكثير من الجزء، ولذلك أيضا تعد قيمة الجزء مناسبة لما تمثله بالنسبة إلى الكل"²، لهذا فإن هذا النوع من الحجج يتأسس على قاعدة رياضية، تستند إليها الحجة في إثباتها من الناحية الكمية، وهي أن الكل يشتمل الجزء ويتضمنه، وأن الجزء مهما كان حجمه فهو داخل في الكل، من وجهة نظر كمية.

ومثال ذلك القاعدة الفقهية المعتمدة في تحريم الخمر "ما أسكر كثيره فقليله حرام"³، فالحكم العام مختص بالكل الذي ينسحب بعدها على الأجزاء المكونة له، وهذا الحكم كان بتحريم الخمر انطلاقا من الإكثار منه، ليستنتج تحريمه أيضا وإن قلّ شربه.

وبالتالي فإن هذه الحجة تقوم في "جوهرها على رؤية كمية، فالكل يتضمن الجزء، ومن ثمة فهو أهم بكثير من الجزء، ولذلك أيضا تعدد قيمة الجزء مناسبة لما تمثله بالنسبة إلى الكل"⁴، وهذا ما جعل العلاقة بين الكل والجزء تتأسس على رابط سببي يحكمها.

ويتجلى هذا النوع من الحجج في كتاب الداء و الدواء لابن قيم الجوزية، من خلال قوله : "... وإذا عُرف ذلك فجميع تلك المحبّات والحركات والإرادات والأفعال هي عبادةٌ منهم لربّ الأرض والسموات وجميع الحركات الطبيعيّة والقسريّة تابعة لها".

فهو يحاول هنا إقناعنا بأن كلّ حيّ له إرادة و محبة وعملٌ بحسبه، وكلُّ مُتحرِّكٍ فأصلُ حركته المحبّة والإرادة، ولا صلاح للموجودات إلّا بأن تكون حركاتها ومحبتُها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجودَ لها إلّا بإيداعه وحده ولهذا قال تعالى : " لو كان فيهما آلهةٌ إلّا الله لفسدَتَا " (الأنبياء/22).

¹ سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنينته وأساليبه)، مرجع سابق، ص210.

² المرجع نفسه، ص211.

³ عبد الله صولة: في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص48.

⁴ سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنينته وأساليبه)، مرجع سابق، ص210.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وهكذا فإنّ الملائكة مخلوقون للعبادة فحسب، فكّل عمل يصدرُ منهم فهو عبادة (الكلّ)، والمحبات والحركات والإرادات والأفعال هي أفعال صادرة عن الملائكة (الجزء)، وانطلاقاً من علاقة الجزء بالكلّ فإنّ هذه الأفعال أيضاً عبادة.

وبهذا فإنه يمكننا توضيح هذا السياق بمستويين يحويان حجّة الاشتمال (إدماج الجزء في الكل) :

- الأوّل : أعمال الملائكة عبادة.

- الثاني : الحركات والمحبات والإرادات والأفعال من أعمال الملائكة.

وبالتالي فالقول الذي ينطبق على أعمالهم ينطبق كذلك على أفعالهم وحركاتهم ومحباتهم وإرادتهم لتكون جميعاً عبادة، وهذا هو اللبّ والجوهر المراد إقناع المتلقّين به.

2.2.1.1. حجّة تقسيم الكل إلى أجزاء (Argument de division) :

تلجأ هذه الحجج إلى تقسيم الكل باعتباره أفضل وأهم وأشمل إلى أجزائه المكونة، حيث يوظفها المحاجج كي يتسنى له إدراج " تلك الأجزاء وتحميلها الشحنة الإقناعية التي كانت لها مجتمعة " ¹. فهي نوع إثبات حضور (présence) للكلّ من خلال إثبات أجزائه، ولضمان نجاح هذا الصنف من الحجج "ينبغي أن يكون تعداد الأجزاء شاملاً، وإلا تحطم كل ما بناه الخطيب وأثار ضحك الآخرين" ²، فوجود الأجزاء وحضورها وسيلة ضرورية لإبراز الكل وحضوره، ومع ذلك تبقى هذه الحجج شبه منطقية "لأن الأجزاء لا تعبر في كل الحالات وبدقة عن الكل" ³.

وبهذا فإنّ مؤدّى هذه الحجّة تقسيم الكلّ إلى الأجزاء التي تؤسّسه، فما ينطبق على كلّ جزء ينطبق

على الكلّ، أي " اعتبار كل واحد من هذه الأجزاء بغاية الإقناع بقضية تتعلّق بالكلّ " ⁴.

وقد ورد هذا النوع من الحجج في مواطن متعددة في المدوّنة، ومما ورد منها ما جاء على لسان صاحبها قوله :

" فأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فأمران : أحدهما : غضّ البصر، كما تقدّم، فإنّ النظرة سهم مسموم من سهام إبليس. ومن أطلق لحظاته دامت حسراته. وفي غضّ البصر عدّة منافع، وهو بعض أجزاء هذا الدواء النافع "

¹ محمد سالم محمد الأمين الطلبة : الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص129.

² الحسين بنو هاشم : نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، مرجع سابق، ص62.

³ سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص207.

⁴ محمد الولي : الاستعارة في محطات يونانية و عربية و غربية، مرجع سابق، ص380.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

فابن القيم هنا يتحدث عن منافع غَضِّ البصر، ويحاول الإقناع بنجاعة هذا الفعل (غَضَّ البصر)، وذلك بجعله جزء من الدواء الشافي، حيث يمنع من وصول أثر السهم المسموم - الذي لعلَّ فيه هلاكه - إلى قلبه. وغير ذلك، فيكتسب القلب نورا وأنساً بالله، في حين أن إطلاقه يلبسه ظلمة ويورثه وحشة بينه وبين ربه.

ولهذا ذكر الله سبحانه وتعالى آية النور عقب الأمر بغضِّ البصر، فقال : " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم " (النور/35).

وهكذا فإنَّ القضية الكلية هي الدواء الشافي، أما الجزئية (حجج) فهي غَضَّ البصر، وهذه الأخيرة هي محاولة للإقناع بالقضية الجزئية، وهنا انتقال من العام إلى الخاص.

فمما تبين لنا في هذه الحجّة التي أتى بها ابن القيم، أنها - حقيقة - تتضمّن حجّة أخرى برحمها، والتي تتمثّل في أنّ النظرة (جزء) من سهام إبليس (كلّ).

وإذا أردنا أن نحلّل هذه الحجج من حيث الشدة والقدة وترتيبها في المدارج أو السلم الحجاجية، باعتبار أن "العلاقة ذات الطبيعة التكوينية للسلم تتحقق انطلاقاً من علاقة التداخل بين الجمل المتضمنة للحجج المختلفة"¹، يبدو من المفيد الاعتماد على ما ذكره " ديكره " من تحليل للسلميات الحجاجية وفيها "يهدف إلى وصف الأقوال وتحديد مراتبها باعتبار وجهتها وقوتها الحجاجيتين، فالسلم الحجاجي بهذا المعنى هو علاقة ترتيبية للحجج"².

والحجج التي سبق تحليلها تتمايز فيما بينها من حيث الشدة والقوة، إلا أنّها لا تكون موفية إلا بشرطين أساسيين بينهما في تماسكهما وهما :

1- كلّ قول يقع في مرتبة ما من السلم يُلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

2- كل الأقوال كان في السلم دليل على مدلول معين كان ما يعلوه مرتبة دليل أقوى عليه.³

¹ ينظر : الزمخشري، الكشف، شرح و ضبط: يوسف الحمادي، مكتبة مصر، مصر، دط، دت، ج3، ص365.

² سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيتة وأساليبه)، مرجع سابق، ص255.

³ طه عبد الرحمان : اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص277.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

فهذه الترتيبية للأقوال تؤدي بالمحاجج إلى الانتقال من العام إلى الخاص، ومن الخاص إلى العام، أي أنها " تضمن تسلسل حجتيين د1 (أ) ود2(ب) باعتبار أن الحجة الأولى تكون سبباً في ظهور الثانية "1. ويتضح ذلك في النموذج السابق حيث انتقل ابن القيم من العام إلى الخاص في إثباته لمنافع الدواء. وفي الإمكان التمثيل لهذه المحاججة على السلم الحجاجي بالشكل الآتي :

النتيجة : الدواء لكل داء.
ج2 ← غض البصر : لتجنب الوقوع في الفواحش
ج1 ← النظرة سهم مسموم : وهذا دليل خطورتها

فـ "ح1"، "ح2" هي عبارة عن حجج التقسيم (تقسيم الكل إلى أجزاء) التي تتميز من حيث الشدة والقوة، وكان الانتقال فيها من العام إلى الخاص وهو ما استدلل به ابن القيم في كلامه عن الدواء الشافي لكل داء، وهو النتيجة النهائية التي ارتكزت على الحجتيين السابقتين لإثباتها.
3.2.1.1. حجة المقارنة (l'argument de comparaison) :

" تعتبر المقارنة حجة شبه منطقية حين لا تسمح بإجراء وزن أو قياس فعلي "2، وإن كانت توحى بأننا أمام قياس فعلي أو أننا نصدر حكماً مضبوطاً، وبالتالي فإن هذه الحجة يقصد بها استكشاف أوجه التماثل والتقابل القائم بين وقائع مختلفة فيما بينها.

فمثلاً حين " نقارن شاعراً متوسطاً فنقول إنه دون مكانة المتنبي، فإننا نرفعه بهذا، ولكننا حينما نقول عنه أرفع من شاعر ضعيف فإننا نحط من قيمته "3، وهكذا فإن معيار المقارنة ليس قياساً ثابتاً ولا فعلاً قابلاً للقياس، بل هو شبيه بذلك.

¹ محمد الولي : الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص 382.

² الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عن شايبم بيرلمان، مرجع سابق، ص 69.

³ المرجع نفسه، ص 70.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

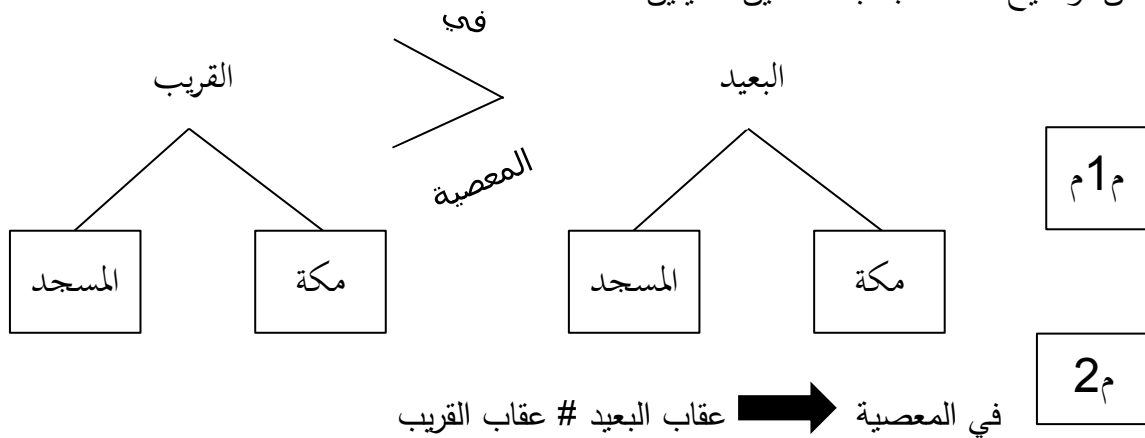
إن قوام حجة المقارنة يتمحور في جوهرها حول عملية القيس (Measure) " الرياضية بين طرفي قضية، "حيث نواجه بين عدّة أشياء لأجل تقويمها الواحد بالنظر إليه من زاوية الآخر"¹، وهو ما يجعل الحجاج أبلغ وأقنع.

و تتمظهر هذه الحجة في قول ابن القيم : " قالوا : ولهذا كانت معصية من ترك الحجّ من مكة أو ترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصيته من تركه من المكان البعيد، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا " .

إنّ سياق هذا الكلام يُجسّد المقارنة بين من ترك الحجّ من مكة أو ترك الجمعة وهو قريب من المسجد وبين من تركها وهو بعيد عنها، فهذه الحجة استعملها للإقناع بأن التهاون في ترك صلاة الجمعة أو الحج لمن هو من مكة كبيرة من الكبائر ومن أعظم المنكرات وأشدّ السيئات، لأنهما عبادة عظيمة، قال تعالى : " وأذن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتينا من كلّ فجّ عميق " (الحج / 27)، وقوله عزّ وجلّ أيضاً : " يا أيّها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوْا إلى ذكرِ الله وذُرُوا البَيْعَ ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون " (الجمعة/09)

ويظهر وجه المقارنة في قضية القرب والبعد؛ إذ يُقارن ابن القيم هنا بين من ترك الواجب وهو سهل عليه نظرا لقربه منه، وبين من ترك الواجب وهو عليه أصعب لابتعاده عن الموضع (مكة/المسجد) فجعل الأول أشد معصية مقارنة بالثان.

و يمكن توضيح هذه الحجّة بالمعادلتين الآتيتين:



¹ الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عن شايبم بيرلمان، مرجع سابق ، ص382.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

ومنه فإن حجة المقارنة هي العامل الرئيس لتشخيص قوة وشدة المعصية في حدود كل طرف من الطرفين، والغرض من ذلك كله أن يُلخّص ابن القيم على لسانه مشكلة التهاون في ترك الواجب من حيث الصعوبة والسهولة بشكل عام، أو من حيث البُعد والقُرب من الواجب بشكل خاص، وهذا في سبيل إقناع المتلقّي بشدة العقوبة في ارتكاب هذه المعصية التي تعدّ من أعظم الخذلان للبعد في الدنيا - ناهيك عن الآخرة -.

2.1. الحجج المؤسّسة على بنية الواقع (les arguments basés sur la structure du réel) :

تمثّل هذه الحجج المجموعة الثانية من أنواع الحجج، وهي لا تعتمد على البنى المنطقية الشكلية التي تساهم في بناء القوة الحجاجية للحجج شبه المنطقية، وإنما "تستخدمها للربط بين الأحكام المسلم بها وبين مقاصد المرسل من خطابه"¹، فهي تتأسّس على بنية الواقع قصد جعل "الأحكام المسلم بها والأحكام غير المسلم بها عناصر تنتمي إلى كل واحد يجمع بينها، بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون أن يسلم بالآخر"²، فالأحكام المسلم بها سواء كانت وقائع أو حقائق أو فرضيات... قد استمدّت قوتها الحجاجية من كونها نابعة من الواقع الذي يدّعي له المتلقّي ويقتنع به، وبالتالي فإنّ هذه الحجج تتأسّس على التجارب الواقعية وعلى العلاقات الحاضرة بين مكونات العالم الخارجي، حيث تضمن أثناء الحجاج "تفسيرا للأحداث والوقائع وتوضيحا للعلاقات الرابطة بين عناصر الواقع وأشياءه"³، فلا تصف الواقع وصفا موضوعيا بل تعرض عناصره بطريقة تجعل معطياته أقرب إلى التصديق، ولهذا فإن الحجاج "يكون أنجح وأقدر على الفعل في المتلقّي والتأثير فيه كلّما انغrust مراجعه في الواقع و تنزلت عناصر فيما حدث وما يحدث"⁴، وفيها تقوم بربط الأحكام المسلم بها، وأحكام يسعى الخطاب إلى تأسيسها ونثيبتها وجعلها مقبولة ومسلّمًا بها، وذلك بجعل الأحكام المسلم بها والأحكام غير المسلم بها عناصر تنتمي إلى كل واحد يجمع بينهما ولا يمكن التسليم بأحدهما دون أن يسلم بالآخر.

وهذه الحجج لها طريقتان للربط بين عناصر الواقع : الأولى هي علاقات : الاتصال التتابعي (liaison de coexistence) الذي يكون بين شخص وأعماله، وعموما بين الجوهر وتجلياته كأن يقال

¹ عبد الله صولة : في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص49.

² عبد الله صولة : " الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج"، مرجع سابق ، ص331.

³ سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص214.

⁴ المرجع نفسه، ص214.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

عن طفل ما إنه عظيم باعتبار أن أباه فلان (قياس العرض على الجوهر)¹، وتتجلى أنواع كل من الاتصاليين و تفرعاتهما كما يلي:

1.2.1. الاتصال التتابعي والحجة البراغمية :

تعرف هذه الحجة بأنها " التي يحصل بها تقويم عمل ما أو حدث ما باعتبار نتائجه الإيجابية أو السلبية وتقوم على أساس تتابع تسلسل الأحداث الواقعية التي تربط بينها علاقة الاتصال أو الرابط السببي من طريقتين إما الربط بين السبب أو الحدث أو المقدمة وما ينتج عنها نتائج، وإما عكسيا تنطلق من النتائج لتصل إلى أسبابها"²، ويتم ذلك عبر ثلاثة أنواع من الحجج :

- " حجاج يسير في اتجاه البحث عن أسباب ظاهرة ما"³، أي يُعتمد في بنائه على الربط بين السبب و نتائجه (حيث يشكل متتابعة) مثل : اجتهد فنجح.

أي : اجتهد ← فنجح

حجة ← نتيجة

- " حجاج يرمي إلى تحديد آثار ظاهرة ما"⁴، بمعنى أنه ينطلق من النتيجة ليصل إلى استخلاص الأحداث والأسباب، وذلك بالربط بين وقوع حدث ما (نتيجة وسبب حدوثه) حجة) مثل : نجح لأنه اجتهد.

نجح → لأنه مجتهد

نتيجة → حجة

- "حجاج يرمي إلى تقييم حدث ما بواسطة نتائجه"⁵؛ أي أنه يعتمد على التكهن بما سيقع من نتائج لو توفر سبب وحدث معين، وبالتالي فهو حجاج يربط من باب الاحتمال بين حدث منجز (حجة) وبين ما يفرضي إليه (نتيجة).

وفي هذا السياق، يحيلنا بيرلمان على حجج أخرى تعتمد على علاقة الاتصال التتابعي، من بينها :

¹ عبد الله صولة: في نظرية الحجج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص49.

² عبد الله صولة: الحجج أطرها ومنطقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجج"، مرجع سابق، ص333.

³ الحسين بنو هاشم: نظرية الحجج عند شايم بيرلمان، مرجع سابق، ص71.

⁴ المرجع نفسه، ص71.

⁵ محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، مرجع سابق، ص54.

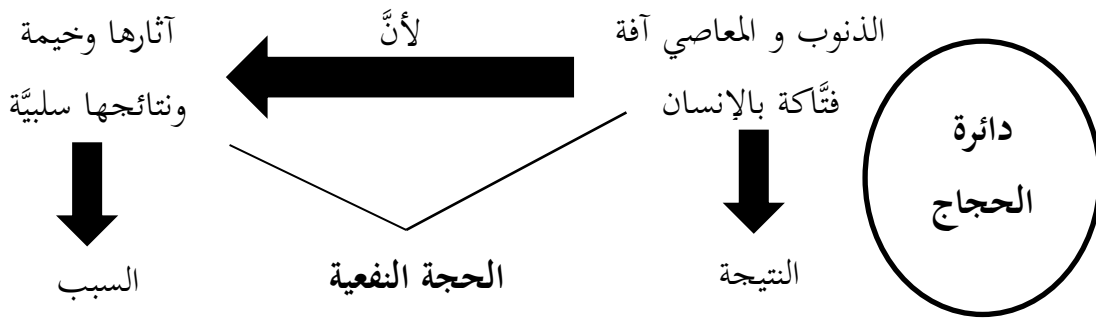
1.1.2.1. الحجة النفعية (argument pragmatique) :

وهي التي يعرفها بيرلمان بقوله : " أسمى حجة نفعية حجة النتائج التي تقيم فعلا أو حدثا أو قاعدة، أو أي شيء آخر تبعا لنتائجه الإيجابية أو السلبية"¹، فهذه الحجة قيمة السبب أو الحدث أو الفعل بقيمة ما ينجم عنه من نتائج سلبا أو إيجابا، ولذلك تعدّ من أهم الحجج التي يحفل بها المحاجج، فالحكم على قيمة السبب تابع للحكم على نتائجه، مثل قولنا " هذه السياسة جيدة لأن نتائجه جيدة"²، وهكذا فإن تقويمنا وتوجيهنا للأحداث والأسباب يكون من خلال النظر إليها باعتبار ما سينتج عنها من نتائج.

يقول ابن القيم: " فمما ينبغي أن يعلم أنّ الذنوب تضر ولا بدّ، وأنّ ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا الآخرة شرّ وداء إلّا وسببه الذنوب و المعاصي ؟ فما الذي أخرج الأبوين من الجنة ... إلخ"، و ما ذكره بعد هذا من الصفحات الكثيرة الموالية من آثار الذنوب وعقوباتها هو احتجاج على ضررها بآثارها السيئة تلك؛ أي أنّ المُحاجج قد استعمل آثار الذنوب السلبية في الاحتجاج على سلبيتها، بغية إقناع المتلقي بتركها نظراً لخطورتها وعقوباتها الوخيمة وأضرارها الفتاكة. ويمكننا تدعيم هذا الشرح إضافة إلى كلامه السابق بقوله : " وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة، ما لا يعلمه إلّا الله :

- 1- حرمان العلم، فإنّ العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفئ ذلك النور.
- 2- حرمان الرزق ... "

ومن هنا، فإنّ الحكم على قيمة السبب تابع للحكم على نتائجه، لتكون بذلك الحجة النفعية من أهم الحجج التي يحفل بها المحاجج، ويمكن توضيح ذلك بـ :



¹ محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، مرجع سابق ، ص72.

² فيليب بروتون،جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص50.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وهكذا، فإنّ تقويم وتوجيه ابن القيم للأسباب يكون من خلال النظر إليها باعتبار ما يستنتج عنها من نتائج ليصدر حكماً على المعاصي والذنوب، وهذا بغية إقناع المتلقين بسلبيتها ومنه تجنّب الوقوع فيها.

2.1.2.1. حجة التّبذير أو التّبديد (l'argument de gaspillage) :

قد تبدو هذه الحجة للوهلة الأولى متعلقة بقضية تبديد الحجج أي كثرة توظيفها والإسراف فيها على نحو يقلل من فعاليتها، ولكنها غير ذلك، فهي تقوم على ضرورة استكمال ما بُدئ فيه وإتمام ما شرع بعد في القيام به، ويتلخّص ذلك " في القول بأننا لما كنا قد بدأنا عملاً ما، ولما كنا سنخسر توضيحات تجسّمناها في سبيله لو تخلينا عن المهمة فإنه ينبغي المواصلة في الاتجاه ذاته"¹، وبالتالي تلعب هذه الحجة دوراً هاماً في جعل المتلقي يذعن ويقنّع بمواصلة ما بدأ فيه، وإكماله ما دام أنه قطع شوطاً في ذلك، وبذل إمكانات وتوضيحات من أجل ذلك، وهكذا فإنّ هذا النوع من الحجج يقوم على العلاقة القائمة بين الوسيلة والغاية في السياقات التواصلية، وإن كانت الوسيلة " عند الكثيرين غاية في ذاتها نسعى إليها وننشدها فيكون الحجج تعديلاً للأمر وتأكيذاً للفروق بين الوسائل والغايات"²، ولتوضيح هذه المسألة نطرح المثال الآتي في سياق الوفاء بالعهد، وتحت باب الغاية تبرّر الوسيلة: (بما أنني قد تعهدت بتسليق الشجرة رغم صعوبة ذلك، وخوفاً من إهدار ماء وجهي أمام زملائي، وجب عليّ الاحتفاظ والوفاء بذلك).

فالأمر في هذا المثال لا يرتبط بالسبب وهو صعوبة تنفيذ العهد، بل يتعلّق بالغاية، وهي حفظ ماء الوجه، وهو ما يستوجب الاستمرار والوفاء بالعهد الذي قطعته.

وتبرز حجة التّبذير أو التّبديد في قوله : " والتحقق في هذه المسألة أنّ القتل يتعلّق به ثلاث حقوق : حقّ الله، وحقّ للمقتول، وحقّ للولي، فإذا سلّم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الوليّ ندماً على ما فعل، وخوفاً من الله، وتوبةً نصوحاً، سقط حقّ الله بالتوبة، وحقّ الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حقّ المقتول يعوّضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه، فلا يذهب حقّ الله، ولا تبطل توبة هذا " .

¹ سامية الدريدي : الحجج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص224.

² المرجع نفسه، ص223.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

فابن القيم هنا لا يسعى إلى تبديد الطاقات الممكنة، ما دما في حاجة ماسّة إليها، وهذا قوام الحجّة التي استعملها موضع الكلام عن التوبة، فما دام باب التوبة مفتوحاً فمن التبديد أن لا يتوب القاتل ولو كان فعله من أكبر الكبائر.

فهذا المحاجج يحاول إقناع المخاطب بأنه ما دام قد قدّم تنازلات وتضحيات كثيرة وتغييره لأمر متعدّد، فمن الغلط ألا يكمل السير في المسار الذي بدأه، وهذا تبديد للشّيء الكثير الذي ضحّى به من قبل وهذا من ناحية المعنى العام.

أما المعنى الخاص و الذي يهمنّا في هذه الصورة هو أن ابن القيم يُريد إقناع القاتل الذي قتل الناس دون وجه حق بانفتاح باب التوبة، على الرغم من أن الجريمة التي ارتكبها ليست سهلة، لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يزال المرء في فسحةٍ من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا ".

وأن القتل من أكبر الجرائم وتعلقه بثلاث حقوق " حقّ الله، وحقّ للمقتول، حقّ الولي، وحقّ الله عزّ وجلّ. ومع هذا كله نجده يفتح للقاتل فسحة من الأمل، بعفو الله عنه، ودفع الولي الثمن بالقصاص أو الفدية، أما حقّ المقتول فيبقى عند الله ليرضيه يوم القيامة وبالتالي، فإنّ السبيل مفتوح والطريق غير مغلق في جميع الحالات أمام القاتل لتصليح الأمر والتكفير عن الجرم بالتوبة النصوح.

وأنه سيكون من التبديد والتبذير الاستلام لهذه الجريمة وتضييع الكثير من الفرص المفتوحة للتوبة، وبما أننا شرعنا في إنجاز هذا العمل وضحينا في سبيله بما لو أعرضنا عن تمامه لكان مضیعة للمال وللجهد، فغنه علينا أن نواصل إنجازَه¹.

ومن ثمّ فإنّ هذه الحجّة التي احتجّ بها ابن القيم قائمة على الاتصال والتتابع، كأن يُواصل القاتل التغيير الحسن في سلوكاته وأقواله ما دام باب التوبة مفتوح، على الرغم من الهزائم والصعوبات المتكررة التي تواجهه.

وبالتالي فإنّ هذه الحجّة التبيديّة التي استعملها تلعب دوراً فعّالاً في جعل المتلقي يفتتح بمواصلة ما بدأ فيه إتمامه ما دام أنّه قطع شوطاً في ذلك من جهة، وما دام باب التوبة لا يزال مفتوحاً إلى يوم القيامة التي لا يعلم ساعتها إلاّ الله.

¹ محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2017م، ص158.

3.1.2.1. حجة الاتجاه (l'argument de direction) :

وهي حجة " تمكّن من دفع أمور عديدة لا اعتراض عليها في ذاتها و رفض أطروحات لا خلل فيها، وإنما لأنها قد تؤدي بنا - إن طبقناها أو عملنا بها - إلى غاية لا ننشدها وإلى نتيجة نتحاشى حدوثها"¹، لأن هذه الحجة في حقيقتها تدفع المتلقي إلى تغيير استنتاجاته تجنبًا لما قد يُوصّله أو يحمده عقباه، وذلك بتحذيره ليتغير اتجاه نتيجة السلم الحجاجي أثناء التواصل، علما أن هذا " التحذير يكون من مغبة اتباع سياسة المراحل التنازلية كقولنا : إذا تنازلت هذه المرة وجب عليك أن تتنازل أكثر في المرة القادمة والله أعلم أين ستقف بك سياسة التنازلات هذه؟"²، ففي هذا المثال يدفع الباث المتلقي إلى تغيير استنتاجاته بعدم التنازل بداية لأنه لو تمادى في هذا التنازل فإن عاقبته غير واردة في الحساب.

وبالتالي فإن هذه الحجة تقنية يعتمد فيها المحاجج على أسلوب التحذير والتخويف من سلسلة التنازلات التي تؤدي بالمتلقي في النهاية إلى نتيجة تؤول به إلى الاستسلام، كما أنها تعتمد " التحذير من انتشار ظاهرة ما بحجة أنها قد تصيب المجاور لها بالعدوى (l'argument de contagions) "³. وهذه هي حجة الاتجاه، التي تقوم على غاية التحذير والتنبيه من انتشار شيء ما.

وتتضح هذه التقنية الحجاجية في قول ابن القيم : " ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدّمًا على حفظ الفرج، فإنّ الحوادث مبداها من النظر، كما أنّ معظم النار من مستصغر الشرر، فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة ".

لقد سلك المحاجج هذا المسلك في كلامه، لينبّه ويحدّر من الانسياق في مزلق التساهل الذي إن قدم شيئًا منه في الأوّل، فإنّه يكون قد دخل مُنزلقًا يقوده إلى ما لا تُحمد عقباه، فمن تساهل بالنظر قاده إلى الخطر، ومن زاد تساهله في الخطوات قادته للخطيئات.

وهكذا فهي حجة قائمة في مجملها على التحذير، " كتحذير من مواصلة التنازلات في أمرها، لأن سلسلتها إذا دأبت فلن تنتهي، أو التحذير من انتشار ظاهرة ما بحجة أنها قد تصيب المجاور لها بالعدوى (l'argumentation de contagion). ويكثر هذا النوع الحجاجي عادة في القضايا الأخلاقية"⁴.

¹ سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيتها وأساليبه)، مرجع سابق، ص225.

² عبد الله صولة : في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص50-51.

³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص130.

⁴ المرجع نفسه، ص130.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

كما نجدها في القضايا الإرشادية والتوجيهية والعقائدية، وهو ما أكدّه "أوليفير وبول" (olivier reboul) حين نص على أن حجّة الاتجاه تقوم على رفض الأمور المعترف بجودتها ومقبوليتها، لأنها قد تؤدي إلى نتيجة عكسية غير متوقعة، الأمر الذي يجعله يقر أن رفضها قد يؤدي إلى نتيجة يتحاشى حدوثها،¹ وفي قول ابن القيم السابق تتضح فكرة التحذير التي تبناها في دعوته حول كفّ البصر عن الحرام، فالعين مرآة القلب، فإذا غصّ القلب شهوته وإرادته، ونقش فيه صور تلك المبصرات، فإن ذلك يشغله عن الفكر فيما ينفعه في الدار الآخرة.

ولما كان إطلاق البصر سبباً في وقوع الهوى في القلب أمر الشارع بغض البصر عمّا يخاف عواقبه، فقال تعالى: " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (30) وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهنّ .. " (النور/30-31).

وحقيقة، أن ابن القيم الجوزية يحذّر من الوقوع في فعل الزنا، فبين أن هذه الفاحشة لها مقدمات ومُنحدر زلق، فبمجرّد الدخول في أوله ستجد نفسك آلياً في ارتكابه. حيث أن بدايته النظر الذي هو أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد الخطرة ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بدّ ما لم يمنع مانع ولهذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده.

وهذا ما يُمثّل حجّة الاتجاه، التي يمكن توضيحها وفق المعادلة الآتية:

وجوب كف البصر عن الحرام
 = النظرة → الخطرة → الخطوة → الخطيئة
 تؤدي إلى تؤدي إلى تؤدي إلى

أو:

الوقوع = خطيئة + خطوة + خطرة + نظرة في الفاحشة



¹ سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيتة وأساليبه)، مرجع سابق، ص225.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وفي النهاية نخلص إلى أنّ ابن القيم وهو المحاجج بالحجج المؤسسة على بنية الواقع لا يتعدى فضاء الأشياء التي يقدّمها الواقع، ويبقى حبيس حدود الربط بين الواقع، ويبقى حبيس الربط بين الواقع المتعايشة أو المتتابعة، كما أنه يسعى من خلال تلك الحجج إلى التأكيد على فكرة واقعية معينة قائمة فكرة واقعية أخرى، تتعايشان مكانياً وتتعاقدان زمانياً.

2.2.1. الاتصال التواجدي وعلاقات التعايش (les liaison de coexistence) :

ويتجلى في ثلاثة محطات تتمثل في :

1.2.2.1. الشّخص و أعماله :

إذا كانت حجج الاتّصال التّابعي تربط بين الأسباب سواء كانت مقدمات أم أحداثاً، بما ينتج عنها من نتائج، فإن صور الاتصال التواجدي تختلف عنها، باعتبارها تربط بين علاقات متداخلة بين الشخص وأعماله، " وتتمثل هذه الحجّة في تفسير حدث أو موقف ما، والتنبؤ به انطلاقاً من الذات التي تعبر عنه أو تجليه وتوضحه"¹، ففي المواقف التّواصلية خاصّة تتدخل صفات وأعمال ومرتبة الثبات من أجل إقناع المتلقي، لأن الحجاج قد "يربط العمل بصاحبه، ويعيننا على فهم عمله، وعلى إمكان تقويمه"²، وتحديد العلاقة بين " ما ينبغي أن نعتبره جوهر الشخص وبين أعماله التي هي تجليات ذلك الجوهر"³ أثناء الحجاج. فتساعد المعرفة المسبقة لهذا الشخص على تحديد غايته ومقاصده الحجاجية، ممّا يُسهّل عملية إقناع المتلقي وتوجيهه لفعل معيّن، حيث أنّ تأثر " المتلقي واستجابته للرسالة يرجع أكثر ما يرجع إلى الإرسال نفسه، إلى الصورة والمظهر، ولو كانت الرسالة رسالة محاجة ومناظرة"⁴.

وبالتالي، فثنائية الشخص وأعماله لا تكاد تتفصل عن بعضها، ولذلك فأفعال الشخص وأعماله المتجلية والمتجسدة تساعدنا في الكشف عن نيته وجوهره، حيث أنّ أفكاره تحيلنا وتنبئنا بما سيصدر عنها من أعمال ومواقف قبل وقوعها، وتفسرها لنا بعد وقوعها، وهذا يصدق غالباً حينما تكون أمام شخصية متناقضة متغيرة، وفي هذا الموقف يستطيع المتلقي رد حجتنا في الشخص وأفعاله بحجة مضادة تقوم على مبدأ

¹ سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص228.

² عبد الله صولة : الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج"، مرجع سابق، ص334.

³ المرجع نفسه، ص334.

⁴ جميل عبد المجيد : البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، م2002، ص148.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

التناقض والتغير المرصود بين الشخص وأعماله، لتكون بذلك العلاقة تبادلية سائرة في اتجاهين، فما ندعيه ونحتج به من صفات خلقية ومقاصد وغايات في شخصية معينة، يصدقها ما يتجلى عنها من أعمال وغير ذلك، لهذا السبب يولي بيرلمان اهتماماً لقصد الشخص ونيته بقوله: " فالنية التي تختبئ وراء الأفعال تصبح هي الأساس، فهي التي يجب أن نبحث عنها وراء التجليات الخارجية للشخص، وهي التي تعطيها معناها وأهميتها، من هنا يأتي إصدار حكم مزدوج، أحدهما يتعلق بالفعل ذاته هنا يأتي إصدار حكم مزدوج، أحدهما يتعلق بالفعل ذاته هنا يأتي إصدار حكم مزدوج، أحدهما يتعلق بالفعل ذاته والآخر بالفاعل"¹؛ أي أنه بإمكاننا إصدار الحكم على الشخص من خلال أعماله وأفعاله ونيّاته.

وتبرز هذه التقنية في قول ابن القيم: " فنكاحُ المَعْشُوقَةِ هُوَ دَوَاءُ العشقِ الَّذِي جَعَلَ اللهُ دَوَاءَهُ شرعاً وقدرًا، وبه تداوى داود - عليه السلام - ولم يرتكب نبياً لله مَرَمًا، وإنما تزوّج المرأةَ وضمَّها إلى نسائه لمحبتة لها، وكانت تويته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته. ولا يليق بنا أن نزيد على هذا ".

ورد كلامه هذا، في سياق الحديث عن قصة ابتلاء سيدنا داود - عليه السلام - بالمرأة الجميلة، فأراد توضيح أنها من القصص الإسرائيلية التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية في عصمة الأنبياء، وأن ما روي من أمر عشق سيدنا داود - عليه السلام - لزوجته قائد جيشه من الأساطير المدسوسة في حقّ الأنبياء المرسلين، وخلصتها: أن داود كان يمشي على سطح داره، فنظر إلى امرأة تستحم فأعجبته وعشقها، وكانت زوجة أحد قواده ويسمى " أوريا " فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في أحد المعارك، وحمله الرية وأمره بالتقدم فانتصر، فأرسله مرارًا ليتخلص منه، حتى قتل فتزوجها - إلى ما هنالك من الكذب والبهتان - " ... وهذا ضعيف عند الأئمة².

وفي هذه القصة، ردّ ابن القيم على الأحاديث التي تناولتها وأبطلها، فاستعمل التقنية الحجاجية المتمثلة في " الشخص وأعماله "، وذلك بالاستشهاد بأعمال داود - عليه السلام - على تصديق أو تكذيب ما تُنسب إليه، وأن ما ورد في حق النبي داود - عليه السلام - من قتل وعشق يتعارض مع صفاته وثناء الله عليه المذكور في القرآن الكريم، فقد آتاه الله الحكمة والعلم، وأمر محمد - صلى الله عليه وسلم - بالافتداء به في صبره وكثرة ذكره، فقال عزّ وجلّ: " اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب " (ص/17).

¹ الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، مرجع سابق، ص78.

² ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط1، 1400هـ/1980م، ج4، ص31.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

ولو قلنا أنّ داود لم يصبر على مخالفة النفس كما - يزعمون - بل سعى في إراقة دم رجل مسلم لغرض شهوته، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - أفضل الرسل - أن يقتدي به في الصبر على طاعة الله، كما أن الصفات والفضائل التي وصف وفُضِّلَ بها داود عليه السلام في الآيات لا يتأتى معها ارتكابه المنكر.

وهكذا فإنّ علم الأخلاق والقضاء يحكمان على العمل وعلى صاحبه، وفي الوقت نفسه، فعلاقة الوصل التواجدية لا يتبع الحجاج فيها مسار - عمل شخص - وهو ما سمّاه بيرلمان التداخل بين العمل والشخص.

وبالتالي، فحجاجية هذا الإيراد الذي ذكره ابن القيم يكمن في احتجاجه بأنّ داود عليه السلام من أنبياء الله، والأنبياء أعمالهم كلّها صالحة لأنهم معصومين عن الخطأ، لتكون بذلك أعمالهم جميعاً خيرة. ومنه فالحجة التي أتى بها : أنه لا يمكن التصوّر بأن النبي داود - باعتباره من الأنبياء الصالحين - يُمكن أن يرتكب عملاً قبيحاً كهذا، يقول عنه تعالى : " وإن له عندنا لزلفى وحسن مثاب " (ص/25). وفي هذه الآية دلالة على براءته ممّا نُسب إليه زوراً وافتراءً، فإنّ الذي يستحقّ الزلفى وحسن المآب هو الذي يفعل الطاعة ويتجنب المعصية، أما من يسعى في قتل غيره والعدوان عليه في زوجته، فلا يستحقّ هذه المرتبة عند ربه، ولا يستحقّ هذا المدح والتكريم والثناء من المولى عزّ وجلّ¹.

وعليه، فإنّ ثنائية الشخص و أعماله لا تكاد تتفصل من بعضها، لتكون بذلك علاقة تبادلية سائرة في دائرة الحجاج و الإقناع، فما احتجّ به ابن القيم من صفات خلقية وغايات في شخصية نبيّ الله داود تُحيلنا على ما سيصدر عنه من أعمال قبل وقوعها، وتفسير مواقف بعد وقوعها، وبالتالي إصدار الحكم عليه انطلاقاً من أعماله وأفعاله ونيّاته، وهذا كلّه بغية إقناع المتلقي بأنّ الجرائم الملققة والملصقة بنبي الله داود (القتل، الزنا، الخيانة، ...) تتنافى مع ما ورد عنه في كتاب الله من صفات وفضائل تدل على شدة احترازه من المعصية.

وبهذا تطرّق المُحاجج إلى استخدام حجة العلاقة التي تربط الشخص بعمله، والتي " تبنى في جوهرها على اعتبار الصلة وثيقة بين أيّ شخص وأعماله وخاصة على مبدأ ثبات الشخصية بحيث إن قامت على فعل معين أو اتخذت موقفاً محدداً فلأنها عُرِفَتْ بخصال معلومة منذ زمن بعيد، وستظلّ كذلك ما بقيت على

¹ ينظر : محمد أبو النور الحديدي، عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، مطبعة الأمانة، مصر، 1399هـ/1979م، ص181-182.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

قيد الحياة¹، وهذا كله ليُبين المحاجج مدى قوة وصدق نبي الله داود عليه السلام، لحمل الجمهور على الإذعان ببراءته.

2.2.2.1. حجة السلطة (argument d'autorité) :

من بين الحجج المتنوعة والمتداولة في خطابات الناس والتي تستمد قوتها من هبة (prestige) الشخص ومكانته نجد حجة السلطة، التي يستخدم فيها المحاجج " هبة شخص أو مجموعة أشخاص لدفع المخاطب إلى تبني دعوى ما، والسلطات التي يتم الاعتماد عليها في الحجاج متنوعة، فقد تكون الإجماع أو الرأي العام تارة، وقد تكون فئات من الناس تارة أخرى كالعلماء والفلاسفة ورجال الدين والأنبياء، وأحيانا قد تكون سلطة غير شخصية كالفيزياء أو المذهب أو الكتب المنزلة².

إذن فإن هذه الحجة تقوم على ما يستند إليه الباث في إثبات صحة دعواه أمام المتلقي، حيث يدعم المحاجج المتكلم أو الكاتب أقواله وأطروحاته موظفا هذه السلطات، ولكن كما يرى بيرلمان: " قبل أن نستند إلى السلطة فإننا غالبا ما نؤكدّها ونعضدّها ونمنحها رصانة شاهد مشروع"³، فالسلطة نفسها هي التي تضمن قبولها لدى المشاهد وليس المحاجج (الشخص المتكلم/ الكاتب) الذي لا يدعو أن يكون مصدر إثبات، أما إذا كان هو نفسه السلطة فإن نجاح حجاجه ونجاعته سيكون أضمن وأقوى قبولاً لدى المتلقي.

وبالتالي سينبغي >> التمييز بين حالتين : حالة السلطة التي تتجلى مباشرة من قبل المخبر أو مصدر الإثباتات، وحالة السلطة التي يستشهد بها المتكلم لدعم أقواله⁴، ففي كلتا الحالتين، تمنح السلطة المتكلم مصداقية وقيمة لما يطرحه لتضمن بها قبول المتلقي، ومع ذلك فإن حجة السلطة لا توظف مستقلة ومكتفية بذاتها في الخطابات الحجاجية، بل تأتي مكملة ورافدة لعناصر حجاجية أخرى، وفي هذا المقام يقول بيرلمان: " تأتي حجة السلطة في أغلب الأحيان لتكمل حجاجا ثريا عوض أن تكون الحجة الوحيدة فيه،

¹ سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص229.

² المرجع نفسه ، ص79.

³ فيليب بروتون: الحجاج في التواصل، ترجمة: محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2013، ص84.

⁴ المرجع نفسه، ص85.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

فنستنتج عندها أن السلطة قد ترفع أو تحط حسب اتفاقها أو اختلافها مع رأي المتكلم¹، ومن هذا نستنتج أن حجة السلطة تكتسب أهميتها الحجاجية في غياب حجج أخرى مقنعة، ومع ما تمتلكه السلطة من قوة حجاجية فإنه بإمكان المتلقي مناقشتها وردّها بسلطة أخرى أقوى ما لم تكن السلطة محل النقاش إلهية أو معصومة، في حين أن استدلال الباث (المرسل) في مجتمع إسلامي بالقرآن الكريم، فإنه يضع المتلقي بذلك أمام واقع مُسلّم به لا نقاش فيه، وهذا ما يدفعه إلى تقبل النتائج المقصودة في الحجاج، وهكذا فإن هذه الحجة تتمثل في الاحتجاج لفكرة أو رأي أو موقف اعتماداً على قيمة صاحبها².

وتبرز هذه التقنية في قول ابن القيم : " وسمعتُ شيخ الإسلام يقول : كما أنّ خير الناس الأنبياء، فشرّ الناس من تشبّه بهم من الكذابين، وادّعى أنه منهم، وليس منهم ". والذي استخدم سلطة الشخص في تقوية قوله الوارد في سياق كلامه عن خير الناس وشرهم، باعتبار أن السلطة في مجال الحجاج تختلف عن باقي المجالات الأخرى، وتتعدد تعددًا كبيرًا، فقد تكون " الإجماع أو الرأي العام، أو العلماء أو الفلاسفة أو الأنبياء"³، وقد استعمل حجة السلطة بالتحديد في قوله " وسمعتُ شيخ الإسلام " كحجة إقناعية، تستمد طاقتها من هيبة ومكانة " شيخ الإسلام " والمقصود بهذا الأخير هو أستاذه تقي الدين ابن تيمية، وذلك بغية دفع المتلقي إلى تبني فكرة أنّ خير الناس هم الأنبياء، وشرهم المنافقين والدّاعين بأنهم منهم وهم ليسوا كذلك. وهكذا فإنه قد دَعَم كلامه بسلطة ابن تيمية، ذلك لأن الحجاج بالسلطة يعتمد على ذكر أشخاص معيّنين على أن تكون سلطة هؤلاء مُعترفا بها من قبل جمهور السامعين ...، فالعادة "في الحجاج ألا تكون الحجة بالسلطة الحجة الوحيدة فيه، وإنما تأتي مكملّة لحجاج يكون غنيًا بحجج أخرى، كما أنه كثيرا ما نعدم إلى الثناء على هذه السلطة قبل استخدامها حجة في كلامنا"⁴.

وبالتالي، فإن غرض المُحاجج لهذه الحجة يتجلى في إقناع المتلقي بفحوى طرحه الذي يُحاجج عنه، وذلك عن طريق الاستشهاد بقول شيخ الإسلام ابن تيمية، لماله من واسع العلم وعظيم الأثر وحسن الذكر في الإسلام وهنا تكمن حجاجية حجة السلطة، فكلما كانت السلطة قوية كلما كانت الحجة أرفع وأعلى درجة في الإقناع والتأثير، لاستمالة المتلقي نحو الهدف المنشود؛ لأنها قائمة على الاستشهاد بشخصية ابن تيمية

¹ كريستيان بلانتان : الحجاج، ترجمة: عبد القادر المهيري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، دط، 2008م، ص153.

² ينظر: المرجع نفسه، ص232.

³ حمادي صمود : أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مرجع سابق، ص335.

⁴ المرجع نفسه، ص335.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

التي لها مصداقية قوية، ومقدرة على حلّ المشاكل والتحكم في زمام الأمور، لذا لجأ إليها ابن القيم كونها تحصل حينما يُعتقد بصدق قضية أو فكرة لا سند لها إلا علم أو خبرة قائلها.

وحجّة السّلطة دليل بديل على صحّة الفكرة التي أتى بها، نظرا لمصداقيتها وقوتها في جعل المتلقي يفتتح ويزعن لها.

ومنه، فإن قيمة الخطاب الحجاجية في هذا الموقف تتعلق بقيمة القول، وقيمة القول هنا "إنما يستمدها ويكتسبها من سلطة قائله ومكانته وقيّمته الاجتماعية"¹، فلولا الحكمة والمكانة اللتان كانا يتميز بهما ابن تيميّة لما استطاع ابن القيم الاستعانة به على القول بمبتغاه، ففوة الحجة كانت أبلغ وأقوى لأنها كانت موجهة من عالم بليغ (سلطة - مرسل) إلى الجمهور (شعب - متلقي).

3.2.2.1. الاتّصال الرمزي (la liaison symbolique) :

تلحق الروابط الرمزية بروابط التّعايش والتّواجد حسب بيرلمان، فالرمز (symbole) له " قوّة تأثيريّة في الذين يُقرّون بوجود علاقة بين الرّامز والرموز إليه كدلالة العلم في نسبته إلى وطن معين، والهلال بالنسبة إلى حضارة الإسلام، والصليب بالنسبة إلى المسيحية، والميزان إلى العدالة"²، وهذا يعني أنّ القيمة الحجاجية للرمز في علاقته بما يرمز إليه مرهونة بمقاموسياق استخدامه، أي بالفئة والبيئة الثقافية والاجتماعية والدينية ... التي أنشأته؛ أي أنّ تأثيره العاطفي والذهني مقتصر على الجماعة أو المجتمع الذي اتّفق على دلالاته دون غيره، فلا يكون له بذلك دور و فعالية خارجها " لأن الرموز تتغير بتغير الأوساط الاجتماعية والبيئات الثقافية"³، وبانفصال علاقة الترابط والاتصال التي تجمع بين الرمز وما يرمز إليه تنتهي دلالاته وإيحاءاته، وقد سمّى بيرلمان تلك العلاقة بعلاقة المشاركة rapport de motivation بحيث يصير أي سلوك اتّجاه الرمز يمسّ بشكل مباشر بالرموز إليه، " فإحراق العلم الوطني لدولة ما هو إهانة لها ولشعبها، ورفع صورة ياسر عرفات في مظاهرة معناه التعبير التضامن مع الشعب الفلسطيني"⁴ وغير ذلك من الرموز والإيحاءات الخاصّة بكلّ أمة أو شعب أو فرد ...

¹ محمد سالم محمد الأمين الطلبة : الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص131.

² سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيتة وأساليبه)، مرجع سابق، ص236.

³ صابر الحباشة : التداولية والحجاج مداخل ونصوص، مرجع سابق، ص48.

⁴ سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيتة وأساليبه)، مرجع سابق، ص236.

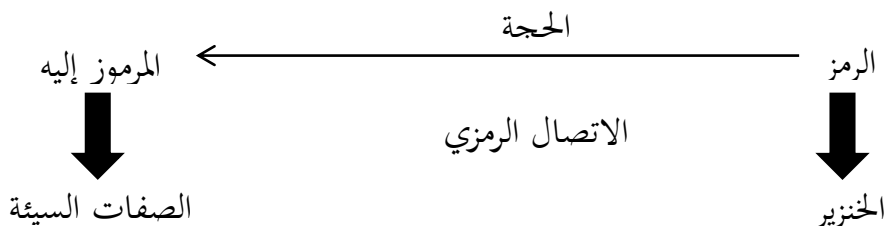
الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

إنّ الوصل الرمزي هو رمز تواجدي، ذلك أنّ قيمة الرمز ودلالته تستمدان ممّا يوجد في اتّصال تزامني بين الرامز والمرموز إليه، وللوصل دور كبير في التّأثير في الكائنات التي صنعته وجعلت له دلالة ما¹.

ومن أمثلة هذا الوصل الوارد في مدوّنة الداء و الدواء قول ابن القيم: " ومنها: مسخ القلب، فيُمسَخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي يشابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسَخ على خُلُق خنزير".

في هذا النموذج، أراد ابن القيم أن يوضّح أن القلب إذا شابه حيواناً معيّنًا فإنّه يُنسخ على صورته إذا كان خنزيراً فخنزير، جمل فجمل ... وبالتالي هنا مشابهة بين القلوب وأنواع الحيوانات بحيث أنّ القلب إذا اتّصف بأخلاق معينة يصير شبيه حيوان ما، فقد تكون تلك القلوب ذات أوصاف جيدة والعكس الصحيح، فالقلب الماكر يشبه الثعلب ...

وحجّيته في هذا القول تكمن في تشبيهه للقلب بالخنزير؛ ذلك أن القلوب ذات الصفات السيئة تشبه الخنازير. وقد استعمل حيوان " الخنزير " بالتحديد دون غيره من الحيوانات؛ لأنّ هناك اتّصال رمزي بين الخنزير والأخلاق السيئة، والمعروف على هذا النوع من الحيوانات أنه أقبحهم وأبغضهم، ولا يغار على أنثاه. وهكذا، فإن ابن القيم في إطار حجاجه وظّف العلاقة الرمزية بين الخنزير وما نعرفه عن رداءة هذا الحيوان، بغية الإقناع بأنّ القلب المشحون بالصفات الرديئة مثل قلب الخنزير، فاكتفى في إقناع المتلقي بذكر كلمة " الخنزير " بدل ذكر الصفات المذمومة الكثيرة التي يتصف بها هذا الحيوان المكروه والمذموم عند الناس. فالأقوى في الخطاب ذكر كلمة " الصفات الخنزيرية " عوض الصفات السيئة كعدم الغيرة على الزوج ... ويمكن توضيح هذه الحجة في المعادلة الآتية :



¹ ينظر : ابتسام بن خراف، الخطاب السياسي في كتاب الإمامة و السياسة لابن قتيبة، مرجع سابق، ص96.

فهذه المعادلة حجّة ابن قيم الجوزية في إقناع المتلقي بأن النفوس البشرية طبائع، فمنها نفوس طبعها طبع الخنازير يمرّ بالطيبات فلا يهتم بها، مثله مثل الخنزير الذي لا يبالي بالطيبات، فلا يقع إلا على الخبائث والنجاسات، وهنا تبرز حجية الوصل الرمزي في تشبيه بعض الناس بطبيعة الخنزير. وهكذا كانت دلالة الخنزير بالنسبة للقبح والرداءة، مثل الهلال بالنسبة لحضارة الإسلام، والصليب بالنسبة للمسيحية، والميزان إلى العدالة.¹ " فالواقع أنّ مؤسس الخطاب الحجاجي يعي عادة الفضاء الذي يتحرّك فيه خطابه، ويعرف ضرورة الرموز المعبرة عن انتماء متلقيه الثقافي والديني والاجتماعي، فيوظفها بطريقة ذكية تمكن من الإقناع والحمل على الإذعان"²، فلفظ " الخنزير " هنا رمز للخبث والسوء. ومنه فالمحاجج بالحجّة الرمزية " والتي لها قوة تأثيرية في الذين يُقرّون بوجود علاقة بين الرامز والمرموز"³ يُحمّلها بعداً اجتماعياً ودينياً يسعى من خلاله إلى إقناع المتلقي بما يصبو إليه.

3.1. الحجاج المؤسسة لبنية الواقع:

هذه المصنفة الثالثة التي لا تتأسس على معطيات الواقع ولا تقوم على فرضياته وحقائقه، وإنما تتدخل في عملية البناء و" تؤسس هذا الواقع و تبنيه، أو على الأقل تكمله وتظهر ما خفي من علاقات بين أشيائه، أو تجلي ما لم يتوقع من هذه العلاقات"⁴، وبهذا فإن هذه الحجج تنقل المدركات المساهمة في وضع حدود الواقع المقصود، وذلك عن طريق الربط بين الأحداث والوقائع المتتابعة والمترابطة ترابطاً مكانياً أو زمانياً أو رمزياً.

وتتأسس هذه الحجج المؤسسة لبنية الواقع على ثلاثة أصناف من أنواع الحجج وهي:

1.3.1. تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة :

إن المقصود بالحالات الخاصة هي تلك الحالات المعزولة والمنفردة التي تتحوّل في الحجاج إلى قاعدة عامة قابلة للاستدلال " فيتأسس الواقع على ظاهرة مفردة يتم توسيعها بحيث تصبح عامّة، لا مجرد حالة خاصة، ثم الانطلاق منها وبناء الواقع عليها"⁵.

¹ ابنتام بن خراف، الخطاب السياسي في كتاب الغمامة و السياسة لابن قتيبة، مرجع سابق، ص96.

² سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه) ، مرجع سابق، ص237.

³ صابر الحباشة، التداولية و الحجاج مداخل ونصوص، مرجع سابق، ص48.

⁴ المرجع نفسه، ص61.

⁵ الحسين بنو هاشم : نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، مرجع سابق، ص80.

ومن هذه الحالات الخاصة نذكر:

1.1.3.1. الشاهد (l'exemple) :

ومعناه " أن يُحاجج المرء بواسطة الشاهد، ومعناه افتراض وجود انتظام أو اطراد لما يوفر الشاهد تجسيدا له، فهو يسعى إلى إثبات قاعدة ما، انطلاقا من حالة خاصة، عن القانون أو البنية التي تكشف عنها هذه الحالة"¹، وهكذا فإن الحجاج بالشاهد "يمر من حالة خاصة إلى قاعدة عامة بغية إثباتها، تشكّل الحكاية التي تسرد الطريقة التي ارتقى بها شخص مجتهد موهوب السلم الاجتماعي، درسا في التفاؤل والإيمان بمجتمع يسمح بمثل هذا الحجاج"²، وقد لا تكون الغاية في الحجاج بالشاهد المرور من حالة خاصة إلى حالة أخرى لا إلى قاعدة ما، وينطبق هذا الكلام على ما قاله أرسطو بخصوص المثل التاريخي : " ومما يدخل في الأمثال التاريخية أن يذكر المرء أن من الضروري القيام باستعدادات ضد الشاهنشاه وعدم تمكينه من إخضاع مصر، لأن داريوش لم يعبر إلى اليونان إلا بعد أ، استولى على مصر، ولم يكذب يستولي عليها حتى عبر (إلينا)، وتبعاً لذلك فإنه إذا فعل الشاهنشاه نفس الشيء فإنه سيعبر، ولهذا ينبغي ألا نسمح له بذلك"³.

وإذا تمّ تركيب الشاهد مع حجة " بالأحرى " (argument a fortiori) فإن ذلك سيفتح المجال أمام استعمال الشاهد التراتبي (l'exemple hiérarchisé) بالشكل الذي أشار إليه أرسطو في قوله: " حين أراد ألقيداماس أن يثبت أن العباقرة مكرمون في كل مكان، قال : إن الفارسيين أكرموا أرخيلوخس على الرغم من سلاطة لسانه، وأهل خيوس كرموا هوميروس، على الرغم من أنه لم يسد خدمات عامة، وأهل موتلينا كرموا سافو بالرغم من أنها امرأة، واللاقديمينون وهم قوم لا يحبون العلم انتخبوا خيلون عضوا في مجلس شيوخهم"⁴.

ومنه، فإنّ توظيف الشاهد في الخطاب يكون من أجل تقوية دعوى ما أو تأسيس وبناء قاعدة معينة، لا سيما " في الحالات التي لا توجد فيها عادة مقدمات (des pérennises)"⁵، بحيث تكون الأطروحة

¹ الحسين بنو هاشم : نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، مرجع سابق، ص83.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ أرسطو: فنّ الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1986م، ص154-155.

⁴ المرجع نفسه، ص172.

⁵ عبد الله صولة : في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص54.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

محلّ نقاش وخلاف بين المتلقّي والمُحاجج، أين يتمّ استخدام الشّاهد من طرفهذّا الأخير بغية تثبيت وترسيخ قاعدة خاصة في عقل المتلقّي.

لذلك " يستدلّ المجتمع أحيانا لدعواه بحالة مفردة معزولة يؤسس عليها حكما يسعى إلى تعميمه وتوسيعه، فيبرز العام من الخاص"¹. ومثال ذلك: أن " نقول زيد الملك جنح للطغيان لأنه طلب أن يكون له حرس خاص، هو قاعدة خاصة يؤتى بها لدعمها بمثل ملكين سابقين هما عمرو والحارث فقد طلبا للحرس الخاص، وأصبح بواسطته طاغيتان"².

في هذا الشاهد، تظهر الحالة الخاصة في كون زيد سيصبح طاغية بسبب طلبه للحرس الخاص، حيث تدل عليها وتثبتها حالة أخرى تعتبر شاهدا سابقا وقوعه، ويتمثل في أن عمرو والحارث أصبحا طاغيتين بعد طلبهما لحرس خاص، أي أنه انتقال من خاص إلى خاص، كما يمكن اعتبار قضية عمرو والحارث قاعدة عامة يؤتى بها ويستدل بها على حالة خاصة (زيد).

ويدخل في المعنى " الاستشهاد بالنصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القواد الخالدين في نظر الجماعة المقصودة"³.

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى الفرق بين الشاهد والمثل : فهذا الأخير هو إيراد الأمثال المعروفة في الثقافة الخاصة بكل شعب، مثل أمثال كليلة ودمنة ... في حين أنّ الشاهد هو إيراد حالة خاصة يراد بها توضيح الكلام.

وتتجلى لنا تقنية الشاهد في قول ابن القيم :

" كَمَا أَنَّ الشَّاةَ الَّتِي لَا حَافِظَ لَهَا وَهِيَ بَيْنَ الذَّنَابِ سَرِيعَةُ الْعَطَبِ، فَكَذَا الْعَبْدُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللَّهِ فَذَنْبُهُ مُفْتَرَسُهُ وَلَا بُدَّ "

وُجد هذا الشاهد تحت فصل عقوبات الذنوب وفي سياق الحديث عن العاصي نتيجة لذنوبه ومعاصيه التي تجعله دائما في أسر الشيطان، وسجن الشهوات وقيود الهوى، ليكون بذلك أسير مسجون مقيد، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة وهو بهذا القلب المسجون ؟

¹ عبد القادر قادا : الحجاج في الخطاب السياسي، الرسائل السياسية الأندلسية خلال القرن الهجري الخامس أنموذجا دراسة تحليلية، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015م، ص197.

² عبد الله صولة : في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص54.

³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة : الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص131.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وبهذا دعم ابن القيم كلامه هذا بالشاهد الذي هو الداعم والمكرس لقاعدة خاصة حصل الخلاف عليها.¹ من خلال تجسيد الشاهد لنظام معين متمثل في عقوبة العاصي وهو نظام متفق عليه تنطوي تحته القاعدة الخاصة، والمتمثلة في القلب المسجون المحيط بالشهوات والآفات...، فيبحث عما تكشفه الحالة الخاصة من نظام متفق عليه ليحصل الدعم للقاعدة الخاصة المختلف عليها²، ومن هنا يكون الشاهد متفقا عليه وحجة على المخاطب، ذلك أن هذه العقوبة حق في عدم استجابة الدعاء مثلا، غير أن هذه الأحقية لا تصل إلى درجة الإلزام بل هي في محيط الإقناع الحجاجي لا غير. وعند استقراءنا نجد أن كلام ابن القيم أثبت قاعدة كامنة فيه هي " أن للعاصي عقوبات وخيمة تؤدي به إلى الابتعاد عن الله عز وجل "، وهذه القاعدة تتمثل في الشاهد بإبراز صفات العاصي وهي (القلب المأسور الذي احتوشته الآفات).

وتكمن حجة الشاهد في التشبيه بين أمرين بغية تقريب المعنى أكثر إلى المخاطب، ومنه الإقناع بطريقة أشد، حيث أنه كلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت من الراعي كانت أقرب إلى الهلاك، كذلك العبد الذي يكون عليه حافظ من الله بالتقوى (أي مصون ومحمي من الله بعينه التي لا تنام) يكون بعيدا عن مآثم الدنيا ومن افتراس الذئاب له (شرّ العباد، الشهوات...). وهذه وقاية حصينة بينه وبين ذنبه كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة.

وأصل هذا كله أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات، وحقيقة هذا الابتعاد مراتب بعضها أشد من بعض.

يتضح مما سبق أن تقنية الشاهد قد استعملت كوسيلة للوصول إلى إقناع المخاطب بضرورة الابتعاد عن المآثم والمعاصي بغية استحقاق العبد للاستجابة من ربه، وهذا مما يفلت من قيمة الإلزام ليبقى في محيط الإقناع. فكان مرتكز هذه التقنية هو التشبيه بالشاة والذئاب التي وظفت كشاهد يؤسس لقواعد تخدم عملية الإقناع، حيث جاءت " لتثبيت القاعدة المعروفة و المسلم بها "³ وذلك بتقديم حالات خاصة توضح القول ذا الطابع العام، و تقوي حضور القول من الذهن "⁴. ومنه فإن حجاجية الشاهد تكمن في التشبيه بين شيئين بغية الإقناع.

¹ ينظر : عبد الله صولة، في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص54.

² ينظر : الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص83.

³ ينظر : المرجع نفسه، ص84.

⁴ حمادي صمود : أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مرجع سابق، ص337.

2.1.3.1. المثل (l'illustration) :

إذا كان الشاهد يستخدم لتأسيس قاعدة ما، فإن المثل يستخدم لتوضيح قاعدة معروفة ومسلم بها، أي ليعطيها نوعاً من الحضور في وعي المستمع¹، فالمثل أقلّ عرضة للتأويل إذا ما قيس بالشاهد، ويرجع ذلك إلى ارتباط المثل بمعارف معروفة ومقبولة لدى الناس سلفاً، لهذا السبب ينبغي للمثال أن يستهدف المخيلة في حين ينبغي أن تكون حقيقة الشاهد أكيدة وغير مجادل فيها²، فكيفية وصف الحالة الخاصة مرهونة بالدور الذي يراد لها أن تقوم به في الحجاج.

إن الأمثال هي "بنيات مستمدة من الواقع الماضي بما يختزنه من تجارب إنسانية، وأحداث تاريخية ذات قيمة مجتمعية تحظى باهتمام الأفراد، وتستخدم داخل القول الحجاجي للإقناع بما تقدمه من تصور تجريدي للأشياء، وما تتضمنه من مشابهة يستدعيها سياق القول الحجاجي"³ كونها ناتجة عن واقعة حقيقية حظيت بالقول العام، ولأنها كذلك فهي قوة حجاجية مؤثرة في الجمهور، ويمكن أن يستدلّ بها على حالة خاصة مشابهة في الخطاب الحجاجي، لما يتضمنه المثل من حادثة أو قصة أو واقعة ما.

وهكذا، فإن المثل يؤتى به من أجل "توضيح القاعدة وتكثيف حضور الأفكار في الذهن"⁴، وبالتالي يقوي درجة تصديقها لدى المتلقي، وتوضيحها بشكل يجعلها كأنها ماثلة بين يديه، "إن حكايات قليلة ودمنة مثال جيد في هذا الإطار، فهي تبدأ دائماً بتسطير القاعدة قبل سرد أحداث الحكاية التي تأتي لتوضيح تلك القاعدة"، فهي تنطلق من قضية أو مسألة عامة إلى حالات خاصة تجليها وتوضحها. وتبرز هذه التقنية الحجاجية في قول ابن القيم: "والذنب له، فهو الجاني على نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر: "يداك أوكتا، وفوك نُفخ".

قال المفضل: أصله أنّ رجلاً كان في جزيرة من جزائر البحر، فأراد أن يُعبر على زق نفخ فيه فلم يحسن إحكامه، حتى إذا توسّط البحر خرجت منه الريح فغرق، فلما غشيه الموت استغاث برجل، فقال له: يداك أوكتا وفوك نُفخ"⁵، ومعنى هذا أنه يُضرب لمن يجني على نفسه الحين.

¹ الحسين بنو هاشم : نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، مرجع سابق، ص84.

² المرجع نفسه، ص87.

³ قدور عمران : البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجّه إلى بني إسرائيل، مرجع سابق، ص46.

⁴ صابر الحباشة : التداولية و الحجاج مداخل ونصوص، مرجع سابق، ص49.

⁵ أبو الفضل النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج2، ص414.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وقد أورده في سياق العشق الداء القاتل، وهذا بغية الإقناع بأن آفات الدنيا و الآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب، وسبب ذلك أنّ القلب كلما قُرب من العشق وقوي اتّصّاله به بُعد من الله ، وإذا بُعد القلب من الله طرقت الآفات من كلّ ناحية وسيطر عليه الشيطان، ولهذا فإنّ عاشق الصور سبب هلاكه أتى منه .

3.1.3.1. القدوة و القدوة المضادة :

لا شك أن مدوّنتنا تختلف عن أي مدوّنة إذا ما تناولناها بالدراسة في ضوء الحجاج المؤسّس لبنية الواقع. وسنراعي هذه الخصوصية في تحليلنا لحجّتي القدوة و القدوة المضادة المتجلّيتين فيها :

1- القدوة (le modèle) :

من الحالات الخاصة المؤسسة لبنية الواقع نجد حجّة القدوة وهي ما يسمّيها البعض بالنموذج والتي يستخدمها المحتجّ أنموذجاً ذا قيمة اجتماعية معترف بها ومُسلّم بها، للحض على عمل ما اقتداءً به ومحاكاةً له ونسجاً على منواله "،¹ أي أن هناك حالات خاصة يُمكن أن نقدّمها " كقدوة يحتذى بها، غير أننا لا نقنّدي سوى بمن هم أهلٌ لذلك، أي هؤلاء الذين نعجب بهم والذي يتوفرون على سلطة أو صيت اجتماعي يعود إلى كفاءتهم أو وظائفهم أو إلى صفّهم الاجتماعي "،² وبذلك "يأخذ شكل المثال الذي يكون معياراً للاتباع"³. بمعنى أنّ كل هذا يُقدّم للمتلقّي كقدوة يحتذى بها ويُسلّم بها، لحثّه على سلوك وفعل أو موقف معيّن، وكذا لترسيخ قضية أو دعوى معيّنة.

إنّ ما يوفّره كائن القدوة " يصلح على صعيد السلوك لا لتأسيس قاعدة عامة أو دعمها فحسب، وإنّما يصلح كذلك للحضّ على عمل ما اقتداءً به ... وإن بطريقة غير موفقة تمام التوفيق"⁴، ولا تصلح القدوة للحجاج ما لم يحرز المخاطب قبول المخاطب للقيمة التي يُمثّلها القدوة "⁵.

بما أن القدوة سيكون معياراً لسلوكيات من يتخذ منه حجّة له و يقتدي به في أعماله فإنّ هذا يجعل من القدوة ملزماً بأن " يُسهر على تلميع صورته، ذلك أنّ انحرافاً واحداً قد يستخدم تبريراً لعشرات الانحرافات من قبل غيره "⁶.

¹ عبد الله صولة: في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص55.

² الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، مرجع سابق، ص86.

³ فيليب بروتون،جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص54.

⁴ عبد الله صولة: في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص55.

⁵ ينظر : فيليب بروتون،جيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، مرجع سابق، ص54.

⁶ عبد الله صولة: في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص56.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وبالتالي فإنّ توظيف القدوة يُساهم كثيراً في حجاجية الخطاب، وجعله يحظى بقبول واسع، يتضح ذلك أن " أنسب المجالات لتوظيفه مجال التوجيه والقيادة، توجيه المتلقي إلى سلوك معيّن وقيادته نحو موقف محدد"¹.

وحتى يقوم القدوة بأداء دوره الحجاجي في الخطاب، يجب على المحتجّ أن يُحسن اختياره بما يُوافق ظروف ومقام متلقّيه، فالحجاج بالقدوة مثله مثل حجة السلطة يفترض وجود سلطة ضامنة للفعل المزمع القيام به"².

ومن أمثلة الحجاج بالقدوة قول الحجاج بن يوسف الثقفي مخاطباً أهل العراق: " يا أهل العراق، بلغني أنكم تزورون عن نبيكم أنه قال: " مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرِ رِقَابٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُوبَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، حَتَّى يَفُكَّهُ الْعَدْلُ أَوْ يُؤَبِّقَهُ الْجَوْرُ، وَأَيُّمُ اللَّهِ إِنِّي لِأَحَبُّ إِلَيْيَ أَنْ أُحْشَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ مَغْلُوبًا، مِنْ أَنْ أُحْشَرَ مَعَكُمْ"³، وأيضاً من أمثلة ذلك الاحتذاء كوننا مسلمين بالرسول " صلى الله عليه وسلم " الذي هو قدوتنا الأولى في الأفعال والأقوال، وكذا بالصحابية رضوان الله عليهم الذين كانوا يتخذون الرسول (صلى الله عليه وسلم) قُدُوةً.⁴

هذا فيما يخصّ حجة القدوة (النموذج)، والتي تقابلها حجة القدوة المضادة (النموذج المضادّ). وفي كتاب الداء والدواء يقول ابن القيم: >> " ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين نِكْرَهُ، وَيُعَلِّيَ قَدْرَهُ. ولهذا خصّ أنبياءه ورُسُلَهُ من ذلك بما ليس لِغَيْرِهِمْ ...، كما قال تعالى: " وانكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارَ (46) << (سورة ص/45-46).

فهذه القدوة دليل حيّ على نعم الله عز وجل على العبد ومن ذلك رفع مكانتهم وقدرتهم، وهو الأمر الذي خصّ به أنبيائه المرسلين إبراهيم، إسحاق، يعقوب ... وهم القدوة التي يجب اتباعها: فقد خصصهم الله بخصيصة وهي الذكر الجميل الذي يذكرون به في الدار الآخرة. وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل حيث قال: "واجعل لي لسان صدق في الآخرين " (الشعراء/84) وقال سبحانه عنه وعن بنيه " ووهبنا لهم

¹ سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص245.

² الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، مرجع سابق، ص86.

³ أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ج2، ص295.

⁴ مثال من عندنا بغية توضيح الفكرة.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليًا" (مريم/50). وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم " ورفعنا لك ذكرك " (الشرح/4) فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم.

فإذا دام العبد على امتثال أوامر ربه سبحانه و كان عبداً شكوراً متبعاً آثار الرسل والأنبياء، رفع الله قدره، وكتب له الأجر في الدنيا والآخرة. فالأنبياء والرسل قد اصطفاهم الله وجعلهم قدوة لأممهم، رباهم وأدبهم وكرمهم بالرسالة وعصمهم من الوقوع في المعاصي وأيدهم بالمعجزات، فهم أكمل البشر خلقاً وخلقا وأفضلهم علماً وأصدقهم قولاً وأعطرهم سيرة قال تعالى " وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين " (الأنبياء/73)،

ولمّا كان الأنبياء والرسل بهذه المنزلة العالية من الطاعة وحسن الخلق، وعلو القدر... ، أمرنا الله بالافتداء بهم، فقال : " أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " (الأنعام/90) وقوله أيضا " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً " (الأحزاب/21) فأتباع الرسل لهم نصيب.

وبهذا فقد احتجّ ابن القيم على المخاطب (الجمهور) بالقدوة، ويمكن أن نرى هذه المتوالية قد اكتسبت حجيتها من ثلاثة أوجه.

أ- **الوجه الإلزامي** : إنّ فعل شكر الله على النعم، قد أمر به الله، واكتسب حجّيته والزامه من خارج السياق، " نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر " (القمر/35) وهذا حدو لطريق الأنبياء، وبما أن القدوة أمر باتباع سبيل الأنبياء في الشكر على النعم، والمخاطب عمل به، فهذا سيكون متمماً للدقة. - الحجة غير الملزمة -، فالافتداء ملزم بغض النظر عن كونه مقنعاً أم لا.

ب- **الوجه الإقناعي بالفهم التجريبي** : نجد في المتوالية ملفوظين يُبيّنان ماهية عمل القدوة التي تتصف بعلو الذكر والقدر والشأن بين العالمين، لنصل إلى درجة الإقناع بلزوم الافتداء بأفعال وأقوال الأنبياء، فقوله : ولهذا خصّ أنبياءه ورسله من ذلك " وقوله أيضا " أولى الأيدي والأبصار " يبينان مظاهر القدوة والعظمة في عمل القدوة، وهما وجهان إقناعيان تجريبيان لصحة إتباع هذا العمل، بغض النظر عن السياقات الأخرى، فيما أن عمل القدوة يتصف بالاتزان والشكر، والتوبة والطاعة... وهو يستحق الافتداء به في الحياة الدنيا، عندها يكون عمل المخاطب في الإتباع على القدوة العامل بهذا العمل الكامل الحجة.

ج- **الوجه الإقناعي بالفهم العقلي**: ويتجلى في " يُعلي قدره " وأيضاً في قوله تعالى : " إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار " (سورة ص/45-46)، فابن القيم هنا يرسم لنا صورة عقلية عن القدوة، وفضل الله

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

على أنبيائه وأتباعهم التي من لوازمها الاقتداء بهؤلاء الصالحين، وهذه النتيجة العقلية لم تبتعد عما جاء به القرآن الكريم، فهي مثال حجاجي يثبت ضرورة الاقتداء ومظاهر فضل الله يقول تعالى " وَأَيُّكُمْ بِبَصِيرَةٍ وَّرَزَقُكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " (الأنفال/26).

2- القدوة المضادة (l'anti-modèle) :

هو القدوة التي تشكّل أعماله حجة لتجنبها لا للاقتداء بها، فيكون " الحض لا على الاقتداء بطبيعة الحال وإنما على الانفصال عن الشخص الذي يمثل عكس النموذج "،¹ فكل سلوك صادر عن القدوة المضادة لا يكون حجة للسعي إلى تجنب ذلك العمل فحسب، بل سيكره كل ما يصدر عنه، وإن صدر عنه جنوح إلى السلم فذلك سيكون حجة للجنوح إلى الحرب، ويمكن تمثيل الشيطان بالقدوة المضادة، فما يصدر عنه من فعل أو قول سيكون دائما مدعاة للابتعاد عنه، فهو القدوة المضاد للقدوة المطلقة - الله سبحانه وتعالى -، فمن تمسك بما أمر الله به سيكون كافيا لنجاته.² ويمكن التمثيل كذلك لهذه التقنية بقولنا : " عليك بالتفوق في الدراسة وإلا ستفشل في حياتك مثلما فشل عمر ؛ ف (عمر) هنا يمثل قدوة مضادة، وهي دعوى للانفصال عن شخصه.

أما في مدونتنا فتبرز في سؤال ابن القيم : " ما الذي سلط الرّيح العقيم على قوم عادٍ حتى ألقنهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية، ودمرت ما مرّ عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة " .

إن هذا الكلام يُبرز لنا تقنية القدوة المضادة، فعلى الرغم من نعم الله على قوم عاد (الأراضى الخضراء، كثرة الأنبياء، البنيان الشامخة...) إلا أنهم " أصروا واستكبروا استكباراً " (نوح/7)، فأشركوا بالله عبادة فأرسل الله لهم هود عليه السلام لتذكيرهم بنعم الله وإحسانه إليهم ويأمرهم بالتوبة والاستغفار، إلا أنهم كذبوه واختاروا طريق الهوى فسلب الله عليهم عذاباً شديداً بالريح العقيم.

ومن هنا نجد أن القدوة المضادة قد أخذت حق القدوة السيئة التي يحاول ابن القيم الانفصال عنها بوساطة حسن الاقتداء الذي سيؤمن بدوره اتصال ابن القيم بالقدوة الحسنة من جهة، واعتصام المخاطب بالقدوة من القدوة المضادة بالالتجاء إلى من يدفعها عنه وهو القدوة من جهة أخرى.

¹ عبد الله صولة: في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص56.

² ينظر : الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، مرجع سابق، ص86.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وقد ضرب هذا النموذج المضاد لضرورة الاقتداء بالرسول خوفاً من عذاب الله، مثلما حدث مع قوم عاد الذين كفروا وسخروا من النبي هود عليه السلام. وبهذا فإن دور القدوة والقوة المضادة يُدرك جيداً حين نكون مقتنعين أننا وجدنا لها تجسيدا لا يرقى إليه الشك، وهذا في سبيل الإقناع بالمرام.

2.3.1. تأسيس الواقع بواسطة التناصب (التمثيل) (l'analogie) :

الاستدلال بالتناصب (التمثيل) هو من بين الحجج القائمة على الاتصال المؤسس لبنية الواقع، ويعرّف على أنه " طريقة حجاجية تعلق قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلكة، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مرتبطة"¹، ومن هذا التعريف يتضح لنا اهتمام التناصب بتشابه العلاقات بين الأطراف المتباعدة، وليس علاقة مشابهة بينهما، كأن نقول : إن العلاقة بين (أ) و (ب) تشبه العلاقة بين (ج) و (د)، فنحن بصدد علاقتين متشابهتين، "

فبين الثنائي (أ - ب) الذي يسميه بيرلمان التّيمة (theme)، والثنائي (ج - د) الذي يسميه الحامل (phore)، نثبت مشابهة تهدف إلى إيضاح التّيمة وتقويمها، وبنيتها بفضل ما تعرفه عن الحامل"²، أي أنّ التّيمة أو الموضوع (theme)، الذي نريد الدفاع عنه وإبرازه وتوضيحه من خلال حامل (phore) يكون منتما إلى مجال بعيد ومختلف من مجال الموضوع الحمول، وبالتالي لا بد أن يكون هذا الحامل حازيا بقبول مسبق لدى المتلقي، ومألواً عنده حتى يعطي الموضوع دلالة إقناعية، حيث تتأسس هذه الحجج على التخيل وهذا عن طريق " علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر، فتدخل بذلك مجال التشبيه والاستعارة، أو ما عالجه الفلاسفة تحت عنوان (القياس الشعري)"³، ويقوم هذا القياس على استدلال مباشر تتحكم فيه القدرة والكفاية الذهنية للمتلقي أثناء الحجاج، مع العلم أن القياس " لا يجب إلا عن مقدمين لإحداهما بالأخرى نعلق"⁴ وفق النحو الآتي :

- مقدّمة كبرى
- مقدّمة صغرى
- نتيجة

¹ عبد السلام عشير : عندما نتواصل نغير، تداوليّة لآليات التواصل والحجاج، مرجع سابق، ص97.

² الحسين بنو هاشم : نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، مرجع سابق، ص93.

³ سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه)، مرجع سابق، ص252.

⁴ ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفني محمد شرف، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر، 2017م، ص98.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وبهذا تؤثر حجة التناصب على المتلقي، أين يكون التناصب (التماثل) نوع من إعادة صياغة ووضع علاقة محدودة وخاصة قد تكون خفية، وفي علاقة أخرى مشابهة وعامة وأكثر جلاء، وكمثال على ذلك قوله تعالى " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون" (العنكبوت/41)، فالموضوع (thème) في هذه الآية الكريمة يتمثل في علاقة المشركين الذين يمثلون الطرف (أ) بأوليائهم وآلهتهم المزعومة من دون الله وهم الذين يمثلون الفرق (ب)، أمّا الحامل (phore) لهذه العلاقة أو القضية فهي علاقة العنكبوت التي تمثل الطرف (ج) بيتها الضعيف والوهن الذي مثل الطرف (ج)¹، وبالتالي يتجلى أمامنا تشابه علاقة المشركين بأوليائهم في اتخاذهم أصنامًا وآلهة من دون الله، ليرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد بعلاقة العنكبوت ببيتها الذي لا يجدي عنها شيئًا لضعفه ووهنه.

وتبرز هذه التقنية عند ابن القيم في قوله : " ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبَت القوة وجد الداء المحلَّ قابلاً، ولم يجد دافعاً، فتمكّن، فكان الهلاك ".²

ماثل العلامة ابن القيم الغيرة بالمناعة التي تحمي جسم الإنسان وتبعده عن الأمراض، مثلما تحمي الغيرة القلب فتحمي له الجوارح لتدفع بذلك السوء و الفواحش عنه، وبالتالي فإنّ التمثيل هنا جاء كحجة في سياق الكلام عن أضرار الذنوب والمعاصي، لتوضيح وإقناع المتلقي بفكرة مفادها أنّ أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له، لأنه يصوّر المعنى ويجعله قريباً إلى ذهن ماثلاً أمامه، بالإضافة إلى جماليته، ذلك " أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني [...] كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها ... " ².

ونستطيع من خلال الكلام السابق لابن القيم أن نستشفّ جملة معالم من الاستعمال الحجاجي لهذا التمثيل، حيث تمّ تشبيه الغيرة في حماية القلب من الفواحش والآثام، بحال محسوسة قريبة للذهن، دانية للعقل، فجاء ذلك في مشهد تصويري يستطيع المتلقي تخيُّله، بدليل إدراكه للقيمة التي تمتلكها المناعة في حماية الجسم من الأمراض، فكان ذلك أبلغ في تقريب المعنى للنفس، وأشدّ في تثبيت الصورة في الذهن،

¹ شعبان أمقران: تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، تخصّص الشعرية وقضايا النص الأدبي، إشراف: أستاذة التعليم العالي حفيظة روابنية، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2018م، ص231.

² عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط1، دت، ص 115.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وبهذا فإن الكلام المجرد عن تصويرية التمثيل يكون بمثابة المتخيل وهو بذلك ينتمي لعالم المدركات بالعقل، غير أنّ المدركات بالحسّ أبلغ تأثيراً وأشدّ إقناعاً، يقول الجرجاني: " وإن كان [التمثيل] حجاجاً، كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيّانه أبهر"¹.

ومن هنا يأتي دور التناسب في كشف حجب المعاني المجردة في تعاليمها و إنزالها إلى مستوى المدرك المعلوم عند الناس، فتصير الغيرة مناعة تؤدي بالمتلقي إلى التسليم والإذعان، وهذا ما يقرره الزمخشري، إذ لضرب الأمثال عنده " شأن ليس بالخفي في إبراز خيبات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوسّم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد ... وفيه تبيكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبّي"².

فبيّتدُ التناسب عن التشبيه الظاهر الصريح، وهو أقوى منه، لأن التناسب " لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام، أو جملتين أو أكثر، حتى إنّ التشبيه كلما كان أوغل في كونه عملياً محضاً، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر"³.

ووجه الشبه في التناسب منتزع من متعدّد، وتكون الجمل على ترتيب مخصوص ويجب " أن يكون لها نسق مخصوص، كالنسق في الأشياء، إذا ترتّبت ترتيباً مخصوصاً كان لمجموعها صورة خاصة مقررة"⁴، وفائدة هذا الترتيب هو عدم اختلال المعنى حيث تمّ ذكر الغيرة في القلب أولاً، وبعدها ذكر القوة التي تدفع المرض وتقاومه وهذا ما أدّى إلى فهم المعنى المقصود والواقع أنّ هناك صلة تربط بين التناسب والاستنباط في طرق الاستدلال، حيث يرى أرسطو أن " آليات بناء المعرفة هي الاستنباط والاستقراء والتمثيل، لكنّه يعتبر التمثيل أضعف الحلقات، ويرجعه إلى التعقل بالمثل، في حين يرى أنّ العلم يقوم على البرهان (خصوصاً الاستنباط)، لأنّه يبحث عن اليقين"⁵.

¹ عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق، مرجع سابق، ص115.

² الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، لبنان، ط3، ج1، ص72.

³ عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص 109.

⁴ المرجع نفسه، ص110.

⁵ بناصر البُعزاتي: الصلة بين التمثيل والاستنباط ضمن كتاب التحاجج طبيعته و مجالاته ووظائفه، تنسيق: حمّو النقاري، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات و مناظرات رقم 134، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1427هـ/2006م، ص24-25.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

ومن هنا فإنّ التناسب يجري مجرى الحجّة والشاهد والدليل والمثال، لأنه يقوم على الاستدلال لتقرير المعنى في الذهن، وبواسطة التمثيل نستدل على المعاني المسكوت عنها والضمنية. ويعتبر بيرلمان التّناسب نمطا من التّدليل بقوله: " يبدو من المحال جدًّا الاستغناء عنه [يقصد التّناسب (التمثيل)] كلما تطرّق العقل لميدان جديد أو مألوف قليلا ¹، فلتناسب دور مهم في الابتكار كونه يقيم علاقات بين الأشياء، ويتأسس التّناسب على قياس الشيء بالشيء من جهة علاقة المشابهة أو من جهة المخالفة ².

فحينما اعتمد ابن القيم على التّناسب فإنّه قد قام بتجميع الأشياء ليدين بهما إلى حدّ الاتحاد، ليؤكد بذلك التّناسب العقلي والمنطقي بين المعاني، فليحتل بذلك مكانة مركزية في الإنشاءات العقلية، ذلك أنّ العقل يشتغل " عبر المزج بين التّداعي والاستعارة والمثال والعلامة والاستنباط في مستويات مختلفة متداخلة ³.

وبهذا أقيمت حجّة التّناسب التي ذكرها الجوزية على المشابهة بين حالتين (الغيرة/القناعة) بالاستناد إلى القياس والاستنتاج من خلال مقدمة واستنتاج نتيجة تبنى على المماثلة ويعتبر التّناسب "وسيلة حجاجية ذات تأثيرات في المتلقي من جهات عدة فهو خطاب للعقل بوصفه ينقل العقل من المعنى في الحالة التصويرية العادية إلى الحالة التّصديقيّة، لأنه بمثابة إحضار المعنى المدعى ليُشاهد كما هو في الواقع ⁴، فتكمن قوّة التّناسب في كونه حجّة عملية إقناعية تأثيرية، ليكون استعماله في الحجاج أقوى وأقدر على التأثير وبلوغ المرمى، والتّناسب يؤثر في المعاني ويقع فضله " في طريق إثبات المعنى دون المعنى نفسه ⁵، أي إثبات المعنى الضمني إثباتاً فعّالاً واضحاً مُقنِعاً.

¹chaimperlma, logique et argume,tation, presses universitaires de bruscelles, 1968, p134.

نقلا عن: بناصر البُعزاتي: الصلة بين التمثيل و الاستنباط ضمن كتاب التّحاجج طبيعته و مجالاته ووظائفه، مرجع سابق، ص29.

² ينظر: أحمد الطابعي، القراءة بالمماثلة في الشعرية العربية القديمة، منشورات زاوية مطبعة إبيث، الرباط، 2007، ص63.

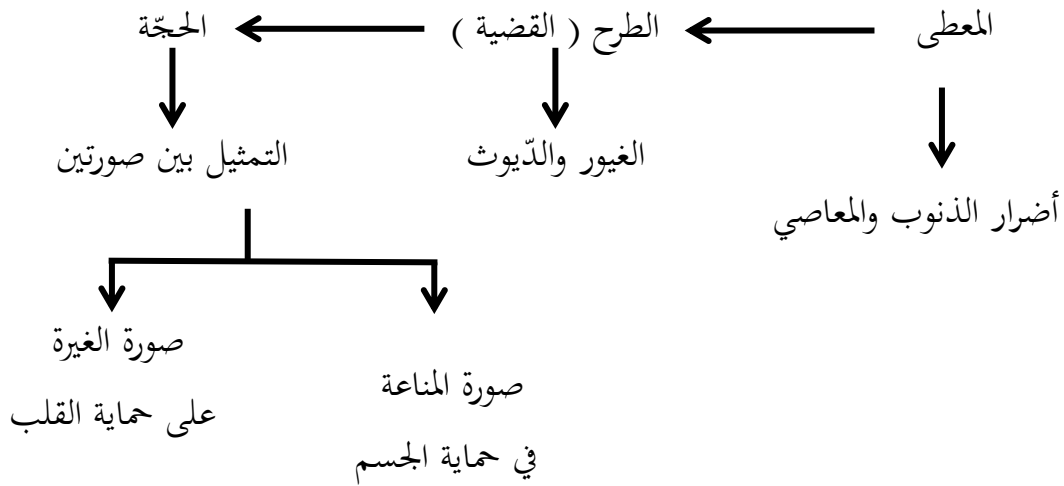
³ بناصر البُعزاتي، الصلة بين التمثيل و الاستنباط ضمن كتاب التّحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، مرجع سابق، ص28.

⁴ حافظ اسماعيل علوي، الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2011م، ص25-26.

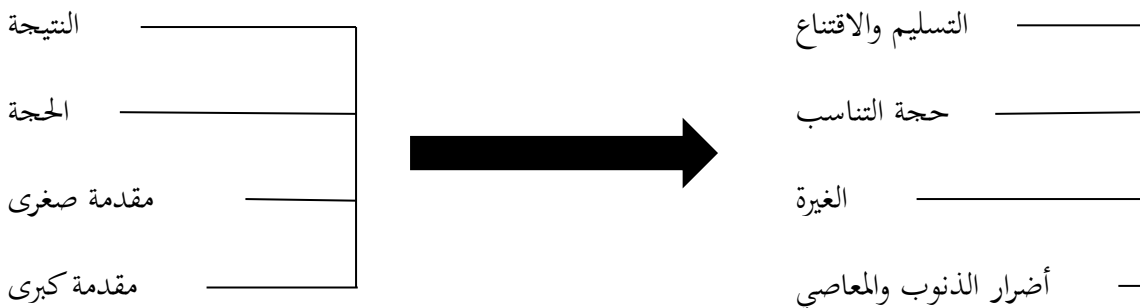
⁵ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط3، دت، ص64.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

ويمكننا أن نلاحظ السليمة الحجاجية لهذا التناسب مندرجة، حيث تدرج ابن القيم في توضيح فكرته؛ وذلك بذكره وتمثيله للغيرة في القلب كالمناعة في حماية الجسم، باعتبار أن الغيرة أسلوب للتعبير عن المشاعر اتجاه الأحبة ورفض مشاركتهم مع أحد، فهي عدسته تكبر الأشياء الصغيرة وتجعلها ذات قيمة، من خلال شعور الطرف الآخر بالاهتمام، فالمرء الذي يخاف ويغار على زوجه يجعله بعيداً - نوعاً ما - من ارتكاب الآثام كلبس الحجاب مثلاً أو النقاب أو الغيرة على دينه مثلاً، وكلّ هذا يجعله بعيداً عن الفواحش، حيث ماثل ابن القيم هذه القضية بالقوة التي تدفع المرض وتقاومه، أين يمثل الجهاز المناعي خط الدفاع في الجسم ضدّ الجراثيم والكائنات الدقيقة المسببة للأمراض، من خلال سلسلة من الخطوات التي تسمى بالاستجابة المناعية، وبالتالي الحفاظ على الصحة العامة للجسم، وهنا يتجلى وجه المماثلة (الحماية).



ويمكن تلخيص ما تقدّم في الترسّمة الآتية (من اجتهادنا) :



الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وعلى هذا يتبين لنا بعض معالم التوظيف الحجاجي في هذا التناسب من خلال بلاغة التصوير المركب في صورته والموضح في نسق موجز بليغ أدى الفكرة بتمامها من غير إخلال، وجلى الفكرة بكمالها من غير إملال.

يقول الجرجاني: " أنس النفوس موقوف على أن تُخرجها من خفي إلى جَلّ، وتأثيرها بصريح بعد مكني، وأن ترثها في الشيء تُعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعلما يُعلم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظن كاليقين فلهذا يحصل بها العلم هذا الأُنس أعني الأُنس من جهة الاستحكام والقوة"¹، فالجرجاني هنا يشير إلى سرّ تأثيرية هذا النوع من التناسب، فإنه يصوّر المعنى في قالب فيه من الخفاء مما يحرك الذهن لاكتشاف معناه، والظفر بحقيقته، فإذا كان ذلك كذلك أوقع في النفس لذة الكشف وطرف الوجدان، ويزيد ذلك قوة أن تكون الصورة المشيرة (الممثل بها) أقرب إلى حسّ المتلقي من الصورة المشار إليها بالتناسب (التمثيل)، فإن ذلك يزيد من درجة الاقتناع عند المتلقي لأنه أوثق بما يدركه بحواسه مما يدركه بعقله.

بعد كل ما تقدّم، نستنتج أن حجاجية التناسب التي وظّفها ابن القيم تكمن في كونه كلما تعددت الصور كلما كانت أقوى تأثيرا ليكون بذلك رافداً من روافد العلمية الإقناعية.

✓ الاحتواء على طاقات من الحجاج والإقناع عبر تصوير المعنى (الهدف/المرام) بطريقة تجعل المتلقي يسلم بالقضية المطروحة أو المعروضة في المعنى (المصدر).

✓ ارتكازها في الفعالية على قوة الروابط التي يقيمها الممثل بين مجالي المصدر والهدف، فكأما أجاد إبانة الروابط بينهما، كان تعالق المجالين أقوى، وصورة التقارب بينهما أظهر، وهو ما يزيد في اقتناع المتلقي بالقضية المطروحة، حيث تصير المسألة حينئذ سيرورة استدلالية، ينتقل فيها الذهن بسلاسة من قضية مسلّم بها إلى أخرى محلّ الحاجة.

المتلقي → التأثير + الإقناع = حجاجية التناسب (التمثيل)

¹ عبد القاهر الجرجاني،: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص122.

3.3.1. تأسيس الواقع بواسطة الاستعارة (Métaphore) :

لا ينظر بيرلمان إلى الاستعارة بأنها مجرد صورة أسلوبية لتحميل الكلام – إن كان من وظائفها – وإنما تعدى ذلك إلى اعتبارها حجة تؤدي وظيفة إقناعية، هذه الاستعارة مشتقة من مفهوم التمثيل، فإذا كان التمثيل يُعنى بتشابه علاقة بين الحامل (phore) والموضوع (thème)، فإنّ الاستعارة " هي تمثيل تكثّف فهو موجز، ووجهالكثافة فيه والإيجاز، الاندماج الحاصل بين أحد عناصر الموضوع، وأحد عناصر الحامل، اندماجاً لا يمكن معه معرفة أيّ العنصرين هو الموضوع، وأيُّهما هو الحامل"¹، من هذا المفهوم يتجلى لنا أنّ الاستعارة قد اعتبرت تمثيلاً مكثّفاً، يُصهر فيه طرفاه و يتحدّان فلا يكاد تمييز أحدهما عن الآخر، رغم اختلافهما في الأصل، وبمكثنا صياغة ذلك انطلاقاً من التمثيل والانتهاة إلى الاستعارة بالتعبيرات الآتية :

(أ) بالنسبة إلى (ب) ← وهي علاقة الموضوع (thème).

مثل : (ج) بالنسبة إلى النهار (د) ← وهي علاقة الحامل (phore).

ولتقريب هذا المعنى نمثّل بما يلي : " الشيخوخة للحياة هي ما يشكّله المساء بالنسبة للنهار"².

فالشيخوخة (أ) بالنسبة إلى الحياة (ب) ← الموضوع

مثل المساء (ج) بالنسبة إلى النهار (د) ← الحامل

انطلاقاً من هذا التمثيل (analogie) بإمكاننا صياغة علاقات جديدة ومكثفة تمثل استعارات

كالآتي :

(أ) منسوب إلى (د) ← شيخوخة النهار؛

(ج) منسوب إلى (د) ← مساء الحياة؛

(أ) هي (ج) ← الشيخوخة مساء³.

ومن خلال هذه الاستعارات اتحاد عناصر واندماجها رغم انتمائها لأنظمة مختلفة، التي بإمكانها أن

تحمل وظيفة إقناعية، ومع ذلك لا نجزم أنّ كلّ استعارة تحمل في طياتها طاقة حجّية، فإنها تكون " حجة

عندما تستخدم في الدفاع عن أطروحة أو عن رأي"⁴.

¹ عبد الله صولة: في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص60.

² الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، مرجع سابق، ص93.

³ ينظر : المرجع نفسه، الصفحة لنفسها.

⁴ فيليب بروتون : الحجاج في التواصل، مرجع سابق، ص123.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وهي الأكثر تضليلاً، لأننا نميل إلى اعتبارها تطابقاً، في حين لا نستطيع فهمها بطريقة مرضية إلا بإعادة بناء التناسب بإضافة الأطراف المحذوفة (المحارب وقد نزيد من تكثيف الاستعارة بتوليدها من التقابل بين صفة ما والواقع الذي تنطبق عليه، فحين نقول عن " الدعاء سلاح المؤمن ")، وهو الشيء الذي يتضح بالتناسب الآتي : " هذا الدعاء بالنسبة للمؤمن، مثل السلاح بالنسبة للمحارب"، فهذا الصّهر الاستعاري " الذي ينزع إلى المطابقة بين مجال الثّيمة ومجال الحامل بهدف خلق انفعال شعري غالباً، يفتح المجال لتلك الحركة المكوكبة بين الثّيمة والحامل بشكل أفضل من التناسب، حيث يصبحان غير قابلين للانفصال"¹.

وقد تبين لنا هذا الصّهر الاستعاري بالربط الإسنادي {الدعاء سلاح المؤمن} انطلاقاً من {سلاح المحارب} و {دُعَاءُ الْمُؤْمِنِ}، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض "؛ والمقصود بذلك أنّ في الدعاء راحة للنفس وشفاء لها من القلق والكرب، وهنا تمثيل بالمحارب الذي يمتلك الأسلحة من أجل الدفاع عن نفسه أو وطنه ...

فوجه التمثيل المكثّف هنا هو الاندماج الحاصل بين الموضوع (الدعاء للمؤمن) والحامل (السلاح للمحارب).

وبهذا وظّف ابن القيم هذه الاستعارة كحجّة للإقناع بأنّ المؤمن في حاجة مستمرة للدعاء الذي يكون سلاحه الفتاك، لتكون بذلك هذه الاستعارة مشحونة بطاقة دلالية وحجاجية كبرى.

وهنا تظهر فعالية الاستعارة وقوتها الحجاجية؛ إذ تمثّل أبلغ وأقوى الآليات اللغوية في التأثير والإقناع ، لأنها أدعى من الحقيقة لتحريك همّة المرسل إليه، إذ تهدف إلى تغيير المقاييس التي يعتمدها المرسل إليه في تقويم الواقع والسلوك وأن يتعرف على ذلك من المرسل ليكون سبب القبول والتسليم"².

وفي طرحنا السابق " الدعاء سلاح المؤمن "، استعار الكاتب لفظة " سلاح " وهي لازمة خاصة بالإنسان (شيء مادي)، وأوردها في غير ما وضعت له في الأصل، حيث تمّ تشبيه الدعاء بالشيء المادي الخاص بالإنسان (السيف) وحذف المشبه به، وأبقى على لازم من لوازمه وهو اللفظ " سلاح " وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

وهذا كلّه بغرض إقناع المتلقي أنّ الدعاء يكمن في النفس ليدافع عن المؤمن برفع البلاء عنه. والملاحظ أنّ الغالب على هذه الاستعارة الموظفة في الكتاب طابعها وعظي إنساني.

¹ الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، مرجع سابق، ص93.

² عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص496.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وأخيرا يمكن التأكيد على اقتران الجمال بالإقناع، واستحالة الفصل بينهما، فالمعنى يكون مقنعا ولكنه يحتاج إلى جمال يوشيه ويحفظ له رونقه، ويدعم فعله، والمعنى يكون جميلا، فتزداد قدرته على الفعل في المتلقي من كان مقنعا. وبهذا تتضح لنا حجاجية الاستعارة.

فقد صورّ الجوزية للمخاطب حقيقة الدعاء الذي يندمج فيه العقل مع القلب، الجسد مع الروح، الفكر مع العمل، ليكون بذلك سلاح للمؤمن الدائم، حيث " أعطى الحاجات الروحية الأهمية في كلّ فعل، و أضيف عليها معنًا جوهريًا في رؤية العالم وتصوّر الحياة الاجتماعية ¹."

إنّ فهو لم يوظّف الاستعارة لتزيين خطابه، ولا للمتعة وحدها، ولا لإثبات مهارته اللغوية إنّما كان يهدف بها إلى توجيه الفرد المسلم وتغيير سلوكه، وذلك للدور الذي تلعبه الاستعارة " في تحقيق الإثارة وفي إحداث انفعال معيّن لدى المتلقي بفضلها يستجيب لفحوى الخطاب ويتهيأ لقبول نتائجه والتسليم به ²."

وهنا تظهر أهمية الاستعارة في الكلام وفضلها في إبراز المعاني والكشف عنها، وفي ذلك يقول الجرجاني: " من الفضيلة الجامعة فيها أنّها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا ... تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ... فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحًا والأجسام الخرسة مبيّنة والمعاني الخفية بادية جلية ... إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون ³."

وبهذا، نكون قد أتمنا الحديث عن الحجج الاتصالية (الوصلية)، لننتقل بعدها الآن إلى نوع آخر وهو الحجج الفصلية (القائمة على الفصل).

2. الآليات الانفصالية (procèdes de dissociation) :

إضافة إلى التقنيات الحجاجية السابقة المتمثلة في طرائق الوصل التي تعمل على ربط عناصر متباعدة وأقربًا، اعتمد بيرلمان على تقنية حجاجية أخرى تقوم على الفصل حيث " يعمد فيها إلى الكل فيحدث

¹ عبد الحفيظ غرس الله : التصوّف الإسلامي والغيرية، إنسانيّات المجلّة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلم الاجتماعيّة، 2019م، ص37.

² سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيتّه وأساليبه)، مرجع سابق، ص131.

³ عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص33.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

فيه فصلا بين حقيقته وظاهره¹، أي بين عناصر الموضوع الواحد، وتجزئتها لأهداف حجاجية، وبالتالي، فإن الطرائق الانفصالية تقوم على الفصل بين عناصر تقتضي في الأصل وجود وحدة بينها ولها مفهوم واحد، وذلك أنها عناصر راجعة إلى اسم واحد يعينها، وإنما وقع الفصل بينهما وعمد إلى كسر المفهوم الواحد الذي يجمع بينها لأسباب دعا إليها الحجاج، وهكذا فإن الأشياء والمفاهيم والذوات ... التي تبدوا أنها تشكل كلاً واحداً لا يتجزأ وأنها تؤلف وحدة لا تنقسم، هي في الحقيقة قابلة لأن تُكسر وحدتها وترابطها إلى عنصرين وحدّين أساسيين يمثلان ثنائية: الظاهر/الواقع أو الحقيقي (*apparence/réalité*)، "قبالنظرة الأولى لا يكون الظاهر سوى تجلّ للواقع، ولكن حين تكون الظواهر (*les apparences*) متعارضة ... فإنها لا يمكن أن تمثل الواقع كما هو، لأنه محكوم بمبدأ عدم التناقض، يصبح من الضروري إذن تمييز الظواهر التي تطابق الواقع عن تلك التي تكون خادعة"².

فظاهر الشيء لا يدل بالضرورة على حقيقته، رغم ارتباطهما الوثيق، ليصبح ظاهر الشيء محل شك في كونه صادقا في تمثيله وتعبيره عن الواقع، أم أنه مجرد خداع ووهم وتضليل وصورة خاطئة ومزيفة عن الحقيقة أو الواقع، و من هذا المنطلق رأى بيرلمان أنه لغايات حجاجية" لا بدّ أن تكسر وحدة هذه الثنائية الظاهر/الحقيقي أو ما عبّر عنها بثنائية (الحد 1/الحد 2)، فالحد 2 لما كان تمييزه لا يكون إلا في علاقة بالحد 1 ومقارنة به، فإنه لا يمكن أن يكون إلا نتيجة فصل (*dissociation*) تحدّته داخل الحد 1 نفسه، سعياً ممّا إلى القضاء على ما يمكن أن نلمحه من مظاهر الحد 1 هذا من تناقضات ... ويزوّدنا الحدّ 2 في هذه العملية بالمقياس أو القاعدة التي تتيح لنا أن نميّز داخل مظاهر الحدّ 1 بين ما له قيمة، وما ليس له قيمة فنقول عن المظاهر غير المطابقة للحدّ 2 الذي يزوّدنا به الواقع إنها زائفة وخاطئة وظاهرية³، وبالتالي بالفصل بين حدّي الثنائية نستطيع أن نميّز أحدهما عن الآخر، وأن نقصي ونبعد كل ما يحمله الحد 1 (الظاهر) من تضليل وتزييف ومظاهر خادعة بعيدة عن واقع الحد 2 (الحقيقة)؛ أي إسقاط أحد الحدّين وإبقاء الآخر، أي أننا ننطلق من الحد 2 الذي يمثّل القاعدة والأساس والجوهر الذي نحكم من خلاله على صحة الحد 1، فترتفع قيمة الحد 2 وتحط قيمة الحد الآخر، ومن بين هذه الثنائيات على سبيل المثال ثنائية

¹ سعيد العوادي : تقنيات الحجاج في الدراسات العربية المعاصرة، عبدالله صولة أنموذجا، ضمن الكتاب الجماعي (الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة)، إشراف : حافظ إسماعيل علوي، دار ورد الأردنية، عمان، ط1، 2011م، ص271.

² الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، مرجع سابق، ص95.

³ عبد الله صولة: في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص62.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

عالم المادة/عالم المثل التي طغت على المشروع الفلسفي الأفلاطوني، وقد انبثقت عنها ثنائيات فرعية في محاورة فيدروس Phèdre، ومنها ظاهر/حقيق، معرفة حسيّة/معرفة عقلية، جسم/روح، تحوّل/ثبات، كثرة/وحدة، إنساني/إلهي¹.

ومن بين الثنائيات أيضا ما عرضها بيرلمان في مصنفه ثنائية : غاية/وسيلة، نتيجة/حدث، فعل/شخص، عرض/جوهر، مناسبة/سبب، نسبي/مطلق، ذاتي/موضوعي، تعددية/وحدانية، عادي/معياري، فردي/كوني، خاص/عام، نظرية/تطبيق، لغة/فكر، لفظ/معنى، حيث رأى الفكر الغربي المنتمي إلى الفلسفة الوجودية والتيار الوضعاني، قد تقبل هذه الثنائيات كما هي دون أن يناقشها بفصل حدّها الأول عن الثاني، بخلاف الفكر الميتافيزيقي الذي تبنّاه أفلاطون².

إن التعبير عن الثنائيات الحد 1/الحد 2 يكون وفق أساليب مختلفة يتجلّى فيها الفصل بين الحدّين، كاستخدام عبارات وسوابق (préfixes) معينة مثل (شبه) كقولنا : - والأمثلة من عندنا - شبه علمي أو شبه طبي، شبه عسكري، و (اللّا) كقولنا : اللّا شعور، اللّا أخلاقي وبعض الصفات مثل (المزعوم والموهوم) كقولنا الهيكل المزعوم ...، وهذه كلّها تشير إلى الحدّ 1، في حين الحدّ 2 يعبر عنه بعبارات دقيقة مثل استعمال الحرف التاجي الكبير (Majuscule) وأداة التعريف (الـ)، ونعوت مثل (فريد) و (حقيقي)³.

ومن بين أهمّ الطرق التي يفصل فيها بين طرفي ثنائية ظاهر/حقيقي أو واقع في المفهوم الواحد، أسلوب التعريف "les définitions" خصوصا إذا جاءت هذه التعريفات تزعم تقديم معنى حقيقي للمفهوم "le sens véritable"، في مقابل معناه الظاهري الجاري به العرف والعادة، مثل قولنا في مقام الاعتذار : نسيت أن أنجز ذلك العمل لأنني إنسان، وما سميّ الإنسان إلّا لنسيانه⁴.

وبهذا فإنّ الفصل بين المفاهيم تقنية حجاجية تسعى إلى حلّ التّعارضات التي تواجه الفكر بشكل شافٍ نظرياً، لإعادة الانسجام إلى رؤية الواقع، ولا يكون ذلك إلّا بالفصل بين المفاهيم المُسلّم بها في البداية⁵، وهذا الفصل عادة ما يتمّ باللجوء إلى :

¹ ينظر : عبد الله صولة، في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق ، ص62.

² ينظر : الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، مرجع سابق، ص97.

³ ينظر : المرجع نفسه، ص98.

⁴ ينظر : عبد الله صولة، في نظرية الحجاج من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص64.

⁵ ينظر : الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، مرجع سابق، ص95.

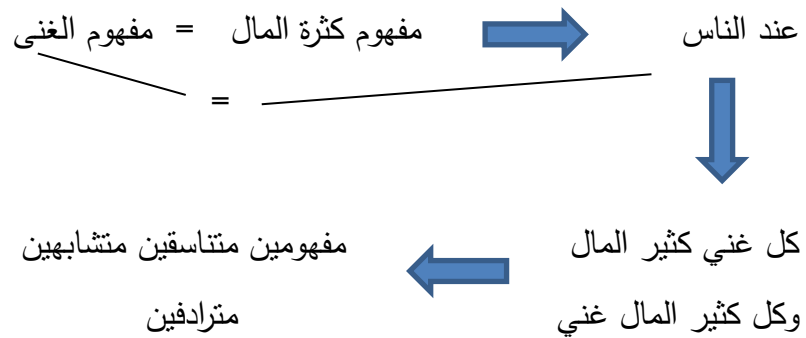
1.2. الفصل بين المفاهيم :

و يكون باستعمال استعمال ثنائية ظاهر/واقع (Apparence/Réalité) وتبرز هذه التقنية الحجاجية في قول ابن القيم : " مِنْهُمْ [أي : الناس] مَنْ يَمْلِكُ الْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَيَكُونُ مَالُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَبْلُغُ أَلْفَ دِرْهَمٍ أَوْ نَحْوَهَا، وَهَكَذَا الْجَاهُ وَالْعِلْمُ " .

في هذا النموذج، فصل بين مفهومين متشابهين هما: الغنى وكثرة المال.

ففي حين أنّ الظاهر (الغنى) معطى مباشر، وحدّ أول لكثرة المال، فإنّ " الواقع - الذي لا يعرف عادة، حين يكون معلوماً، إلا بواسطة الظاهر - يُصبح المعيار الذي يُمكن من الحكم على الظاهر "1، فكثير من الناس يظنّ أنّ الغنى ليس إلا كثرة المال من نقود وذهب وفضّة وتجارات وغيرها، وعندهم أنّ من ليس كذلك فليس من أهل الغنى ليكون بذلك.

ويمكن توضيح ذلك في الترسّمة الآتية (من اجتهادنا):



هذا عند الشائع من الناس، أمّا ابن القيم فقد وظّف التقنية الحجاجية في الفصل بين المفاهيم، والتي تقوم بالفصل بين المفهومين " الغنى " و " كثرة المال " الظاهران عند الناس أنهما متشابهين، لكن الحقيقة غير ذلك. ففصل بذلك بين مفهوم الغنى ومفهوم كثرة المال. وفق المعادلة الآتية :

مفهوم الغنى # مفهوم كثرة المال

حيث وضّح ابن القيم أنّه ليس كل كثير المال غنيّ، فقد تكون له القناطر المقنطرة من المال لكنه يعيش فقراً حقيقياً، فتراه دائماً خائفاً جائعاً مهموماً بعيداً عن الله عزّ وجلّ ... وماله لا يتجاوز 15% أمام غنى الله ونعمه عليه، فلا يبلغ في الواقع إلا ألف درهم أو نحوها.

¹ الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، مرجع سابق، ص96.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

ونجد الرسول صلى الله عليه وسلم يلفت الأنظار إلى المعنى الحقيقي للغنى حين يقول : " ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ،* ولكن الغنى غنى النفس " كما يقول أيضا : " لا بأس بالغنى لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم " (صحيح سنن ابن ماجه) .

وهكذا، فصل ابن القيم في مفهوم الغنى الذي يُعرف ظاهريا بمعنى كثرة المال (فقد يكون عنده مال قارون إلا أنه فقير)، ولكن في الواقع الغنى يكون بغنى القلوب والعلم والجاه بين الناس.

وهكذا، فإنَّ الغنى غنى القلوب وفقرها هو الداء لكلّ مرض نفسي، فالله تعالى يحب العبد التقي الغني الحقي؛ أي ليس الغنى الدائم عن كثرة المال، فإنه عرضة للزوال، إنما هو بالكمال النفساني الحامل بغنى القلب وبهذا أمكننا القول استنتاجاً من التقنية الحجاجية التي استعملها ابن القيم في هذا المقام، والتي أراد بها إقناع المتلقي، بأنّه ليس الغني غني المال والذهب، ولكنّ الغني غني الدين والأدب، حيث (حاجّ بفكرة أنّ الغني ليس ذاك الذي يملك آلاف وملايير المال من ذهب أو فضة ...)، والذي يبدو أن المفهوم الأوّل (١) والمتمثل في الذهب والمال يوافق الظاهر وما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، فيوافق بذلك الحاضر والآني وما يُدرك مباشرة "، أمّا المفهوم الثاني (٢) والمتمثل في غنى القلوب، فلا يُفهم في نطاق تميّزه عنه، إلا في علاقته بالمفهوم الأوّل (١)، بهدف إزالة التعارضات التي قد تظهر بين مظاهر هذا الأخير، ذلك أنّ المفهوم الثاني يمثل الواقع الذي يَحْمَص على الكثير من الناس.

وعليه فالفصل الذي قام به ابن قيم الجوزية مكنّ من الرفع من بعض المظاهر التي يظهر من خلالها المفهوم الأوّل (١)، إذ أنّه سمح بالتمييز داخل الظواهر ذات الوضع الملتبس بين تلك سوى ظاهر (المال والذهب) وتلك التي تمثل الواقع (غنى القلب والنفس) .

وهذه النقطة الأساسية جوهرية الكنه نظراً لأهميتها في الحجاج، ففي حين أنّ "الوضع الأوّلي لما يقدّم كمادة انطلاقاً للفصل ملتبس وغير محدّد، فإنّ عملية الفصل إلى حدّ (١) وحدّ (٢) ترفع من قيمة المظاهر الموافقة للحدّ (٢)، وتحفّز المظاهر التي تتعارض معه"¹.

وبالتالي فإنّ ابن القيم قد قام بعملية الفصل كي يميّز مقصوده ويقنع متلقيه ويسهل عليهم الأمر بالفهم والتي توصف " بتحصيل الحاصل " التي لا تأخذ أيّ معنى إلا بإعادة التأويل لأحد الأطراف بفضل الفصل.

* كل ما كان من مال غير نقد (ذهب، فضة، ...) .

¹ الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، مرجع سابق، ص 99/98.

2.2. الفصل بإعادة التعريف :

ويتجلى في قوله : " الغنى الثَّامُّ في الحَقِيقَةِ : عَمَى القَلْبِ، حَتَّى إِنَّ عَمَى البَصَرِ بالنَّسَبَةِ إِلَيْهِ كَلَّا عَمَى ".

فابن القيم يعيد تعريف الشيء المشهور عند الناس وهو العمى الذي يُقصد به ذهاب البصر، وذلك بتعريف آخر متداول في الواقع، فليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة والقلب، يقول تعالى : " أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور " (الحج/46).

وهكذا فإن استراتيجية ابن القيم الحجاجية تبرز في توضيحه لتعريف آخر موجود في الواقع ومخالف للظاهر. وهذا من باب إقناع وشدّ انتباه المتلقي. وهو سبب تعريف ابن القيم لهذا المفهوم بتعريف آخر مخالف تمامًا.

وهكذا تمّ الفصل بين المفهومين عن طريق أسلوب التعريف، وذلك بإعادة تعريف مصطلح مشهور عند الناس أو المتلقي بصفة عامّة، فأى تعريف يُقدّم معنًا جديدًا يعتبره حقيقيًا، مقابل المعنى المعتاد الذي يراه ظاهرًا، يقوم بعملية فصل المفهوم المعرّف¹، وهذا ما قام به ابن القيم لزيادة التوضيح والإقناع بشدّة.

¹ الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، مرجع سابق، ص99.

الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء و الدواء لابن القيم الجوزية

وبهذا يتضح أنّ الآليات أو التقنيّات الحجاجيّة على ضوء البلاغة الجديدة في كتاب الداء والدواء لابن القيم تنبني على مجموعة من الحجج، موزّعة بين جملة من التقنيات المنقسمة إلى نوعين : نوع يمثّل آليات الوصل التي تعتمد على تقريب الحجج المتباعدة والربط بينها للوصول إلى نتيجة واحدة، ومنها الحجج شبه المنطقية والحجج المؤسّسة على بنية الواقع، والحجج المؤسّسة لبنية الواقع، ونوع يمثّل آليات الفصل التي تفصل بين طرفي ثنائية (الظاهر/حقيقي) المفهوم الواحد، حيث تشكّل هذه الآليات أهمّ ركائز الخطاب الحجاجي الذي أتى به ابن القيم في محاولة شرح الكثير من الأمور الصّالحة لكلّ زمان ومكان.

خاتمة

من خلال دراستنا للبنية الحجاجية التي تنطلق في مسار إيجابي، تسعى فيه الأطراف المتخالفة إلى تقريب الآراء ووجهات النظر، ولما استقرَّ عندنا من مخرجات تتبع مسار العملية الحجاجية في كتاب "الداء والدواء" لابن قيم الجوزية - والتي كانت ردًّا عن تساؤل رجل مريض ولم يجد لمرضه دواءً - تبدت لنا جملة من النتائج نلخصها فيما يأتي:

1. إنَّ قيام الحجاج على مبدأ الحوار يجعله فعالية تواصلية بالدرجة الأولى؛ إذ هو الخيار الأنسب والأفضل في تقريب أوجه النظر المختلفة، بعيداً عن التقاتل والتنازع، فكان بذلك حضور التواصل الحجاجي قوياً على الصعيد الفكري، وهذا ما يبرر تبني فكرة كون الحجاج أساساً للتواصل واستعمال اللغة.
2. تتناقلت معاجم اللغة معاني مادة (ح ج ج) ودارت في مجملها على معانٍ، تختزل مفهوم الحجاج في اللغة فيما يلي: "فعل المخاصمة، والمغالبة الذي يقتضي الرجوع، وقصد الدليل (الحجة)، والذي يشترط فيه القوة والصلابة.
3. يحكم مفهوم الحجاج - من حيث الاصطلاح - عاملان رئيسان هما: الزمن، ونوعية الثقافة، وكلاهما يحصران مسار هذا المفهوم في الثقافة العربية، والغربية قديماً، وفي العصر الحديث.
4. الحجاج فعل لغوي غائي، يتحقق بين حمل المتلقي على الإذعان، والسعي إلى إقناعه بشتى الآليات المختلفة حسب المقام.
5. كثير من الأبحاث في الثقافة العربية تصبّ في موضوع الحجاج بالمفهوم الحديث له، وإن لم تأت بلفظ الحجاج نفسه؛ لاستعمال معناه على الترادف في كثير من الاصطلاحات، ولم يتأتى الفصل في فروق ما بينها إلا في العصر الحديث؛ ويدلّ على ذلك مصطلح الجدل؛ إذ هو أبرز الاصطلاحات التي وُظِّفت مرادفة لمصطلح الحجاج، غير الحجاج أوسع من الجدل؛ فكل حجاج جدل، وليس كل جدل حجاجاً، كما أن المراد بالجدل ظهور الحجة، بينما المراد من الحجاج هو الرجوع عن المذهب.
6. تداخل مفهوم الحجاج في الثقافة الغربية مع مفهومي الجدل والخطابة؛ فقد أقرَّ أرسطو أن الحجاج الجدلي، والحجاج الخطابي يمثلان النمطين الحجاجيين الممكنين، وإليهما ترجع مفاهيم كل الأجناس الحجاجية المختلفة.
7. جهود الدارسين الغربيين البحثية في ميدان الحجاج حديثاً، تدور حول نقاط أهمها:

- محاولة تخلص مصطلح الحجاج (البلاغة الجديدة) مما علق به من زخرف القول، ومغالطة المنطق.
- تداول معظم المنظرين مصطلحي البلاغة والحجاج على الترادف، وخاصة عند بيرلمان ومايير.
- تشكّل المرجع النظري للحجاج في الدراسات الغربية من مجموعة من النظريات الحجاجية، فنظرية البلاغة الجديدة هي الأساس الأول، والمنطلق لكل النظريات بعدها، وقد حصر الحجاج فيها في أشكال اتصالية وأشكال انفصالية. أمّا نظرية المساءلة - التي كانت انطلاقتها فلسفية - اختزل فيها " مايير " عملية الحجاج في ثنائية (سؤال/جواب) وهي تقترب كثيرا من نظرية البلاغة الجديدة خاصة من حيث المفاهيم والمصطلحات، وقد تبلورت جهود " تولمين " النظرية في دراسة الحجج وأنواعها، وتعدّ نظرية الحجاج في اللغة ثمرة تزاوج بين الحجاج و التداولية، إذ يعد الحجاج بعدا جوهريا في اللغة، أسهب صاحبها "ديكرو" في تحليل البناء الحجاجي من طريق السلم الحجاجي، والروابط والعوامل الحجاجية.
- 8. تركزت مفاهيم الحجاج عند الباحثين العرب في ثلاثة أبعاد وهي: البعد التأثيري، والبعد التفاعلي، والبعد اللغوي، وهي في أغلبها متأثرة بمفاهيم النظريات الحجاجية الغربية.
- 9. إنّ التراث العربي الإسلامي يشكل على تنوع روافده أرضية صلبة، تُقيم من جهة دليلا قاطعا على أن الخطاب الحجاجي العربي فيه من الشمول والتراء ما يجعله مُنقّدا عن غيره من خطابات الثقافة الأجنبية، ومن جهة أخرى يؤسس للدرس الحجاجي العربي الذي يلتقي مع أصول النظرية الحجاجية المعاصرة في نقاط عديدة.
- 10. يختلف الحجاج باختلاف الطبقات المقامية التي يتنزل فيها، ويفرض على المحاجج اختيار التقنيات الحجاجية بتراكيبها ومعانيها المختلفة والمتعددة، والتي تتماشى والسياقات التي تُنتج فيها الخطابات، وتتسجم تمام الانسجام مع غاية الخطاب الحجاجي.
- 11. محاولة بيرلمان الرائدة التي سعت إلى إخراج المفاهيم التداولية الحجاجية من صلب البلاغة التقليدية الغربية، وإكسابها طاقة حجاجية جديدة، فتحت المجال ليسعى المحاجج إلى توظيفها في خطابه المتنوعة لتحقيق عملية الإقناع، كالشاهد والقدوة والتناسب وغيرها. وهو ما يسوغ تسمية هذا النزوع الفكري التجديدي بـ " البلاغة الجديدة ".
- 12. انصبّ اهتمام بيرلمان على الحجج المؤسّسة للتقنيات الحجاجية، وقسمها إلى ثلاث أنواع رئيسية :

الحجج شبه المنطقية، الحجج المؤسسة على بنية الواقع، الحجج المؤسسة لبنية الواقع. وقد تمّ البحث عن هذه التقنيات في كتاب الداء والدواء لابن القيم الجوزية، والتي وجدناها كآلاتي:

• الأولى: وهي التي كانت نتائجها نسبية وغير ملزمة، وتفقر إلى الصرامة، إلا أنها تحتفظ بقدرتها على الإقناع.

• أمّا الثانية: فهي التي تستمد في أساسها إلى الواقع، وتقوم على الوقائع والأحداث المتعاقبة بين الأشياء المكونة لهذا الواقع.

• في حين أنّ الحجج الثالثة: هي التي لا تقوم على الواقع بل تعيد بناءه بواسطة الحالات الخاصة التي تسعى إلى تأكيد أو توضيح قضية معينة، أو بواسطة التمثيل الذي يسعى إلى الربط بين المتباينات أو المتناقضات في النوع أو الجنس.

13. تجاوزت المدونة المدروسة التفاعل القائم في التّواصل إلى عملية حجاجية هي نتاج التّفاعل والتّقابل ممّا أعطاهما شكل المناظرة الضمنية، التي كان فيها الرجل سائل، ووقف فيها ابن القيم الجوزية المجيب، بعد أن جرد من ذاته ذاتا أخرى يُحاورها ويُحاججها في كتابه، حتّى تبدّت حوارا ضمنيا فكان حجاجا تقويميا هادفا وموجّها لجلّ الأمة الإسلامية.

14. كان ابن القيم حاذقا في ترتيب بناء خطابه الحجاجي، والذي يُحتمّ عليه في كلّ مرحلة من مراحل الخطاب التنبّه لمبدأ القيمة، فبنى خطابه وفقا للسيرورة الحجاجية المُتعارف عليها وفق مراحل ثلاث: مرحلة الافتتاح، ثمّ المواجهة الحجاجية، وأخيرا مرحلة الختام.

15. بنى ابن القيم خطابه الحجاجي على الأدلّة المقنعة لا محالة، والتي من خلالها طرح أسس للقضية المطروحة المراد توضيحها وإعطاء الإجابة الكافية والشفافية لكلّ سائل.

16. حجج ابن القيم ظاهر من خلال تعلّق السبب بالنتيجة، والتّلازم العقلي بين الحجّة العقلية والدليل النّقلي، كما اعتمد على الحجج بالتعليل، والذي أفضى به إلى المزيد من الشّرح و التّحليل للتّأسيس و البناء للحجج.

17. اعتمد ابن القيم في حجاجه على الحجج بالقيمة، والقيمة هي الغاية خاصّة، وذلك ضمانا للسبيل الناجح للحجاج؛ لأنّ تمسك الناس بها قوي، وهذا ما يزيد في درجة اقتناعهم بالمراد.

18. يؤكّد ابن القيم وهو يبني خطابه على الدليل القرآني الذي كلن في بعضها معطى، وفي بعض آخر ضمنياً، وفي كثير من الحالات نتيجة؛ أي أنّ القرآن هو الحجّة البالغة التي لا مثيل لها ولا نقاش فيها.

19. تتشكل البنية الحجاجية لكتاب "الداء والدواء" من حجج متعددة ومتنوعة، وأحيانا تكون في سياق واحد، وتتسم بالانفتاح، وتهدف إلى إقناع أكبر عدد ممكن من المتلقين، والأكثر من ذلك أنها تسعى إلى إقناع المتلقي عبر الحقب الزمانية المختلفة، خاصة عندما تخاطب العقل والحس معاً.

20. توظيف ابن القيم لكل التقنيات الحجاجية بالمفهوم البيرولماني، يكشف لنا أحد أسرار القوة الإقناعية في أسلوبه في كتاب "الداء والدواء"، وهو ما يعتبر منطقياً بالنظر لغرض تأليف الكتاب، وهو العلاج النفسي لمريض استحكمت فيه جذور البلاء، حتى كادت تؤدي بدينه ودينه، مما دفع بابن القيم لتصنيف رسالة، طال نفسه فيها جدا حتى صارت مجلدا لطيفا، يعد من نفائس التأليف العربية، ونموذجا واضحا للخطاب الحجاجي الفعّال في ثقافتنا العربية الإسلامية.

و يجدر بنا التنبيه لكثرة الروابط والعوامل اللغوية الموجودة في كتاب الداء والدواء لابن قيم الجوزية، التي تحتاج إلى دراسة جادة ترقى إلى بحث أكاديمي؛ كونها عوامل تجاوزت أدوارها إلى أدوار حجاجية، منحت من خلالها الخطاب قوة حجاجية وضمنت له السيرورة الناجحة، بالإضافة إلى دراسة مقومات الحجاج وفق البلاغة الجديدة والتي تبرز بكثرة في المدونة.

هذا ما حواه وعاء البحث بعد جمع، وترتيب، وتنسيق، وتحليل، واستنتاج لما أدركناه حول هذا الموضوع، والذي نأمل أن يكون جهدا مثمرا، وانطلاقة جديّة لبحوث أخرى إن شاء الله.

الملحق

1. ابن قيم الجوزية:

هو الفقيه، المفتي، الإمام شيخ الإسلام الثاني، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعي الدمشقي الشهير بـ "ابن قيم الجوزية"، والقيّم هو الناظر أو المسؤول ، ولد سنة (691هـ) الموافق لـ (1292م) بمدينة دمشق، ، نشأ في جو علمي ينادي بحب العلم ودراسته، وذلك في كنف والده الذي كان قيماً على المدرسة الجوزية، فعني بسماع الحديث، وبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين، وتلقى علم الأصول على يد ابن تيمية - الذي كان أبرز شيوخه - وغيره من أهل العلم، وتفرغ لطلب العلم والاجتهاد فيه، حتى أصبح فريداً في بابيه في فنون كثيرة، واقتنى كثيراً من الكتب عن السلف والخلف ما لم يحصل لغيره، يقول ابن رجب: " لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله"¹، ومن هنا نستنتج أن ابن القيم على دراية بفنون كثيرة سواء في العلوم، والتفسير والأصول في المنطوق والمفهوم.

أما عن أخلاقه فقد " كان حسن القراءة والخلق، كثير التودّد للناس لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد، وكنت من أصحاب الناس له، وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة لله منه"²، وبالجملة كان عالماً وعابداً بكل ما تحمله الكلمة من معنى،

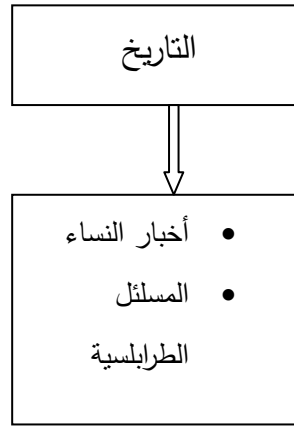
في حين أن الحديث عن آثاره متصل الأسباب بالحديث عن ثقافته؛ إذ يمكن منها التعرف على عقليته ومنهجه الفكري، فالآثار مرآة صاحبها؛ كونها تحفظ صورته رغم تعاقب السنين، وتبين اتجاهاته وميادين فكره، ويمكن أن نمثّل للتوجهات الكبرى لمؤلفات ابن القيم بهذه الترسّيمة (من اجتهادنا):

¹ ابن رجب: نيل طبقات الحنابلة، الدار المحمدية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 1952م، ج2، ص447.

² ابن كثير : البداية والنهاية، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، ج4، ص270.

المؤلفات العلمية لابن قيم الجوزية





وفي ليلة الخميس الثالث عشر من رجب سنة (751هـ) الموافق لـ (1350م) توفي الشيخ الإمام العلامة ابن القيم، وصلي عليه بعد صلاة الظهر بالجامع الأموي، ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير.

2. كتاب "الداء والدواء" أو "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي":

هو كتاب ألفه الإمام ابن قيم الجوزية في 751 صفحة، يتناول في فصوله موضوع إصلاح النفس وتقويمها، وتهذيبها وفق المنظور الإسلامي، حيث ينتقل القارئ بين فصوله ماراً بالنصيحة والتوبيخ، ويعالج من خلاله قضايا النفس البشرية وأدوارها، ورسم سبل إصلاحها وتركيتها، فبين آفات النفس الأمارة بالسوء، مظهر عيوبها وزلاتها، ومبيّن سلطة الشهوات عليها، ومحذراً من مكائد الشيطان وحيله في إيقاع النفس بالمعاصي والذنوب، والركون للحياة وزينتها، فوضّح معنى المعصية وأسبابها وآثارها على النفس والمجتمع، ومآلاتها في الدنيا والآخرة، ثم عرض لبيان الدواء الناجح لهذا الداء، مستلهماً توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية في إصلاح النفوس والمجتمع.

وكان سبب تأليفه هو توجيه سؤال لابن القيم مفاده: " ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين في رجل ابتلي ببليّة وعلم أنها إن استمرت به أفست عليه دنياه وآخرته؟ وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما يزداد إلا توقّداً وشدة فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم الله من أعان مبتلى والله في عون أخيه ما كان العبد في عون أخيه أفنونا مأجورين رحمكم الله تعالى".¹

وقد اتسمت معالجته لهذا الموضوع بالدقة والحجة الدامغة والموضوعية البالغة، فكان العالم الاجتماعي والمربي الحريص الذي يعرف مكونات النفس البشرية وطبائعها وميولاتها، ويحدّد أسباب الداء الذي أصابها، ثم يشرع في وصف الدواء الملائم من خلال أحكام الشريعة وفضائها، أي بالأدلة العقلية والنقلية.

¹ ابن قيم الجوزية: الداء والدواء، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط1،

1429هـ/2008م، ص7.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع:

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1-المصادر:

(1) ابن قيم الجوزية: الداء والدواء، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ/2008م.

2-المراجع:

2-1-الكتب باللغة العربية:

- (1) إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق، الجزائر، ط1، 2005م.
- (2) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: مصطفى الشيخ مصطفى، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1428هـ/2007م.
- (3) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ج2
- (4) ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، السعودية، ط2، 1999م، ج1.
- (5) ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، دت، ج4.
- (6) ابن رجب: نيل طبقات الحنابلة، الدار المحمدية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 1952م، ج2.
- (7) ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفني محمد شرف، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر، 2017م.
- (8) أبو بكر الرازي: مختار الصحاح، ضبط وتخريج: مصطفى ديب البغا، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ط4، 1990م.
- (9) أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1426هـ، 2006م.

قائمة المصادر و المراجع:

- 10) أحمد الطايغي: القراءة بالمماثلة في الشعرية العربية القديمة، منشورات زاوية مطبعة إبيث، الرباط، المغرب، 2007م.
- 11) أحمد المتوكل: الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2010L
- 12) أحمد أمين، زكي نجيب محفوظ: قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1935م.
- 13) أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، ج3.
- 14) جابر عصفور: خطاب الخطاب، آفاق العصر، دار الهدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 1999م.
- 15) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1418هـ / 1998م، ج4.
- 16) جعفر آل ياسين: المدخل إلى الفكر الفلسفي عند العرب، دراسة في التراث، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1980م
- 17) جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2002م.
- 18) حافظ إسماعيل علوي: الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2011م.
- 19) حسين الخمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.
- 20) الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2014م.
- 21) حمادي صمود: من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1999م.
- 22) الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م.
- 23) خلود العموش: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، مثل من سورة البقرة، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2008م.

قائمة المصادر و المراجع:

- (24) ذهبية حمّو الحاج: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2005م.
- (25) رزان محمود إبراهيم: خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2003م.
- (26) زكريا السرتي: الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014م.
- (27) الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1947م، ج4.
- (28) سراب الرحموني: الحجاج في بنية كتاب طوق الحمامة في الألفة والآلاف لابن حزم الأندلسي، دار سحر للمعرفة، تونس، ط1، 2013م.
- (29) سعيد يقطين: إنتاج النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 1997م.
- (30) صابر الحباشة: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2008م.
- (31) صابر الحباشة: لسانيات الخطاب: الأسوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2010م.
- (32) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ، 2004م.
- (33) طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997م.
- (34) طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م.
- (35) طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1998م.

قائمة المصادر و المراجع:

- 36) عامر مصباح: الاقتناع الاجتماعي، خلفيته النظرية وآلياته العلمية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط4، 2006م.
- 37) عباس حشاني: خطاب الحجاج والتداولية، دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014م.
- 38) عبد الجليل العشراوي: الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م.
- 39) عبد السلام عشير: عندما نتواصل نتغير، مقابلة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2006م.
- 40) عبد القادر قادا: الحجاج في الخطاب السياسي، الرسائل السياسية الأندلسية خلال القرن الهجري الخامس أنموذجا دراسة تحليلية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2015م.
- 41) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط1، دت.
- 42) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، وقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، 1402هـ / 1981م.
- 43) عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط7، 1434هـ / 2013م.
- 44) عبد الله بن حسين الموجان: الحوار في الإسلام مركز الكون، مكة المكرمة، السعودية، ط1، 1427هـ / 2006م.
- 45) عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م.
- 46) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
- 47) عزيز لدية: نظرية الحجاج تطبيق على نثر ابن زيدون، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2015م.

- 48) علي بن محمد الأمدي: الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986م، ج1.
- 49) قدور عمران: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2012م.
- 50) كمال الزماني: حجاجية الصورة في الخطبة السياسية لدى الإمام علي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م.
- 51) لطفي عبد البديع: فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
- 52) مجموعة من الباحثين: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه وضوابطه، تنسيق: حمو النقاري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1427هـ / 2006م.
- 53) مجموعة من الباحثين: الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيل علوي، الأجزاء 1 و 2 و 3، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010م.
- 54) مجموعة من الباحثين: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمّادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، ط1، دت.
- 55) محمد أبو النور الحديدي: عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، مطبعة الأمانة، مصر، 1399هـ / 1979م.
- 56) محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004م.
- 57) محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م.
- 58) محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، 2008م.
- 59) محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية ونقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط5، 1994م.

قائمة المصادر و المراجع:

- 60) محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2017م.
- 61) محمد ملياني: محاضرات في تحليل الخطاب لطلبة ل م د السداسي الخامس، تخصص: دراسات أدبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، دت.
- 62) محي الدين يوسف بن عبد الرحمن الجوزي: قوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، تحقيق: محمود بن محمد السيد الدغيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1415هـ/1995م.
- 63) منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، سوريا، 1990م.
- 64) نور الدين السّد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، 1997م.

2-2- الكتب المترجمة:

- 1) أرسطو طاليس: فن الخطابة، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، 1979م.
- 2) باتريك شارودو: الحجاج بين النظرية والأسلوب عن كتاب نحو المعنى والمبنى، ترجمة: أحمد الوردى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، 2009.
- 3) تازفيتان تودوروف: ميخائيل باختين: المبدأ الحوارى، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1996م.
- 4) جاك موشلار، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، إشراف: عز الدين المجذوب، دار سيناترا، تونس، دط، دت.
- 5) فليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار والنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007م.
- 6) فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج المعاصرة، ترجمة: محمد صالح ناجي الغامدي، مركز النشر العلمي، جدة، السعودية، ط1، 1422هـ، 2011م.

2-3- المعاجم :

- 1) ابن فارس: مقاييس اللغة، دار الكتب العلمية، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ، 1999م، مج2.
- 2) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ، 1990م، مج2 .

قائمة المصادر و المراجع:

- (3) التهانوي: كشف اصطلاحات الفنون، تحقيق: لطفي عبد البديع، الهيئة العامة للكتاب، مصر، 1972م، ج2.
 - (4) دومينيدي مانقونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005م.
 - (5) الكفوي: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مادة خطب، تحقيق: عدنان درويش، الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ج1.
 - (6) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدوليّة، القاهرة، مصر، ط4، 2004م.
- 2-4- مقالات ضمن كتب :**
- (1) أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، مقال ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه وضوابطه.
 - (2) أحمد يوسف: البلاغة السوفسطائية وفاتحة الحجاج، تهافت المعنى وهباء الحقيقة، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2.
 - (3) الحبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3.
 - (4) الحسن بعبو: استئناف القول في الطبيعة الحجاجية للمقال الفقهي على شرط أبي حامد الغزالي، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3.
 - (5) حمادي صمود: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، مقال ضمن كتاب أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم.
 - (6) حمّو النقاري: حول التقنين الأرسطي لطرق الإقناع، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3.
 - (7) رشيد الراضي: السفسطات في المنطقيّات المعاصرة، التوجّه الجدلي، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3.
 - (8) شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة، مقال ضمن كتاب أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية.
 - (9) عبد الجبار أبو بكر: الحجاج الفلسفي، وإشكالية المشترك اللفظي، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3.

قائمة المصادر و المراجع:

- 10) عبد الرزاق بنور: الأطر الايديولوجية لبعض نظريات الحجاج، مقال ضمن طتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2.
- 11) عبد الله صولة: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة {أو الحجاج}، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1.
- 12) عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطقاته، من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة ليبرلمان، مقال ضمن كتاب أهم نظريات في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم.
- 13) عبد الهادي بن ظافر الشهري: آليات الحجاج وأدواته، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1.
- 14) محمد الواسطي: أساليب الحجاج في البلاغة العربية، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3.
- 15) محمد الولي: الاستعارة اليونانية والعربية والغربية، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2.
- 16) محمد سالم محمد الأمين الطلبة: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2.
- 17) محمد علي القارصي: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسائلة لميشال مايير، مقال ضمن كتاب أهم نظريات التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم.
- 18) ناصر البُعزاتي: الصلة بين التمثيل والاستنباط، مقال ضمن كتاب التحايج طبيعته ومجالاته ووظائفه سعيد العوادي: تقنيات الحجاج في الدراسات العربية المعاصرة عبد الله صولة أنموذجا، مقال ضمن الكتاب الجماعي الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة.
- 19) هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، مقال ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم.

2-5- مقالات ضمن مجلات:

- 1) رضوان الرقيبي: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، عالم الفكر، العدد2، المجلد40، أكتوبر/ديسمبر، 2011م.
- 2) رميساء مزاهدية: الخطاب الحجاجي دراسة نظرية في ماهية الخطاب وعلاقته بالحجاج، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، العدد1، المجلد11، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، مارس، 2019م.

- 3 شعبان أمقران: تقنيات الحجاج في الباعة الجديدة عند شايبم بيرلمان، تخصص: الشغريات وقضايا النص الأدبي، إشراف: أستاذة التعليم العالي حفيظة رواينية، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2018م
- 4 طه عبد الرحمن: الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج، مجلة المناظرة، عدد4، ماي، 1991م.
- 5 عبد الحفيظ غرس الله: التصوف الإسلامي والغيرية، إنسانيات المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، 2019م.
- 6 لمهابة محفوظ ميارة: مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، دراسة مصطلحية، مجلة اللغة العربية، دمشق، سوريا، مج{81}، ج3.
- 7 محمد الولي: مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايبم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، العدد2، مج40، أكتوبر/سبتمبر، 2011م.
- 8 نعمة دهش فرحان الطائي: نظرية المسائلة والبلاغة لميشال مايبير، مقارنة في الأصول والأسس والتمثلات، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، جامعة بغداد، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد43، نيسان، 2019م مرضوان الرقيبي: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، عالم الفكر، العدد2، المجلد40، أكتوبر/ديسمبر، 2011م.

2-6- المذكرات والأطروحات:

- 1 ابتسام بن خراف: الخطاب الحجاجي والسياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، دراسة تداولية، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في اللغة، جامعة الحاج لخضر، قسم اللغة والأدب العربي، باتنة، الجزائر، 2009م/2010م.
- 2 إيمان درنوني: الحجاج في النص القرآني سورة الأنبياء أنموذجا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2012م/2013م.
- 3 حسين بوبلوطة: الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التّوحيدي، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، تخصص: لسانيات الخطاب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2009م/2010م.
- 4 حمدي جودي منصور: بنية الخطاب الحجاجي في كلية ودمنة لابن المقفع، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآداب واللغة العربية، تخصص: اللسانيات واللغة العربية، 2015م/2016م.

قائمة المصادر و المراجع:

- (5) كهينة زموش: حجاج موسى عليه السلام في النص القرآني، دراسة تداولية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في اللغة والأدب العربي، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة تيبزي وزو، الجزائر.
- (6) لامية بوداود: تحليل الخطاب الميني روائي في الجزائر، رواية أوشام بربرية لجميلة زنير أنموذجا، مذكرة مكملة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر.
- (7) محمد عرابي: البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، جامعة وهران، الجزائر، 2008م/2009م.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات:

الصفحة	المبحث
أ - هـ	مقدمة
76 - 6	الفصل الأول: التأسيس المصطلحي للخطاب الحجاجي
07	تمهيد
08	1. الخطاب.
09	1.1. مفهوم الخطاب:
10	1.1.1. لغة.
12	2.1.1. اصطلاحا.
14	2.1. الخطاب والنص.
19	3.1. عناصر الخطاب.
23	4.1. شروط الخطاب.
26	5.1. أنواع الخطاب.
29	2. الحجاج:
30	1.2. مفهوم الحجاج:
31	1.1.2. لغة.
32	2.1.2. اصطلاحا.
42	2.2. الحجاج تطور وتاريخ:
42	1.2.2. الحجاج عند الغرب:
42	1.1.2.2. قديما.
49	2.1.2.2. حديثا.
60	2.2.2. الحجاج عند العرب:
60	1.2.2.2. قديما.
65	2.2.2.2. حديثا.
71	3.2. أنواع الحجاج.
72	4.2. ضوابط الحجاج.
73	5.2. خصائص الحجاج.
134 - 77	الفصل الثاني: الآليات الحجاجية في كتاب الداء والدواء لابن قيم الجوزية
78	تمهيد

فهرس المحتويات:

81	1. الآليات الوصلية.
81	1.1. الحجج شبه المنطقية:
82	1.1.1. الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية:
82	1.1.1.1. التناقض وعدم الاتفاق.
84	2.1.1.1. التماثل والحد في الحجج.
86	3.1.1.1. الحجج القائمة على العلاقة التبادلية.
88	4.1.1.1. حجج التعدية.
90	2.1.1. الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية:
91	1.2.1.1. إدماج الجزء في الكل.
92	2.2.1.1. حجة تقسيم الكل إلى أجزاء.
94	3.2.1.1. حجة المقارنة.
96	2.1. الحجج المؤسسة على بنية الواقع.
97	1.2.1. الاتصال التتابعي والحجة البراغماتية:
98	1.1.2.1. الحجة النفعية.
99	2.1.2.1. حجة التنذير والتنبيذ.
101	3.1.2.1. حجة الاتجاه.
103	2.2.1. الاتصال التوايدي وعلاقات التعايش.
103	1.2.2.1. الشخص وأعماله.
106	2.2.2.1. حجة السلطة.
108	3.2.2.1. الاتصال الرمزي.
110	3.1. الحجج المؤسسة لنية الواقع:
110	1.3.1. تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة:
111	1.1.3.1. الشاهد.
114	2.1.3.1. المثل.
115	3.1.3.1. القدوة والقدوة المضادة.
119	2.3.1. تأسيس الواقع بواسطة التناسب.
125	3.3.1. تأسيس الواقع بواسطة الاستعارة.
128	2. الآليات الانفصالية.

فهرس المحتويات:

131	1.2. الفصل بين المفاهيم.
133	2.2. الفصل بإعادة التعريف
135	خاتمة.
140	الملحق.
145	قائمة المصادر والمراجع.
156	فهرس المحتويات.
-	الملخص

الملخص

أولاً: الملخص باللغة العربية:

يندرج هذا البحث في سياق الكشف عن آليات البنية الحجاجية في الخطاب الحجاجي، وذلك بدراسة الخطاب من جهة والحجاج من جهة أخرى، وصولاً إلى الآليات الحجاجية وفق نظرية بيرلمان.

وانطلاقاً من طبيعة الحجاج الحيوية في تقريب الآراء المتباينة، ودوره في تسهيل حركة التواصل بينها تولدت رغبة في النفس تبتغي البحث في هذا الموضوع، وتسعى إلى ربطه بقضية من أهم القضايا التي طرحت في الثقافة العربية الإسلامية القديمة، وذلك للتبصر بمدى فاعلية الحجاج في تلك الفترة بصفة عامة وفي الخطاب الحجاجي بصفة خاصة، والمتمثل في كتاب الداء والدواء الذي رد فيه ابن قيم الجوزية على تساؤل رجل مريض بداء الحب. وقد استقر البحث حينئذ تحت عنوان: "آليات الخطاب الحجاجي في كتاب الداء والدواء لابن قيم الجوزية - مقارنة وصفية في ضوء نظرية شايم بيرلمان -".

وتتلخص هيكلية البحث التي شكلت بناءه بعد استوائه على فصلين تتقدمهم مقدمة شكلت انطلاقة البحث من حيث عرضها لإشكاليته، وتساؤلاته، وأهدافه، ومنهج الدراسة المتبع في مقارنة الخطاب الحجاجي، كما جاء فيها ذكر لأهم المصادر والمراجع التي كان لها دور كبير في إقامة عماد هذا البحث وككل دراسة تتكى على شقين لا غنى لأحدهما عن الآخر، استهلقت الشق الأول منه بمبحثين مثلاً الفصل الأول، والموسوم بـ "التأسيس المصطلحي للخطاب الحجاجي"، وقد وقفنا في المبحث الأول على طبيعة الخطاب وأهم العناصر المحيطة به... وكان المبحث الثاني إطاراً نظرياً لمصطلح الحجاج في اللغة والاصطلاح ومساره في التاريخ بين كونه آلية إلى حد استوائه نظريات مكتملة المعالم.

وأما الشق الثاني فقد تضمن فصلاً تطبيقياً، موسوم بـ "الآليات الحجاجية في كتاب الداء والدواء لابن قيم الجوزية" والذي عملنا فيه على الإحاطة بتقنيات الحجاج الموظفة في الكتاب وفق البلاغة الجديدة التي جاء بها بيرلمان، حيث جاء على مبحثين، الأول معنون بـ "الآليات الوصلية"، والذي يشمل كل الحجج التي اهتمت بها البلاغة القديمة. بينما سعينا في المبحث الثاني والموسوم بـ "الآليات الانفصالية" إلى اقتفاء أثر بعض التقنيات الحجاجية التي تعتمد على الفصل، وبيان دورها في تقوية الحجاج.

وتلخص خاتمة البحث أهم ما يمكن أن نخرج به بعد هذه الرحلة المعرفية من نتائج قد توصلنا إليها، إما بعد جمع المعلومات وترتيبها، وإما استخلاصاً لنتائج فيما استقر عندها رأينا.

ثانيا: الملخص باللغة الفرنسية:

Cette recherche s'inscrit dans le contexte de la révélation des mécanismes du discours d' Al –Hijjaj, en étudiant le discours d'une parte et les pélerins d'autre parte jusqu' au les mécanismes de la nouvelle rhétorique de perlman.

Pendant de la nature vivace d Al-Hijjaj en le rapprochement des idées contradictoire et de son role tendant à la faciliter les liens entre elles, naquit chez nous cette volonté de rechercher ce thème visant à le lier à l'une des plus importantes questions posées en la culture arabo - islamique antique et ce examinant l'efficacite d'Al -Hijjaj en cette période généralement et au discours plus spécialement, en le livre de réponse y répondant Ibn Quayyim AL- Jawzziya à la question du homme maladie de L' amour , là nous avons opté pour le titre « Les mécanismes du discours d Al Hijjaj dans le livre de la Dyness et de la Médecine sont des approches descriptive de perlman »

L'osature de la recherche repose sur deux chapitres devancés par une introduction lançant la recherche y exposant sa problématique, ses questions , ses buts et la méthode adoptée pour approcher le discours d'Al-Hijjaj , y citant de même les plus importantes références constituant les piliers de la présentes recherche.

A l'instant de toute étude reposant sur deux partie indispensables l'une pour l'autre. La première partie de l'étude était compose de deux titres format la partie théorique intitulée « Le fondement terminologique du discours d'Al-hijjaj » le premier titre cerna la nature de discours et les élément les plus importants... et le deuxième fut un cadre théorique du terme Al-Hijjaj et récapitula le parcous d' Al- Hijjaj en histoire étant mécanisme jusqu' à devenir des théories a repères entiers.

La deuxieme partie a contenu un chapitre pratique intitulé « les mécanismes d' Al - hijjaj dans le livre de la Dyness et de la Médecine » il a traité tous les argument employés dans le livre, aussi elle est devenu a deux titre le premier est intitulé « les procédés de liaison » il comprende des arguments qui ont été présenté au sujet de la vieille rhétorique. Tandis que le dernier titre à contenu « Les procédés de dissociation » y tentant le retracer certains mécanismes en class et démontrer leur role dans le renforcement des pélerins .

La concusion résume les plus importantes travaillons après cette quête de savoir à l'exemple d'information colligées et organisées, ou aboutissant à des résultats favorisé par nous opinions, le tout suivi par la bibliographie et le tableau des matières.

ثالثا: الملخص باللغة الإنجليزية:

This research comes within the context of revealing the mechanisms of the Hijjaj discourse, by studying the speech on one hand and the pilgrims on the other, to the stone mechanisms according to Perlman's theory.

Starting from the perennial nature of Al- Hijjaj in the reconciliation of conflicting ideas and his role in facilitating the links between them, I have got the idea of seeking to link this theme to one of the most important questions in the ancient Arab Islamic culture, and examining the effectiveness of Al- Hijjaj in that period generally, and in discourse especially in the response book to Ibn Quayyim Al- jawziyya answering the question a man sick of love.

There we opted for the title "The coronary mechanisms in spiritual Disease and its cure of Ibn Quayyim Al- jawziyya descriptive approach of Perlman theory" this research is based on two chapters preceded by an introduction shedding light on its questions, goals and the method adopted to approach the discourse of Al-Hijjaj, quoting withing, as well, the most important references forming the pillars of the present research.

As with any study based on two parts each of theme essential to other, the first part of the study consisted of two subchapters forming the theoretical part entitled " The terminological foundation of the Hijjaj ", the first subchapter covered the nature of the discourses, and the surrounding elements. The second was a theoretical framework of the term Al- Hijjaj, as for the third, it recapitulated the historical path of Al- Hijjaj being mechanisms and the incarnating full theoris.

While the second part contained one practical chapter entitled "mechanisms of Al- Hijjaj speech in the book spiritual Disease and its cure of Ibn Quayyim Al -jawzziya " in which we have worked to take a note of the techniques of Al- Hijjaj employed in the book according to the new rhetoric at Perlman. It consisted of two subchapters , the first using the title of " liaison procedures" , it included arguments that have been made about the old rhetoric, and the last one entitled "Dissociation procedures "to track down some classroom based stone techniques, and to indicate its role in strengthening the pilgrims.

The conclusion summarizes the important finding of as, after this quest to know as collecting and organizing information, or giving birth to results favored by our opinions, followed by the bibliography and table of contents.